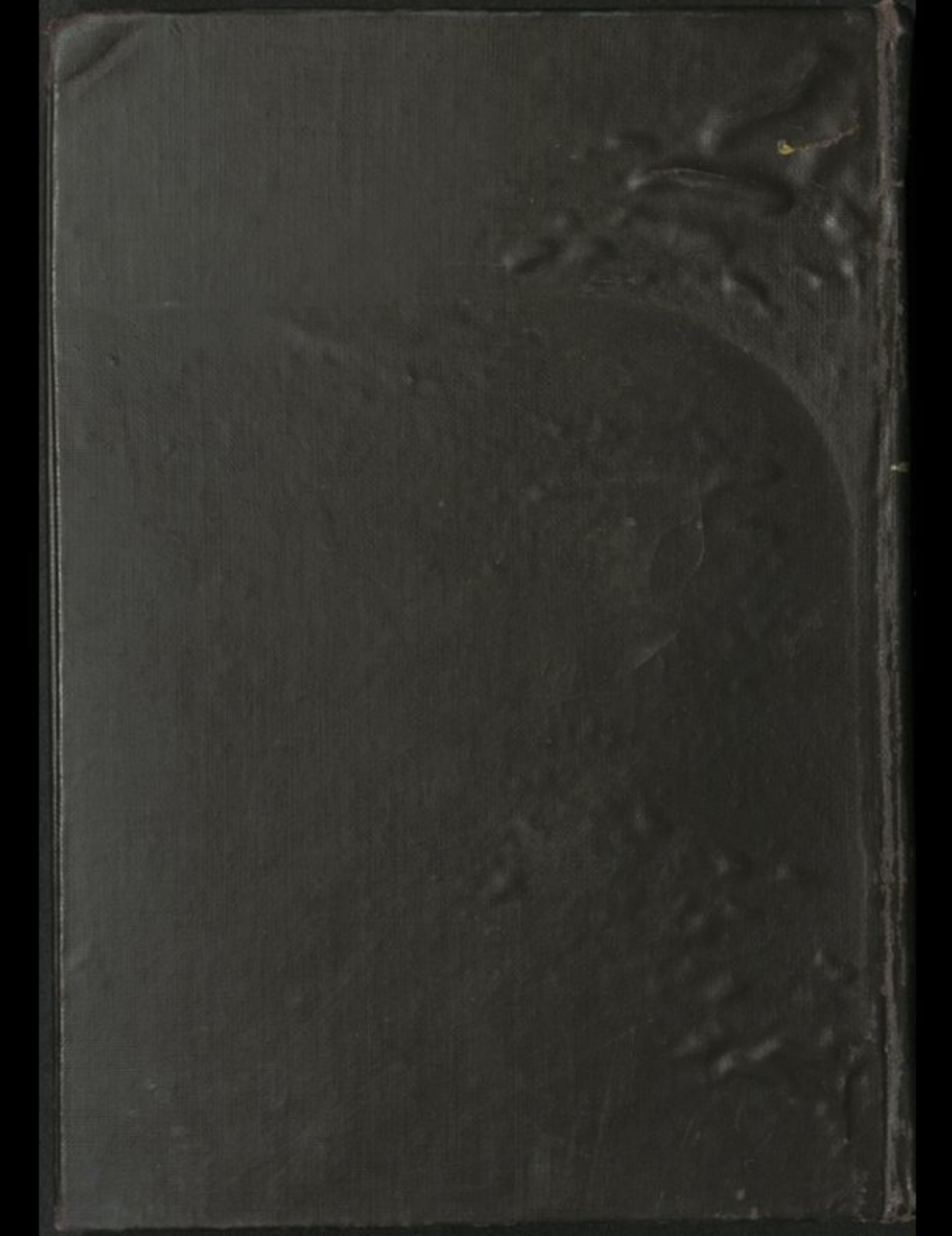




المبرى، جون لوبوك، البارون الاول
السعادة والسلام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002425

171.4

افبرى ، جون لويوك، البارون الاول .

السعادة والسلام .

171.4

A940A

~~1. Jun 70~~

~~4 JUL 1973~~



171.4
A946A
C.1
السعادة والسلام

تأليف

اللورد أفبيري

وهو العلامة الشهير وفيلسوف الحياة اليومية صاحب
« معنى الحياة » و « مسرات الحياة »
و « محاسن الطبيعة » الخ .

تعرّيب

وديع البستاني

معرب معنى الحياة

ON PEACE AND HAPPINESS

BY

THE RIGHT HON. LORD AVEBURY P. C.

TRANSLATED BY

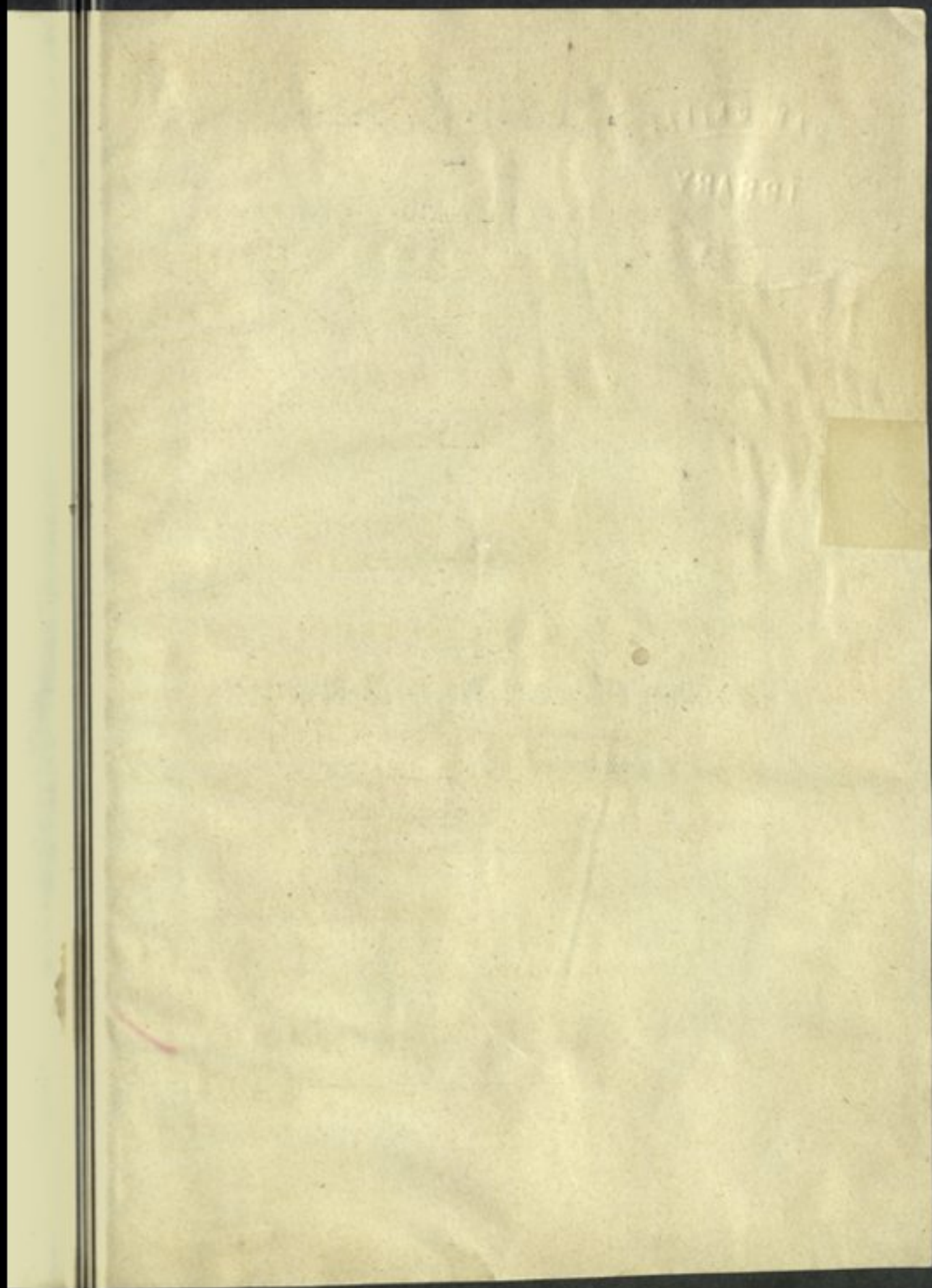
WADIH BOUSTANY B. A.

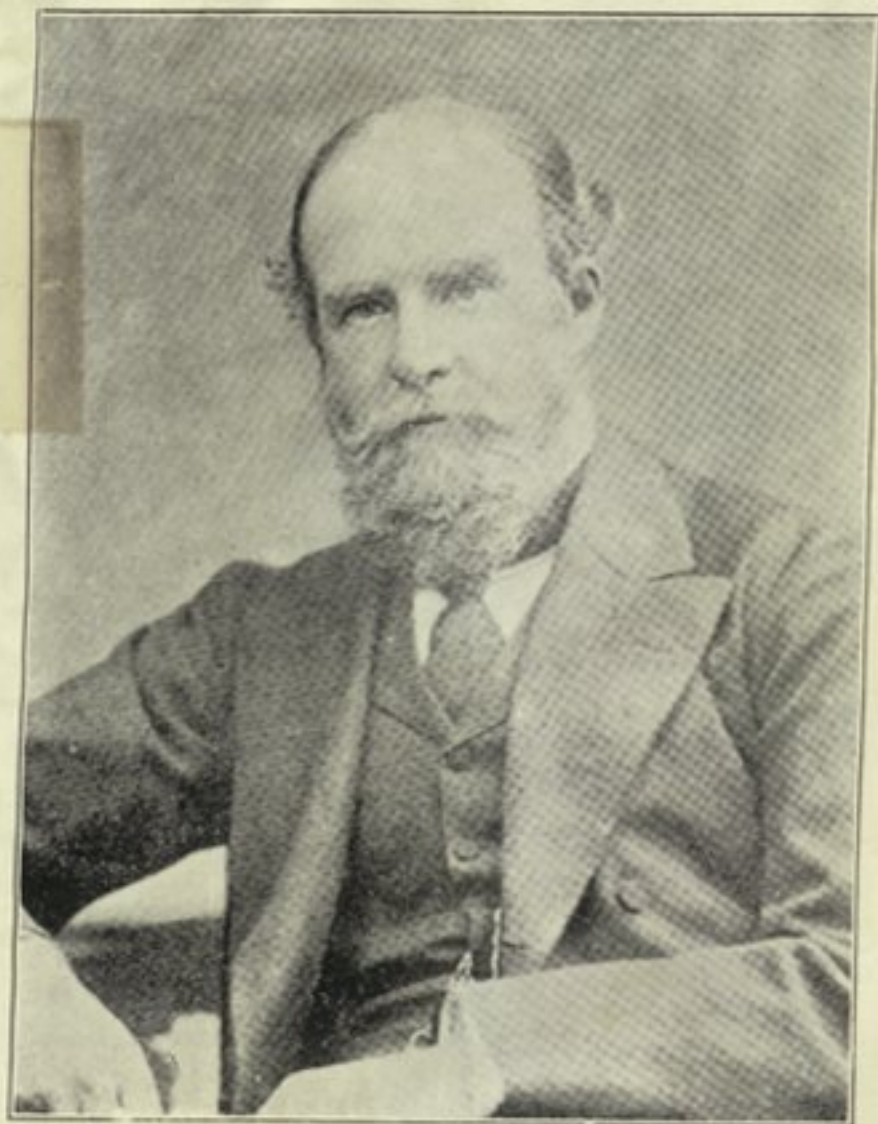
يطلب من ملتزم طبعه

بمطبعة البستاني

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها

مطبعة المعارف بشانغ انجاليه مصر



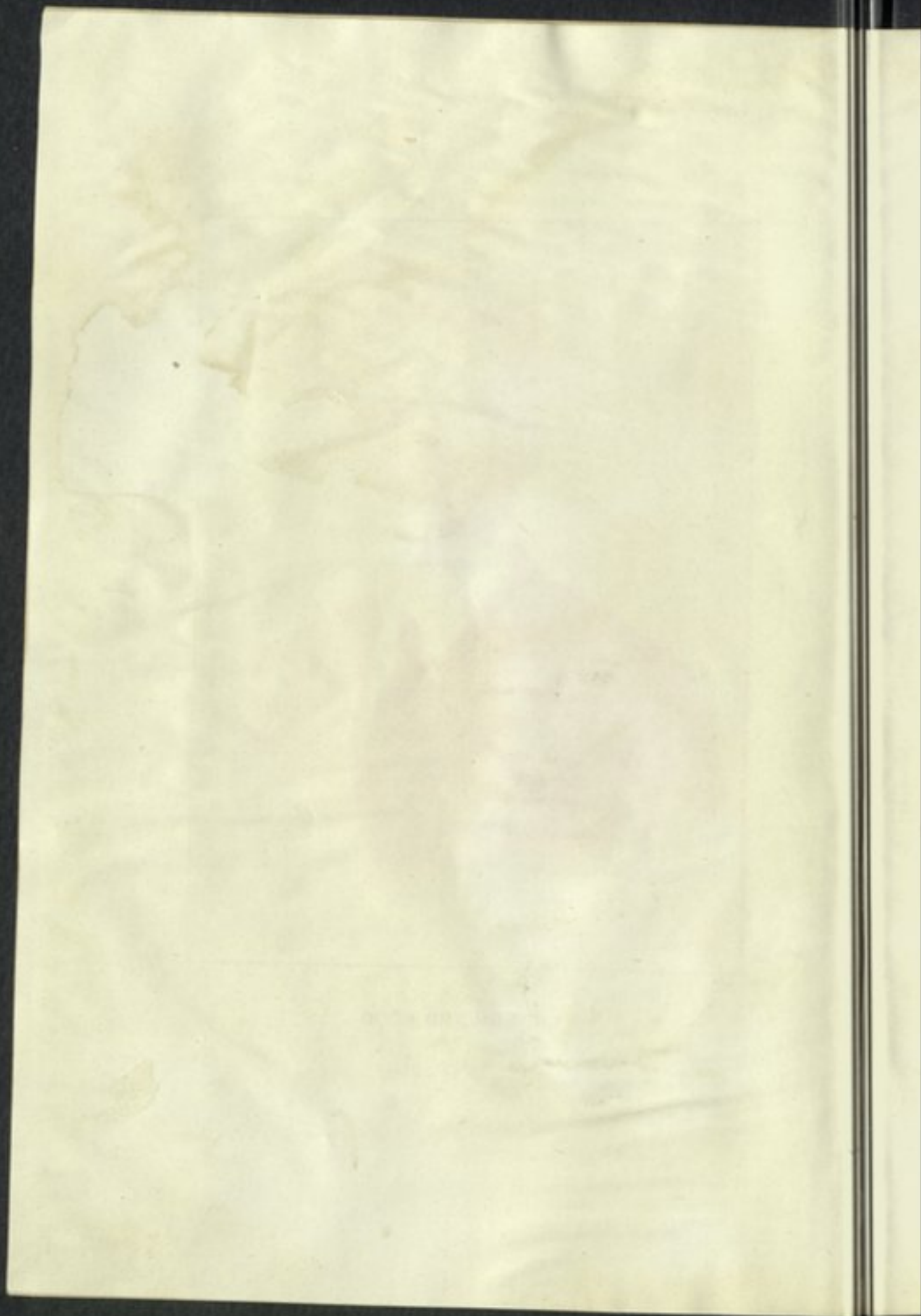


THE RIGHT HON. LORD AVEBURY

الورد افبري

THE
LIBRARY







Mr. EDWARD HOOD

المستتر ادوارد هود

اهداء الكتاب

Dedicated

to

M^r Edward Hood

*as a token of Oriental gratitude for
Western education, with my warmest
wishes for his "peace and
happiness".*

Wadih Boustany

الى

المستر ادورد هود

دلالة على اعتراف الشرقيين بفضل الغربيين على العلم
والتهذيب، متمنياً له كل سعادة وسلام

وديع البستاني

مقدمة

لناشئين المصرية والسورية سعادة وسلام !
اليكم اخواني في الشبية حديثاً فلسفياً شعرياً في الحياة وسعادتها
وسلامها ، وسائر احوال ايامها واعوامها ، يسطه شيخ جليل وعالم كبير ،
قطع من مراحل الحياة ما لم تقطع ، واختبر فيها ما لم نختبر ، حديثاً
موجهاً للعقل والقلب والنفس جميعاً

اجل ، اخواني ، اني كلفت منذ الصغر بمطالعة امثال هذا
الكتاب ، وقد شجعني اقبالكم على « معنى الحياة » ^(١) الذي نشرته
العام الماضي ، فامتثلت لايغاز مؤلفه الكريم اليّ بترجمة مؤلفه هذا
ايضاً ، فما انا اذاً الا الترجمان بينكم وبينه ، وعساني قد قت بواجباتي
نحوكم ونحوه ، وحسبي صدق النية ان فاتتني الامنية ، والسلام

وديع البستاني

القاهرة ٦ ديسمبر ١٩١٠

(١) وقد نفذت طبعته الاولى او تكاد. وملتزم هذه الطبعة نجيب افندي ميري
(صاحب مكتبة المعارف ومطبعها) حازم على إعادة طبعه بالاتقان المعروف
عن مطبعته وعلى الاهتمام بنشره بالاجتهاد المهورود في غيرته

الفصل الاول

في السعادة

اهمية الموضوع — منية الجميع — الفوز بالسعادة والهناء — تقديم
النصائح — امثلة الحياة — إشكال الحياة — واجب السعادة — الحكم على
النفس — جهالة الغضب — كظم الغيظ — امكان الصلاح — المسرات —
ايقوروس — رواية قديمة — الشقاء واسبابه — منفعة الالم — المصائب
الفكرية — الخطيئة — الحظ — ضرورة الشغل — الكسل — الاجتهاد —
الاعتبار بسائر الامم — البرميون — اليابانيون — المدنية والعلم — العقل —
حدود المعرفة — المبدأ في الحياة : — اعتزال الناس ونفع الانسانية —
الراحة — يوم الاحد — اوقات الفراغ وعظم اهميتها

كلنا نتمنى السعادة والهناء . وماذا عسانا ان نتمنى اكثر ولماذا
نرضى بأقل ؟ ولقد يُشك في امكانية الفوز بالهناء دون السعادة او
بالسعادة دون الهناء . فالسؤال المهم اذاً — كيف يُنال احدهما او
كلاهما جميعاً ؟

المال لا يسعدنا . النجاح لا يسعدنا . الاصدقاء لا تسعدنا . ولا
الصحة ولا القوة تسعدتنا . أجل ! جميع هذه الامور تدعو الى السعادة
ولكن ايها يُبلغ اليها ويكفل الرتوع في محبوبحة بركاتها . وقد تجود
الطبيعة علينا بما في يدها فتمنحنا صيتاً طائراً وصحة وعافية ومالاً طائلاً
وعمرّاً طويلاً — الا ان يدها تقصر عن اسعادنا . وكل فرد له
وعليه ان يُسعد نفسه بنفسه . وكفانا بالمتداول على الالسنه دليلاً

الى حقيقة ضالة نشدها . اذ ماذا نقول عشية نهار سعيد سحبتنا مع
سحابته ذيول السعادة وجررناها ؟ ألا نقول « رحنا اليوم روّحنا النفس
وطيئناها » او ما شا كل واشبه ؟

نعم ! سعادتنا لنا وعلينا . انما نحن مختلفون الفرد عن الآخر
احوالاً وحالات ومتفاوتون اعماراً ومتباينون واجبات ومكتسبات
بحيث قد يخال وضع الاصول والقواعد ضرباً من المحال ويُعد مجرد
النصح والاشارة تهجماً وجسارة . هذا وان يكن قارّو سبق فأتى
اهل زمانه ب ٢٨٨ رأياً من آراء الفلاسفة في السعادة

وحسبنا ان نعتبر بحالة المتقدمين في سبيل الحياة من رجال ونساء
اذ نرى حتى المفلح الموفق منهم لا ينظر الى ما قطع من مراحل هذه
العاجلة الا بعين التأسف لهفوات كان في غنى عنها وتجارب كان
يتسنى له التغلب عليها او زلات كان يمكنه تجنبها — لو انه كان يعلم
في تلك الاحايين ما صار يعلمه الآن ولو كان عنده بعض الاختبار
الذي بدون ادنى كلفة او أقل مشقة يجعل حياة المرء ابهى سناء
واسعد اياماً واجزل نفعاً

بل اعتبر بآخر ما فاه به ثيودور پاركر وهو على فراش الموت
مع انه كان مفعم الصدر حكمة ومعرفة : « اواه ! حبذا لو كنت
عرفت فن الحياة او وجدت كتاباً او انساناً يعلمني كيف كان يجب
ان أعيش وأدرس واروض بدني »

ومما يؤثر عن اهالي ائتنا القدماء اتباعهم لسنة كانوا بموجبها

يعاقبون بالقتل اي من حمل شمعة ومنع غيره من الاقباس من نارها .
فحلال اذا ان نقبس ممن عنده نوراً نضيء به ظلمة قلوبنا ونفوسنا
قال بلوتارك المؤرخ الشهير : « كنت في اول الامر اذا دوت
التراجم فلاجل اطلاع غيري عليها . فما لبثت ان صرت ادقق فيها
وأسرّ بتحبيرها ابداً باذلاً جهدي في سبيل اقتفاء آثار من أترجم
مطبّقاً سيرتي على رسم سيرته متشبهاً بمثاله المنجلي امامي في مرآة
الفكر . وهكذا بفضل اشتغالنا بالتواريخ ومزاوتنا تساطيرها قد نسلم
من العثار اذا اعترضت سبيلنا الدنيا والشروع بان نصد الفكر عنها
ونحوه الى اولئك الاعلام الذين لا تفتأ تنغرس تذكاراتهم في
عقولنا ونفوسنا »

ونظرياً ، ان لم يكن الجميع فالسواد الاعظم متفقون على ان
السعادة والطمأنينة من أعظم البركات . اما فعلياً ، فكثير من يبيعهما
مغبوناً مؤثراً الثروة او القوة او الشهرة عليهما

لا مرأى ، صعبة هي الحياة ! . « الطبيعة كثيراً ما تختفي فلا تظهر
وقد يُستظهر عليها احياناً ولكن نادراً ما تعدم وتزول . القوة تعيرها
قوة والسنة والعقيدة قد يخفان من سورتها ويضعفان من صولتها
اما ما يذلها ويبدلها فهو العادة لا غير » ^(١)

ليست الحياة صورة في صفحة او صفحة كاملة من كتاب بل
هي جزء كبير بصفحات وفصول ليس بالسهل قراءتها وفهمها . وتقول

« العالم » والحق أننا لنفي عوالم وان كل فرد يخلق علله لنفسه
كل الناس ينشدون السعادة وقليل من يجدها . والحكمة ان
يبحث المرء عن رغائب واميال لا ان يسعى في طلب المسرات .
والذين لا يهتمون ولا يرزنون في حداثتهم فالأكتاب ينتظروهم وسينال
منهم اذا كبروا وشاخوا بينما « الذين يزرعون بالدموع يحصدون
بالابتهاج » ^(١) ولقد قال سليمان الحكيم : « محب الفرح انسان
معوز ومحب الخمرة والدهن لا يستغني » ^(٢)

وقد اكبر توماس اكبس شأن هذه الحقيقة وغالى فيها وقال :
« هذا هو الحق الصراح : الاثنان لا يجتمعان — أعلى الارض
سرور وابتهاج وفي السماء ميراث ابدى »

قال مكس مولر : « انها لخطيئة حقيقية ان لا يكون المرء سعيداً .
فلنذكر قوله هذا وقول باسكال التالي : « فلنعرف اذن حدنا وغاية
جهدنا . أجل اننا شيء ما في هذا الوجود ولكننا لسنا كل شيء »

ولا أهم من ان نرسخ في نفوسنا تصوراً عادلاً عن هذه الحياة
لكيلا تقلقنا صروف الدهر وتقلباته ولنكون مستعدين لمقابلة اي وجه
تديره لنا الايام ثابتين تجاه الافلاح والحبوط امام الظفر والفشل على
الخوف والامل في الصحة والسقام والمسرات والآلام وفي الافراح
والاحزان ولدى التذكريات الحلوة والتأسفات الباطلة

« طالما انت على هذه الارض تتمتع بما فيها من الصالحات لانها

لأجل ذلك خلقت . ولا تكتئب ولا تبتئس بل احسب نفسك في
السماء^(١) ، والذين لا يعرفون قيمة الحياة لا شك انهم لا يستحقونها =
والسعادة بحسب تعاليم المسيح ليست جزاء الواجب فقط بل هي نفسها
اعظم الواجبات

ولعل ضبط النفس والتسلط عليها أهم ما يكون في ابتغاء السعادة
ولله درّ تنسون القائل :

نفسك اعرفها اعتبرها واحكم . ثم في القوة أمل واطمع .
وإخاله يعني القوة الحقيقية - القوة الفضلى التي يحق الافتخار
بها - ألا وهي قوة المرء على نفسه

أجل كل فرد مملوك ومحكوم عليه على حين الافضل ان يحكم
الانسان نفسه ويملكها عن غيره . ولكن يا للعجب اننا نتحمل من
شيم الغير واطوارهم ما لا طاقة لنا عليه لو رأينا من انفسنا . وزد على
ذلك اننا قد نتحرر من رقّ سوانا ونتجو من ظلمهم اما ربقة اهوائنا
فلا تسقط عن اعناقنا . وعدم الطاعة لأحد خير من الامرة على كل
احد . وكذلك تسلطك على نفسك خير من الحكم على الآخرين
والتسلط عليهم . وانه لو اوجب على كل انسان ان يستخرج من نفسه
خير ما فيها ويظهرها للعالم اذ كما قال تنسون :

ليس حب النفس ذنباً فاحشاً انما اهمالها الذنب العظيم =
وقد قيل ان الناس يتسلط عليهم احد اثنين - اما العقل واما

الهوى . اما الهوى فسيء متقلب الاطوار يرمي بعبيده في كل تهلكة
 وخطر . ومن كان لا يستطيع التسود على نفسه فأتى له ان يتطلب
 السؤدد على الآخرين ! واما « سيد نفسه واميرها فلا يلبث ان
 يبيت سيداً لسواها ^(١) » ومن لا يسود نفسه فالآخرون سائدوه عن
 قريب . واي نصيب لغضوب تغلي مراجل حدته مع جلود تخمد
 نيران غيظه ؟ وم أجاد سينكا بقوله : « الغضب كالطير يتذرر
 ويتفلق مما ينصب ويصيب » . فاكبح جماح الحدة ما استطعت
 واذكر انه اذا كان الحق بجانبك فزام طبعك في قبضة يدك لا محالة .
 روى الفيلسوف سينكا ان الفيلسوف ديموقراطوس كان يضحك من
 جهالة البشر وحمقهم بينما هريكاييتوس كان يبكي من اجل ذلك .
 ثم قال : « ولكن من سمع يا ترى بفيلسوف غضبان ؟ » . واذا
 تمكنت من معرفة حروف الهجاء ومن معرفة نفسك فقد امكنك كل
 شيء . ليس الثاني بالسهل ولا الاول . وم ينسى الكبار صعوبة تعلم
 الالف باء . . . الا انها تتعلم مرة في الحياة وكلنا تضلعنا منها منذ
 الصغر اما التمكن من النفس فيقتضي له مراقبة وسهر دائماً . وكل
 واحد يمكنه تحقيق هذه الأمنية فيتغلب على نفسه اذا قصد وأراد :
 ولقد يتعذر ان يكون الجميع ساسة محنكين او فنيين متفنيين او فلاسفة
 معدودين ولكن الألزم والأهم والأولى ان نكون اولاً من عداد
 الاخيار الصالحين وذلك لنا ان نختره - فلنختره وتوخته غاية هي

غاية الغايات . « حسن حالنا وسوءها متوفقان علينا والباقي على الله »^(١)
والذي يشقى المرء انما هو العالم الذي في صدره وليس العالم الذي
يعيش فيه . نصلي ونطلب ألا نقاد الى التجارب وتسعاً وتسعين مرة
من مائة انما نحن القائدون انفسنا الى مهاويها

ونعم ما قالته مسز برونن من اننا لانهم بنفوسنا اهتمامنا باشتغال
الحديد . وحقاً ان القلب كثيراً ما يضارع الحديد صلابة وقساء .
اما الارادة فهي أصلب من الحديد وأقوى او يجب ان تكون كذلك
ومحدودة هي صلابة الحجر والحديد . فقطرات ماء تذيب الصخر
وتفتته . فاحر بالارادة (صدق العزيمة) ان تكون أكثر من الماء
تأثيراً ومفعولاً . ومن تلفت حله فما غير نفسه من جان عليها
يفتخر الانكايز بكونهم أحراراً . على ان الحرية حريتان .
الباطلة وهي ان تفعل ما تشاء . والحققة وهي ان تفعل ما يجب .
وكثيرون يحسبون الثروة تغني عن العمل ويفرغ معها الوقت وان
الفراغ تملأه المسرات والملذات . لكن اي نوع من المسرات ؟ اذ
فرق عظيم وبون شاسع ما بين المسرات الزائفة والمسرات الحقيقية .
فالاولى تمر مر السحاب . والثانية تستمر وتدوم . المسرات الحقيقية
تشتري سلفاً . اما الفاسدة فيدفع ثمنها بعد حين ومع الربا والفوائد
الفاحشة . وما اصدق قول توماس اكبس « يُقبل الفرح الجسدي
بشعر بسام . لكنه يعض ويقتل في آخر الامر » . المسرات الباطلة

تأتينا من الخارج ومما حولنا وهي ابدًا ناقصة . اما السعادة فشعور داخلي هو فينا ولنا

قال السر جورج كورنوال لوس « لكنت الحياة محتملة لولا ملاءمتها » او كما قالت مدام دي سفيني « نحن بين المسرات ولا نعرف دقيقة فرح » . والفرد أوستن يقول : « الهدوء والسكينة خير افراحنا جميعاً »

ومن لنا بوصف السعادة ! انها لا توصف . وهاك ما قاله شاكسبير بهذا المعنى « الهدوء والسكينة هما رائدا الفرحة . وما أقل سروري اذا كنت استطيع ان اصفه لك » . وفي نظر ابقراط « الانسان لا يقدر ان يعيش براحة الا اذا كان يعيش بشرف وعدل وحكمة . واذا عاش على الحكمة والعدل والشرف فمن المستحيل ان يعيش على غير الراحة »

قيل انه ما فرغ الآلهة من شأن الخليفة حتى أعلنوا للبشر أن سيقسموا الارض فيما بينهم وضربوا لهم موعداً لذلك . وما آن الموعد المضروب حتى وضع اهل الزراعة أيديهم على الحقول الممرعة واخذ التجار يمهدون القفار ويسلكون البحار ، واحتل الرهبان منحدرات الجبال الصالحة لغرس الكروم ، وخصص الاشراف وابناء الترف الأحراج والغابات لاجل الاصطياد والتنزه ، واستولت الملوك على الجسور والمضايق والخلجان لاجل وضع المكوس والضرائب عليها . اما الشاعر فما نجا من حيث كان غريق التأملات العميقة ، حتى هبَّ

يسعى ووصل فوجد كلاً قد فاز بنصيبه فراح يبكي بحته ويطالب بحته . ولكن ما الحيلة ولم يبق في يد الالهة شيء يعطى . فقالوا له : « هياً تعال اسكن معنا في صفاء السماء الابدى . تعال الينا كما شئت فالباب ابداً مفتوح لك » . فتنع الشاعر بما أصابه . الا انه غني عن تكلف مشقة الصعود الى طبقات الجو وطباق السماء فهو اذا شاء وخلا باله وسكن ببلاله ففكره يستنزل السماء الى الارض

أجل ! ليس لأي شيء ان يكون شاعراً . على ان هذه الدعوة الالهية تشمل الجميع وما علينا الا ان قبلها . لا يتسنى لجميعنا فنكون اصحاب سطوة ، او اغنياء ، او ثاقبي العقول . اما السعادة والصلاح فنصيب كل انسان . كل واحد يمكنه ان يعيش حياة زاهية زاهرة وجميلة اذا اختار . ان الامر في يدينا . ننجح ونوفق اذا اخترنا ، انما اذا استفرغنا الجهد وبذلنا المستطاع . نحن لا نطفر الى العالم كاملين كما وُلدت فلاس . والاطفال يولدون على البراءة من الذنوب ولكن ليس على الفضيلة . وحتى الذين لسوء حظهم يرثون ميلاً الى الشر فقد ينجون من شرّ سلالته ان ارادوا . وما العبرة بالخذاقة ، بل بمجموع الصفات وقوتها . « العقل ينفع في كل شيء » لكنه لا يكفي تماماً لشيء ما . فروسولا ريب في انه من احذق الناس والبهيم ، اما حياته فكانت السعادة بعيدة عنها . ولماذا ! حبه لذاته ، وافتخاره واعتداده بنفسه ، اتعساه واشقياه

الأحزان والآلام لا بد منها . الا انها كم يبالغ فيها وتعظم

كثيرون من الناس يشقون انفسهم من اجل امور تافهة او
طفيفة قليلة الأهمية . فمن نظر الى الامور مدركاً نسبتها بعضاً لبعض
رأى كبيرها صغيراً واصلاح شأنه . ولكن الناس ميالون الى التحديق
في مصادر الأحزان ومصادر الوجد ، معرضون عن مجاري البركات
التي تكتنفهم او كأنهم يحتقرونها لانها ابدأ تحت عيونهم وابصارهم .
فالمصيبة الصغيرة تنوهمها كبيرة ، والبركة الكبيرة تلوح لنا صغيرة وما
اولى الامر بالعكس

ليس الألم شراً وضرراً دائماً كلاً ولا هو غالباً كذلك . فكثيراً
ما يكون علامة خطر تنذر وتحذر . وحقاً لولا الألم لكنا نخسر حياتنا
ونموت مراراً كل يوم . هذا مسلم به ومقبول . وليتنا بنفس السهولة
نعتبر ان الآلام العقلية لها ذات الشأن ، فنحسب الحذر والاهتمام
والسهر ، وقاية من الخطر والرزية ، والحزن الوقتي منجاة من اليأس
والقنوط

من الجهالة ان نشقي النفس ونعذبها توقعاً لمصائب قد لا تقع
مطلقاً . وتبعاً للمثل القديم لا فائدة من القفز قبل الوصول الى الحفرة .
لا مشاحة انه يشق علينا نفي الاضطراب وعدم القلق اذا اندفعت
امورنا في غير مجاريها . على ان ذلك محض خرق وجهالة . لانه ان
نكن نقدر ان نردّها الى حيث نريد فلنفل ، والأفأذا يجدين ان
تتحسر ونأسف . وكثير من متاعب الحياة ليس الا تجارب نبلى بها
فلنحسن البلاء ، او فرصاً تسح لنا فلنغتنمها

وإذا كنا غالباً تكبر المصائب ونزيد في الطنبور نغمات ، تتج اننا دائماً نعجز عن قدر البركات قدرها وصممنا عن سماع المطربات . فكم من لمعة خير تلوح لنا كل يوم ولا تستلفت منا نظراً ، على حين ينبغي علينا ان نتلقاها بالبشر والشكر . فبكامة يجب ان نتمتع بما في يدينا بدلاً من التحرق والتشوق لما ليس لدينا

الخطيئة نبع الأحزان الاصلية . وهو خطأ فاحش ان نحسب التوبة نجاة من التبعة . قل جوبرت : « وخس الضمير هو عقاب الجريمة ، والتوبة الكفارة . فلا تقل ان الصالح هو كل عمل يدعو الى السعادة ، بل ان الصالح وحده هو ما يدعوها ويجلبها »

ولله مخاطبة روسكن لصورة جميلة قولاً بهذا المعنى : « لما أجبل نظري فيها ، كل خطاء ارتكبته وكل جهالة فعلتها في حياتي ، بل كل ما أتيت من هذا القليل يمثل لي ويسترقي ابتهاجي بها ، وكأنما يقصر يدي عن امتلاكها وبصري عن رؤيتها ، وفهمي عن ادراك معانيها . كما ان كل هممة ابديتها وكل بارقة اصلاح واستقامة لاحت في حياتي تعود الي الآت وتساعدني على التلذذ بهذه الصورة وبكل جميل »

السعادة والسلام لا يتوقفان على الحظ والبخت . « هو الضعيف العاجز من يزعم ان النجاح يتوقف على الحظ بالأكثر . انا لا اعتقد اصالة بالحظ والطالع والنصيب . والإنسان الذي يعلل نفسه ببارقة حسن طالع تلوح في السماء قد يظل منتظراً الى ان يومض له برق صاعقة

تنقض عليه فتقضي على امره « (١) . اما انا فلا انفي وجود شيء
كالخط . ويروى ان تيموثوس الأثيني بعدما قدم حساب حكومته
مكرراً في تقريره عبارة (وهنا لم يكن دخل للحظ والنصيب) ناوأة
الزمان من اجل ذلك وما عاد افلح في مشروع شرع فيه . فاعتقاد
المرء بنجم سعيه لا ينكر تأثيره وفعله . واسمع مقالة الفيلسوف بايكون
« الخط وما ادراك ما هو . هو باعث الشجاعة في الصدور . هو
الشعور بان الأيام لنا ومعنا والخالق فينا الجرأة والاقدام . وبدون
اقدام لا يأتي المرء شيئاً يذكر . وواحدنا لا يقدم الا اذا كان واثقاً
من ان الأيام ستنبئه مبتغاه » . ومع ذلك فعاجلاً أو آجلاً يتحصص
الحق وينجلي ما كانت مبهماً غامضاً فيعرف صاحب الاقدام شأن
الخط ودخله في اموره

أجل اننا نعيش في عالم جميل للغاية ، ولكن قليلة هي الصالحات
الطيبات التي تنال فيه بدون تعب او مشقة . فهو ليس عالماً يطعم فيه
بالافلاح والتقدم من كانت خوار العزم سريع الفشل قليل الامل .
المثابرة — المثابرة المتواصلة الجدية — هي عنوان النجاح والزم لزومياته .
قائبات الثبات !!

طالب الإثراء من محراثه ربما انتقاد له عاصي الغنى
ذاك ان يقبض على نفس له ويسقها نحوها تيك المنى (٢)
النوم — ليس من ينكر انه من كبرى البركات التي تمنى بها .

الآن كسائر الخيرات لا بد مع التمتع به من الحكمة والإعتدال .
فلا كثار منه يصيره احدى اللعنات والضربات

اما الراحة والبطالة فليسا كسلاً . بل هما شيء وهو آخر . هما
استعداد ، وتجميع قوة للعمل والتقدم ، وهو الابتعاد والفرار من
العمل والاجتهاد

اذا ما الصحة ، او اعوازاها او اي سبب آخر اقمنا عن العمل
واوحد في وجهنا باب الاجتهاد واوقفنا عن اتباع خطة مؤداها النجاح ،
فباب الصبر والتسليم مفتوح لنا والبطل العاقل من يدخله . كل
انسان يمكنه ان يحيا حياة العظمة الادبية ، وغالباً ما تكون اكاليل
الظفر على العذاب اي اكاليل التجلد والتجمل ، اشرف واجمل من
غار الانتصار على الصعوبات وتذليلها . وما الذي يمنع من ضرورة
كل حياة حياة فرح وظفر . « اجسامنا قد يُعبث بها ولا يكون
الذنب ذنبنا اما عقولنا فلا » (١) . فشعور ان يجدر ان يلازمنا ملازمة
الروح للبدن ذكر الماضي بالجميل ، وانتظار الآتي بالامل . ولكن
الامل الوطيد لا يكون بدون اتكال وايمان وكرم نفس واحسان اذ
لا يكفيننا ان نعتد بقوتنا الشخصية بل نحن مثل بروموثيوس محتاجون
الى اقتباس نار من السماء واستمداد قوة علوية

انه خطأ مبيت ان نحسب انخلو من الأعمال والبطالة في عداد
الامتيازات ، والكدح والاجتهاد من نوع العقوبات . « لا حقارة في

الشغل ، انما الكسل حقارة هي كل الحقارة ^(١) « هذا كان مبدأ هز يود
اليوناني اما بنو أمته فلم يروا رأيه . ولعل تخليهم عن هذا المبداء
العملي ما آل الى سقوطهم وتقهقرهم . انهم اهتموا بالفنون الجميلة واعلوا
منارها ، وواصلوا الحروب واصطالوا بنارها ، واعتنوا بالأبدان وروؤوا
اعضاءها الا انهم غفلوا عن رياضة النفس على العمل والاجتهاد فكان
ينقصهم الثبات وضبط النفس والاحتمال ، وطول الأناة ومعاودة
الشغل ومواصلة قوة اديبة عظمى ، وهذه القوة كانت تعوزهم فلم
يقتنوها . لا ريب انهم كانوا امة عظيمة الا انهم لم ينصفوا في احتقار
الغير واعتبارهم من نسقط المتاع ولا احسنوا في ترفعهم عن العمل
وتكبرهم على من سواهم

ان ابناء الجنس الأبيض لا يزالون ينظرون بعين الاحتقار الى
من خالفهم لوناً وبشرة . وكان الأجدر بنا ان نقلب الطرف فيهم
لنرى ماذا تقدر ان نأخذ عنهم وتعلم منهم . فالبرميون يكرهون
الحرب واليابانيون يبالغون في احترام البوشيدو . فهل تعلمنا من هؤلاء
اعتبار انبيائنا ومن اولئك حب السلام

واليك شذرة من فقرة عثرت عليها في جريدة التيمس لسنة
١٩٠٤ بخصوص كتاب اليابانيين وتعاليمه . قال كاتبها « اذا لم نستطع
الكلام عن بوشيدو الياباني ايجابياً ربما استطعناه سلبياً . خذ
متوسط طرق المعيشة عند الهيئة الاجتماعية المتوسطة يكن البوشيدو

واياه على طرفي تقيض . فالبوشيدو يقيم لنا مثال الحاجة لا الثروة
والوداعة لا الذل والتستر لا المباهاة ويحل الذات محل حبها ويُفضل
صالح الحكومة على صالح الأفراد . وهو يبعث في الصدر الجرأة
والجسارة ويأمر بعدم تولية الأعداء الظهور ويزيل رهبة الموت
ويفضله على أي نوع من العار . يعلم الخضوع للسلطة وتضحية المصالح
الخصوصية الشخصية منها والعائلية على مذبح الخير العام . يطلب من
تلاميذه تمام الاذعان لكل تأديب مادي وأدبي ويُنمي فيهم روحاً
حرية . وبتحبيه بفضائل الثبات والشجاعة والتجملد والأمانة والاقدام
وملك زمام النفس يُصبح بحلة سنية للشرائع الأدبية ليس للرجل
والجندي فقط بل لعموم الرجال والنساء في وقتي السلم والحرب .
فالبوشيدو هو فعلاً روح الامة اليابانية وهو سر ترقيقها الى مصاف
الأمم العظيمة

يقول « اميل » ان المدنية ليست بالضمير اكثر مما هي بالعلم .
اولست بالاثنين بالأحرى ؟ اذ بدون العلم حياتنا المادية أمر مستحيل
وكذلك بدون الضمير الحياة شيء لا يطاق . فالعلم ضروري من
ضروريات الجسد والضمير من ضروريات النفس

العلم جاء الانسان بما لم يخطر للسحرة ببال . وشتوبريان لم ينصف
ولا أصاب بحكمه على العلم ورميه بكل فرية اذ يقول : « انه يفسد كل
ما يصل اليه . فالنباتي لا تهمة نكمة الأزهار ولا يعاباً يبها الوانها ولا
يؤثر عليه جمالها » ولو انه ذاق لذة بعلم النبات لما راح يرشقه بهذه

السهام . انما لله قوله في محل آخر : « محاسن الطبيعة انما القلب
مقرّها »

الحقيقة هي فوق العقل . وقصارى جهد العقل ان يتوصل الى
ادراك شيء من الحقيقة . فمن اجل الحقيقة يحسن بنا ان نشغل
ونعيش على أهبة الموت اذا لزم !

« اعرف الحقيقة لتعرف الحق وتفعله » . هذا هو مختصر واجبات
الانسان . فليتمسك به من تتلاعب بهم ارياح السلطة هائجة من كل
كل جانب » . العقل لا غنى عنه . أجل انه قد يغلط فهو ليس
معصوماً . ولكن كيف نعرف ذلك ؟ بالعقل ! فهو ضروري ولكن
يجب الاعتدال في تقدير استطاعته . يقول باسكال : « ان التوصل
الى الحقائق الدينية يتم عن طريق القلب وروح شريفة تفسد كل
شيء » . ولو قلت قوله لحورته واستبدلت كلمة حقائق بشعائر لأن
أفضل دليل الى الاولى انما هو العقل . هذا ولا شك ان مجموع صفات
المرء واخلاقه تؤثر في اعتقاده تأثيراً ظاهراً . فتصورات رجل بار صالح
عن الخالق الباري قد تكون صواباً او خطأ اما الشرير الطالح فتصوراته
عنه تعالى خطأ لا محالة

نظرياتنا اليوم ليست الا وقتية . ورغماً عن تقدم العلم وازدياد
معرفةنا العجيبين ان هذه الآراء والنظريات لا تزال تجريبية ابتدائية
وكأنها ارض تنبت مواد البحث للأجيال الآتية . وقبل الانتهاء الى
حل مسألة الحياة واستطلاع سر هذا الكون العجيب المتاح لنا ان

نعيش فيه عظمة هي الاشياء التي يترتب علينا علمها وعملها او
تناسيها بعد تعلمها

مهما زاد شوقنا الى وجه السلام عبثاً نسعى في اثره ونحن هاربون
من وجه الواجب

في عصور المسيحية المتقدمة زعم النساك والزهاد انهم يكرسون
انفسهم ويتقدسون ويعيشون بسلام الفكر بمجرد انقطاعهم في التقار
والابتعاد ليس عن هموم الدنيا وتجاربها فقط بل عن الواجبات
الانسانية وكل مسؤولية في هذه الحياة . واني لأشك كثيراً في انهم
نجحوا وتحققوا امانيتهم . العمل بامانة والاشتغال بالمفيد وقاية وصيانة
في عدة احوال . ناهيك عما في الواجبات العائلية اللاذعة وفي قوة
ابساط نفوس الغير والتخفيف عنها وفي المساعدة والمعاونة من صفة
القوة المطهرة للقلب المشرفة للنفس . ومن ذا الذي يرى نفسه أحسن
حالاً اذا تناسى احبائه واصدقائه وتخلّى عن واجباته نحو وطنه لكيما
ينفق ايامه المعدودة ساعياً وراء ما لن يدرك ومفكراً بما لن يفهم

بقدر ما يجوز لي ان ابني الحكم على ما طالعته في الكتب اقول
ان الحسد والشقاق ليسا بعزيزي الوجود ضمن اسوار الأديرة ولو
على قمم الجبال . ولا يحملن هذا على الاعتقاد ان حياة الحركة والنفع
يتحتم ان تكون مملوءة من الهموم والقلق . والمسألة ليست اي الحياتين
حياة الانفراد والاعتزال أم حياة الحركة والعمل أقرب من مناهل
السعادة والسلام لكن ايهما يتسنى فيها خدمة الغير أكثر

لا ريب ان الأديرة كانت اثناء الأجيال المظلمة لا يطفأ مصباح العلم فيها وكانت مستودع الآداب والعلوم ومعهد التثقيف وهيكل العبادة . بل كانت اشبه بموان وملاجئ يأوي اليها طالب العلم والمعوز والمظلوم . انها كانت اذ ذاك من اكبر الفواعل لازالة بعض الشيء من همجية تلك الأيام وقساوتها . وحاشا ان ننكر فضلها

انما مهما يكن من ذلك فامرنا هو امرنا وواجباتنا تظل واجباتنا اي ان نشتغل في هذا العالم والآت تبرأ منه وان نسلم من كل تشويه ووصمة وان كان هذا غير السهل اليسير . أو ليس يوجد حتى اليوم بين جدران المدرسة وضمن سجن الدير من يتاح لهم ان يساعدوا اخوانهم اكثر مما يفعلون لو كانوا من المترددين الى المثابة (القهوة) او من اعضاء مجلس الاعيان ؟

الشاعر الكبير دانتي قضى على البابا سلسيتين بعذاب النار لأنه اعتزل مهام الحياة وانزوى في دير . بل خصص له ولأمثاله محلاً معلوماً من جهنم العذاب . وقد اشار الى ذلك بقوله في ملحمة المشهورة : « وصلت وحالاً عرفت زمرة الأوغاد الأرذال المبغضين لدى الله واعدائه » . ان اكثرنا قد يكون اكثر نفعا اذا تعاطى مهنة او عملاً في مزرعة او حانوت ولحسن الحظ يمكننا ان نجد الراحة والسلام حتى في معترك الأشغال وضوضاء المدنية . والذين يعرفون كيف ينبغي ان يعيشوا لا تزيد الحياة لهم الا غنى ولذة وغرابة . والحق يقال انه لا يلزم ان يستديم العمل بدون انقطاع .

والشاعر شلر أشار الى ما نحن بصددده اذ قال : « الانسان انسان وهو يلعب فقط » فاجاد الا انه بالغ واغرق . وكل أحدينبغي له ان يعيد عيداً كبيراً كل سنة وعيداً صغيراً كل اسبوع . وزيادة على ذلك يلزمه ان يعيد قسماً من كل يوم بمعنى انه يخص ساعة او ساعتين لمحاسبة النفس والتفكير ثم لراحة الدماغ والرياضة البدنية واخيراً لأجل التسلية واللهو وهذا وان تأخر وضعاً فحقه التقديم اهمية . اذا ما ولّى النهار وأقبل الظلام يجدر بكل انسان ان يقف بنفسه بضع دقائق مفكراً في ما عمله اثناء نهاره وفي ما كان يمكنه او يجب عليه ان يعمل . ومن يتبع هذه الخطة يضمن سلامة ضميره وجودة شأنيته وراحة نومه .

يظهر لي ان بعضنا اليوم يجهلون قيمة الفراغ والخلو من العمل وتخصيص ساعات للتأمل الانفرادي ومحاسبة النفس . فلم لا تزيد الحياة لنا الا وضوءاً وارتماً كما فنعتبر حتى الألعاب المروضة النافعة لابدانتنا قسماً من اعمالنا المملة المضجرة ؟

الشغل واجب من الواجبات الا انه ليس كل ما يجب . أولسنا نرانا على أحسن ما نكون اذا انجزنا ما علينا وخلصنا بعقولنا ونفوسنا ؟ وابناء وطني يشتغلون جيداً وقت الشغل وليت شعري لو كانوا يحسنون التصرف بلوقت الفراغ ! ستة ايام العمل ما احسنها وما انفعها ! اما السابع فهو مقدس او يجب ان يعتبر كذلك . وأحر بنا في السابع من السبعة ان نفك العقل من عقاله فيحدث فوق هذا العالم ويناجي

السموات العليا فيبقى بسلامه وصفائه وألوهيته أوسع وأعمق من البحار وأعلى من السموات . ان انكاثرا لم تنقص ثروتها بل نمت وزادت بما ان اسلافنا استمرروا لأجيال متوالية يشتغلون ستة ايام ويرتاحون يوماً واحداً . ان ذلك اليوم لا يعد ضياعاً . وما اجمل قول مكولي التالي : « اذا ما وقف دولاب الأشغال وترك المحراث في التلم وهدأت حركة التجارة وخلا الجو من دخان المعامل عندئذ دارت آلة دورانها أدعى الى غنى الامة من كل آلة سواها ألا وهي الانسان آلة الآلات تجده يوم الاحد يصبح فينفض الغبار اللاصق ويرمم المتداعي الى السقوط واذا صح تشبيهه بساعة قلنا « ويشد جنزيره » ويستعد للاسبوع الجديد فيقابلة بروح وقوة جديدتين

ولكم نسمع الناس يقولون انهم خالو الايدي ولا عمل يعملونه . ويا له من وهم !! بل يالها من كذبة ! اذ ان أهم شغل لدينا واكبر مسؤولية علينا انما هما اصلاح النفس وهذا الواجب وتلك المسؤولية لا يفارقانا طرفة عين . ولقد نحسب تولي تهذيب أمير او ولي عهد من المراكز الخطيرة وهل ترى أهم من سهر المرء على نفسه مركزاً وواجباً ؟

فساعات الفراغ من هذا القبيل أهم الاوقات وأثمنها . لان القيام بواجبات المهنة والمواظبة على اشغال المكتب والسهر على تجارة المخزن وما اشبه كل ذلك من قبيل تحصيل ضروريات الجسم . ولكن لا يذهبن عنا ان الجسم ان استحق التفاتاً فما ذلك الا لكونه

هيكلاً للنفس لا أكثر

وقد نطق القديس اوغسطينوس بحكمة فائقة اذ قال : « الساعة
التي تخلو فيها من العمل يملأها شغل عظيم » . ومع ذلك فكم من
شيخ تخلّى عن الأعمال واعتزلها ولزم بيته فصار يستبطن الساعات
ويشعر بثقل الوقت يتوهم ألا عمل لديه فيعمله ويغفل عن اكبر
الواجبات واقدسها ألا وهما ترقية المرء لنفسه وعمله على اسعاد الغير
وهذا أسمى غايات هذا الوجود

الفصل الثاني

الجسم

عجيبة الخمسة أرغفة وسمكتين — الحياة عجيبة العجائب — الجسم والعقل —
تركيب الجسم العجيب — الدماغ — الذاكرة — الحياة عطية ثمينة —
شروط الصحة — النظافة — الصحة — الاضطرابات الفكرية — الترف —
الثروة والقوة والصحة — الاعتدال — الهواء النقي — الصيام — الاكل
والشرب — العمل والاجتهاد — الكسل — الصبر — النوم —
الاحلام — الكحل

ان اشباع الخمسة آلاف نفس بخمسة أرغفة وسمكتين يُعدّ
عجيبة بمعنى انه مخالف للسنة الطبيعية المعتادة ولكن هذه السنة نفسها
عجيبة العجائب وأم العجب . فان كيفية معيشة الانسان على بذور
تزرع وتحصد أضعافاً وعلى قطعان تتوالد وتتكاثر وبالتالي كيفية تحول
الحنطة واللحم واللبن الى عضلات ودم ودماغ هذا هو العجب
العجاب . ثم بعد ذلك التحول انها عجيبة أخرى كيف ان الدم يقوم
بتغذية اعضاء الجسم المختلفة

اما الأعجب والاكثر ابهاماً فالعلاقة الكائنة بين العقل والجسم
والهوية الحائلة بين الحياة والموت . يخطئ سائق القطار قراءة علامة
الخطر او يغفل عنها بالكافية او يجمع الجواد بفارسه او يختل احكام

الحك بين يدي الربان او نفقد الموازنة ونميل الى السقوط . . .
هكذا الى ما لا يحصى تعدد احتمالات حدوث المهلكات وهي محدقة
بنا في كل زمان ومكان . وليست عوامل التلف والهلاك حولنا
وحولنا فقط بل في داخلنا واحشائنا ايضاً . اعتبر ذلك بانفجار شريان
في الدماغ او ضعف يستولي على القلب او باقل اختلال يطرأ على
الجهاز العصبي . أليس لحدوث أي من هذه العوارض والطوارئ
يصبح كتلة مادة لا حياة فيها ما كان بالأمس حياً ناطقاً ذا شعائر
ومدارك يحس ويفكر ؟

ان خلقنا « لعجيب مريع » وليس لنا بعد من سبيل الى ادراك
كيفية تركيبنا الغريب . ومع ان سبينوزا يقول بكل صراحة : « ان
العقل البشري يلاحظ ويدرك كل ما يجري في الجسم » فاننا بالعكس
جاهلون تمام الجهل وحتى أعلم العلماء والأطباء قليل ما يعلمون عما في
أجسامنا . وهو من المقرر المسلم به انه اذا تكلمنا أو قرأنا أو افكرنا
حدث في الدماغ شيء ما . . . انما من لنا بمعرفة ما يحدث . ثم كيف
نسمع ونبصر ونلمس ونشم ؟ أشهر علماء التشريح يعجز عن اطلاقنا
على حقيقة هذه الأمور . قليلة وزهيدة هي معرفتنا عن اجسامنا .
ولناخذ تركيب اعضاء الخواص الخمس أمثالا

يوجد في الجلد عموماً وفي اليدين واللسان بالأخص كريات
دقيقة صغيرة كل واحدة منها متصلة بعصب واطرافها مما
وظيفته نقل الاحساس بالحرارة والبرد الخ . نعرف هذا . اما كيفية

انتقال التأثيرات الخارجية الى الدماغ وتحولها فيه الى شعور واحساس
فاننا لفي تمام الجهل عنها

في اللسان ألوف من الخلايا الدقيقة المزعوم انها اعضاء الذوق .
ولكن كيف تتأثر تلك الخلايا بتأثرات مختلفة بحسب اختلاف الطعم
وتنوعاته ثم كيف يحصل ادراك ذلك في الدماغ - اننا عن حقيقة
ذلك لفي جهل تام

ان في غشاء الالف المخاطي بعض خلايا صفراء او ضاربة الى
السمره تختلف عن سواها بعض الاختلاف - نعلم هذا . اما كيف ان
هذه الخلايا تحمل الى الدماغ الروائح الكثيرة على اختلافها وكيفية
تأني الدماغ لهذه الروائح وتمييزها بعضاً عن بعض فلا علم لنا بذلك
مطلقاً

تستقبل طبلة الاذن اهتزازات الهواء وتنقلها الى مجتمع اعصاب
السمع بواسطة سلسلة عظيمات مقصود بها تقوية تلك تلك الاهتزازات
الهوائية . وقد ذهبوا الى ان في الاذن اقواساً صغيرة نحو الاربعة
آلاف عدداً والى ان هذه اشبه بمفاتيح الأرغن او البيانو فتقع عليها
التموجات الصوتية كما تقع انامل الموسيقي على آلة الموسيقى . وقد
يكون الأمر كما يزعمون ولكن أي تفسير للسر هذا ! فالأذن آلة
طرب اذاً ! ولكن كيف لها ان تفسر تلك الاحساسات الخارجية أو
ان تميز بين الأنغام ؟

ثم انظر الى العين وتركيبها . فهي مؤلفة من اغشية منها القرنية

والرطوبة المائية والقزحية والجليدية والرطوبة الزجاجية والشبكية وهذه مع انها لا تزيد سمكاً عن أرق قطعة من الورق مركبة من لا أقل من تسع طبقات تعرف الداخلية منها بالعصي والمحروطات وهي قوابل تموجات النور . وعدد العصي والمحروطات لا يكاد يحصى . وقد قيل ان عدد المحروطات ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ وعدد العصي نحو ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ هذا هو تركيب آلة النظر العجيبة . ترسم المرئيات على الشبكية كما تنطبع الصور على اللوح الفوتوغرافي فيبقى الرسم واضحاً ولا يبرح هذا اللوح نظيفاً مستعداً لينطبع عليه رسم جديد . نعلم هذا ولكننا دون الغاية . فمن لنا بمعرفة ما يحدث بعد ما تنطبع الصورة على الشبكية وكيف تنقل هذه التأثيرات الى الدماغ . ثم كيف يتم تمييز الألوان الخ . وكيف تنقل هذه التأثيرات الخارجية الى الدماغ وكيف يحدث فهمها من قبله - هذا مما لا نزال نجعله كل الجمل

ثم خذ عملية الهضم . نأكل ونحوّل الطعام الى لحم وعظام ودهن ودم واوتار وجلد بل الى اميال من العروق والشرابين والى رثة وكبد ومئات من المواد والسوائل كل بخصايته ومنافع الذاتية . ولكن كيف تتم كل هذه التغيرات الكيميائية - لا نعلم

وهكذا يمكننا ان أحلل سائر التغيرات والتحويلات التي لا نزال آخذة في مجراها في تركيبنا العجيب كالأفراز وتكوّن الدم ودورانه ومنافع سائر الأعضاء - ولكن ما الفائدة وكل وصف كما مر يتبيّن بنا الى ضرورة الاعتراف بجهلنا التام !

فما أقل ما نعلم إذا وبمعنى آخر ما أكثر ما نعلم ايضاً . ولقد ألفنا وجود الحافظة « الذاكرة » بين قوانا العقلية حتى صرنا لا نرى فيها عجباً مع اننا نحار اذا تأملناها . ويجوز ان نقول بمحصر المعنى ان أجهل الناس وأغباهم له من ذا كرتة خزانة مشحونة علماً ومعرفة . اعتبر ذلك بما يحتوي عليه الدماغ من امثال تذكارات ايام الطفولية والاصدقاء والاقارب والاصوات والاذواق والروائح والصور والاماكن والملاحم والأشعار والأغاني واسماء الأصحاب والأنساب والملوك والابطال ورجال السياسة والشعراء وتواريخ الحوادث والأقوال الماثورة والامثال السائرة والحقائق والالوهام الى آخر ما هنالك . ثم قف وتأمل كيف عرفنا ذلك وكيف حفظناه وكيف يمكننا ان نستعيده متى شئنا

الانسان بالحق عجيبة ، 'حي' « بعطية الحياة الثمينة التي لا يعطاها إلا مرة واحدة لأنه انتظر مرور الأزل حتى 'خلق' والان وقد 'خلق' فان ابدية تتظره لترى ماذا عساه ان يفعل . ثم ان هذه العطية المهداة اليه قد 'يُنزَعها' بما لا يحصى من الطرق واذا فقدتها فماذا يبقى منه ؟ لا شيء الا كتلة يأس منتنة لا حياة فيها نلفها بالاكفان ونواربها التراب . زد على ذلك اننا نندبها ونبكيها اذا دفناها وبحق نفعل . وان للمفكر في هذا الأمر لداعياً الى الحزن هو اصل كل داعٍ سواه »

والخلاصة ان تركيب الجسم معتد تعقيداً لا يصح باعتباره التعجب

من اعتلاله ومرضه أحياناً بل الأولى بنا ان نعجب لصحته وسلامته .
ولا غرابة في اننا نتعذب أحياناً وتؤلم أخرى . ولكن من حسن الحظ
انه اذا اشتد الألم قصرت مدته

والعلاقة الكائنة بين الجسم والنفس مبهمة غامضة وقد كثر
التنازع في شأنها كما في أمر النسبة بين الايمان والأعمال . فالتقديس
يعقوب يقول « هكذا الايمان ايضاً ان لم يكن له اعمال ميت في ذاته »
وكما ان الجسم بدون روح ميت فهكذا العقل على هذه البسيطة بالأقل
لا يحدث شيئاً إلا بواسطة الجسم . فضلاً عن هذا انه ليس لنا إلا
جسم واحد لا تقدر ان تتخذ سواه . ولقد كان قدماء المصريين
يعتقدون ان الروح ترجع فتحل في اي شبه لجسدها فكانوا لذلك
يدفنون مع موتاهم اشكالاً وتمائيل تنتخب منها الروح ما يروقها . اما
ارواحنا فليس لها قوة لمثل هذا الانتخاب

فمن اراد اذاً ان يعيش سعيداً وجب عليه ان يلتفت الى جسمه
ويعتني به التفاتاً واعتناءً معقولين ولكن ما أقل اعتناءنا بجسامنا وابعد
التفاتنا عنها . نحشوها بالطعام ونحملها فوق طاقتها بل نسقمها
بالمشروبات وننهكها بالاجهاد أحياناً وندعها للكسل فيعيب بها الصدا
أخرى بل كم نفرط بقواها تارة ونفرط طوراً وكم نوذيتها ونشوها
وقد نهملها ونغفل عنها بالكافية فلا نلبث ان نبلى بشديد العذاب
عقاباً على ما جئنا عليها وما ذلك إلا عدل وانصاف
ومع انه لا يسع احداً ان يزيد في قامته قيراطاً واحداً فإنه في

وسع كل واحد ان يمرض جسمه ويسقمه كما ان الكثير منا يستطيع
ان يحفظ نفسه من كل مرض وسقام . والأغلب من الناس يمكنهم
ان يتمتعوا بالعافية اذا اقلوا من الطعام وتجنبوا التبغ والكحل واستكثروا
من الهواء النقي والرياضة البدنية واشغلوا عقولهم وأراحوا ضمائرهم
لكل شعب وعصر ذوقه وشعاره . والنظافة التي نعدّها اليوم
ثانية والألوهية (الصلاح) اولى لم يكن لها هذا المقام عند أسلافنا
فكانت الأمراض والابوثة تدهمهم من كل جانب . على انه مهما
كانت الصحة جيدة ومهما بالغنا في تنظيم المعيشة من حيث المأكل
والملبس وسائر العوائد الصحية فالجسم لا يسلم من تأثير العقل مطلقاً .
ولذلك كما لا يخفى على الطيب الماهر كثيراً ما يكون العقل اولى
بالمعالجة من الجسم . وكثيراً ما يجدر بنا ان نخطب الطيب بعبارة
مكبث :

ألا صف لعقل عراه الضنا ومن فكري استأصل الحرنا
وطلمس خطوط الهموم الكبا ر بهذا الجبين خطوط العنا
وهات دواء دواء التناسي فاجرع منه بكل هنا
اعل سموماً تتقل قلبي تزول وابلع بعض المنى
ومع هذا فكم من يسيئون الى اجسامهم بل يخطئون نحوها إما
لضعف فيهم او لشر يستولي عليهم وبالاكثر لجهل يعمي بصائرهم .
وما أغرب صنعنا وأعجب خلقنا ! وهذا الجسم كامل النظام ومرتب
ومبني بدقة بل مناسب لمحيطه ومكتنفاته بحيث يُعد اتلاف ادواته

وآلاته الدقيقة واخلال نظامه خطيئة مميتة لا غلطة بسيطة . فلنذكر !
 اننا لنعنى بتربية الغنم والبقر والخيول وتأصيلها باستبقاء أجودها
 والحرص عليه على حين الاهم انما هو ترقية الناس وتحسين الجنس
 البشري جسدياً وعقلياً وروحياً . اما اليسر وسعة الحال فلا يجيئان
 بهذا الاصلاح وربما كانت السعة مضيقاً ومهلكة . والتنعم بالأحرى
 الترف والبذخ في المعيشة اخطار أولى لنا ان نجتنبها عوضاً عن الشوق
 الى الانغماس فيها . والمناخ الجميل قد يرخي ألياف الجسم والبارد او
 الشديد البرد قد يحبك العضلات ويقلصها لفرط ما يشدها فما الواسطة
 الى تلك الغاية ؟ « اصل الطهارة (بمعنى القداسة) في الطهارة (بمعنى
 الخلو من المرض) فمن اراد ان يكون طاهراً (قديساً) فليكن طاهر
 النفس أولاً » (١)

فضلاً عن ذلك متى كنا أصحاء وأقوياء سهل علينا ان نكون
 صالحين . ومعلوم اننا في حالة التألم والانتهاك نقلق ونضطرب لأقل
 الأمور اهمية بل ان نفس المصائب التي تزعجنا وتعكر علينا صفونا
 وهناءنا في حالة توعك مزاجنا قد لا ننتبه لها فنعابها وننحن على
 غير حال

الثروة والقوة لا مأمّن لنا فيهما من اوصاب الجسم ولا من هموم
 القلب بل انهما يزيدان التجارب والقلق والهوس في سبيل الرغائب .
 ومن المرويات ان الدكتور رادكليف وجد مرة بين يدي الملك ولیم

الثالث فقال له : « انا لا أرضى برجلي جلالة الملك رجلين جسيمي
ولو أعطيت معهما ممالكه الثلاث »

لا شك ان بعض الناس يولدون ضعيفي البنية مشحونين جراثيم
امراض هم غير مسؤولين عنها ولا ملومون من اجلها . الا انه لا
مبالغة في القول ان التسعة اعشار من آلامنا مما جتته ايدينا ونحن عنه
المسؤولون

واليك ما ذكره مستر تايلر في مؤلفه عن لعبة « الكولف » .
« اول ما يلزم لتعيب الكولف الرامي الى الغاية منها هو ان يعيش على
النظافة والعفة والرزانة . ويعيش المرء عيشة البساطة وليكن مع ذلك
مهتمًا معتنياً بنفسه ما يستطيع . ومن ينفق كل ما عنده من القوة
ويفرط ويجازف بقواه الحيويه في أي سبيل كان فلا شك في انه
حابط مسعى ومعتزل ساحة اللعب عن قريب : فليدرك احد امرين —
إما ان تعتني بجسمك من كل قبيل او ان تطلق اللعبة بتاتا . ومن
يعش على الرذيلة خلوا من الاعتناء فلا يؤملن النجاح في هذه
اللعبة مطلقاً »

وما يصدق على لعبة الكولف قد يصدق على الحياة عموماً .
وكلنا يعلم باي سهولة نستطيع ان نفسد الجسم ونضنيه . الا اننا لا نكاد
نصدق اننا نستطيع ان نحفظ بصحته وسلامته ايضاً . فالاعتدال من
الاهمية باعظم مكان . أعني الاعتدال في الاكل والشرب ! وربما
كان تسعة من عشرة يأكلون فوق ما يصلح لهم . ولست اريد

الشراة التي قد تنفق للمدعوين في ولية بل الاستمرار يوماً فيوماً على
تثقل معدنا وتحميلها فوق طاقتها . والاكثر من الاكل أسهل من
سهل . ولا خوف على أحد من الاقلال . ناهيك عن ان المعدة
اذا استقلت بحملها لخفته خف القلب لذلك ورقص واشعر المرء بتمام
الراحة . فالشراة يعقبها السأم واتقباض النفس . وكثير من الناس
يتعذبون من سوء الهضم وحده ما يساوي سائر عذاباتهم جميعاً
لا يمكننا ان نصرف شيئاً من الوقت في الهواء النقي ونحسبه
راح ضياعاً . بل ان الساعات التي نمضيها بانتشاق الهواء الطاهر محسوبة
في عداد ايماننا بل قل و « تطيلها على هذه الارض »

الملاذ الجسدية وقية لا تدوم وكثيراً ما تكلفنا اضعاف قيمتها .
والاكل مجلبة للحزن والموت منذ كانت حواء في فردوسها . قال
المثل « الخلق أقتل من السيف » وما اكثرت قتلاه ! فاقفل فمك
تخلص حياتك . والناس قلما يموتون الموت الطبيعي . فكثيراً ما يقتلون
انفسهم او يموتون قبل أجلهم . فطريقة اطالة الحياة هي ان تعيش
بحكمة واعتدال في كل شيء . والاكل باعتدال لذة يومية يتمتع بها
المعتدل . وأحدهم كان يقول : « حسن الهضم من فضل القابلية
والصحة من فضل الإثنين »

والافراط في الأكل مضر كالفراط في الشرب تقريباً . يحكى
ان تيموثوس حاكم اثينا واميرها تعشى مرة مع الفيلسوف افلاطون
وكان العشاء خفيفاً من حواضر البيت واجتمع به في الغد فقال له :

« ليس عشاؤك شياً في وقته فقط بل في الغد أيضاً » والعقل لا يقوم
بوظيفته براحة والمعدة ملاءى وتعبه بحملها . وطالما عدوا الصيام احسن
استعداد للصلاة وحقاً انه كذلك قبل الاقدام على اي عمل عقلي
الأكل فوق اللازم يسبب عسر الهضم وانتقباض النفس وسواهما
من الاضرار المألوفة . والشرب (المسكرات) اشد ضرراً وأذرع
فتكاً . قال شاكسبير : « أعوذ بالله من ان يدخل الناس في أفواههم
عدواً هو لص يسرق عقولهم » . والسكر هو اللعنة الكبرى الساقطة
على الامم الشمالية

قال الحكيم « لمن الويل لمن الشقاوة لمن المخاصمات لمن الكرب
لمن الجروح بلا سبب لمن ازهرار العينين . للذين يدمنون الخمر
الذين يدخلون في طلب الشراب الممزوج . لا تنظر الى الخمر اذا
احمرّت حين تظهر حبابها في الكاس وساعت مرققة . في الآخر
تلسع كالخية وتلدغ كالأفعوان »

ولو كانت عاقبة السكر الفقر فقط طانت شراً . فلمدمن لا يدني
نفسه لدرجة الفقير الشحاذ فقط بل يهبط دون هذه ويصير وحشاً
وأقل من وحش . وعقابه ليس في عذابه بل في انه جرّ ذلك العذاب
على نفسه . وليست العبرة بنتيجة الرذيلة بل بالرذيلة نفسها ورذيلة السكر
هي مرارة الكاس وعلقمه

شر السكر في تمليقه واغرائه . يجلس الشاب وفي نفسه بعض
الانتقباض وقد اعتري ذهنه الكمال واستولى عليه القنوط واسودت

الدنيا في عينيه فيتناول قليلاً من الخمر^(١) وإذا بالافكار والخواطر تتوارد وتتخاطر والكلام يترادف ويتوالى ولا يلبث الهم ان يموت والرجاء ان يعيش وما هو الا القليل حتى يرى نفسه سعيداً ويشعر ان قلبه يكاد ينزع من صدره فرحاً . كان قبل الكأس قنوطاً وهو بعده سعيد طرب . ثم يشرب الكأس الثانية وكأنه الملك عزة وجلالاً . ولكن يا للأسف . كان آله سراباً وكانت رؤياه حلمًا

(١) اعوذ بالله من الانسان اذا ملك الخمر من النفس وبات اسير الكأس لا يعرف الا الحانة بيتاً وغير احوال الازقة مبيتاً قال امرء الى معقة ابويه ونسيان اخوته واخوانه واتمى بشقاء امرأته وبنه وناتنه وبموته قبل اجله وهذا لسان حاله

« اجملوا ان مت يوماً كفي ورق الكرم وقبري المعصره
وادفوني وادفنوا الخمر معي وضعوا الاقداح حول المقبره »

يفرس الكرمة يمينه ويسقيها ماء جبينه حتى اذا دنت قطفوها جنى اثمارها واستخرج عصيرها وانتظره ربها يخمثر فيشربه اذ ذاك مرأ بعد حلاوته وفاسداً بعد طهارته ! فهو الزارع والجاني والمجرم والجاني

اما عصير العنب الصافي فقد قرر الاطباء انه عظيم النفع وقاية وغذاء وشفاء وانه من افعل المقويات للدم ومنقياته وتأثيره الحسن في حالات سوء الهضم والامساك مما لا شك فيه . وقد اتبه له الاوريون وصاروا يستخرجونه ويبيعونه للسليم وقاية والضعيف غذاء وللسقيم شفاء

ويسرني هنا ان اذكر ان مواطننا جول افندي منصور (من حيفا مقيم بمصر) اخذ يهتم بترويج هذا الصنف المفيد في كلا القطرين مصر والسودان ولديه شهادة من المعمل الكيحي لمجلس بلدية باريس تؤيد ان العصير الذي يستخرجه من اجود عنب جبل الكرمل خلاصة صافية لا اثر فيها للكحل مطلقاً . ويمتاز عن سائر المشروبات بانه لا يسكر مطلقاً لحقه التحليل في كل المذاهب والاديان . وجذا لو اقبل الناس عليه وفازوا بفوائده (المعرب) ٣

ففصاحته تحولت عياً وحقاً وتماديه في اظهار الصداقة نحو رفاقه ادّعى
به الى الاختصاص معهم واتقاد ذهنه الوقتي انتهى بصداق اليم في رأسه
فالتبّلد والقنوط والكمال مخاطر وتهالك على التهذيب والتريبة
ان يقينا منها ما امكن . لان كثيراً من الناس يلفون انفسهم على مثل
هذه الحالات فيلجأون الى الخمر دواء وبئسه من دواء

دلت الاحصاءات على ان مطلقي المسكرات بتاتاً اطول حياة
من معاقريه ومدمنييه بل ومن المعتدلين فيه ايضاً . والكحل لا يقتصر
ضرره على الجسم فقط بل يشمل الجسم والعقل جميعاً . فانه يصير
المرء نزق الطبع شرسه دائماً مستعداً للخصام ويوقظ الشهوات ويقوّي
سلطة الاميال والاهواء بحيث تصبح مقاومتها غير السهل اليسير

قال جرّمي تايلر : « ان مصائبنا لفي داخلنا . ولو ان اكلة خس
وشربة ماء بارد تطفئان جميع نيراننا فلا أعود أشعر بعطش الى الماء
ولا الى الفخر ويفارقني حب اشباع الشهوات وشفاء الغليل واخلو من
الحسد والطمع لكنت أحسبني من السعادة في حضنها . وحقاً لا أحد
ينام نوم الراحة مثل ذلك المضطجع على بساط الطبيعة المسند رأسه
الى ركبته »

وحينما يكون الجسم صحيحاً سليماً ، لله ما اجمله من آلة ملتقاء بين
يدينا كوديعة نؤمن عليها فيجب ان نحرس عليها ايما حرص . فمن
العار والشنار اذاً ان نترك صحيحه معتلاً وجميله مشوّهاً وكامله ناقصاً
وقد سلمناه امانة . ثم اذا اسأنا استعماله او أهملناه فلا نلبث ان نراه

على غير ذينك الجمال والكمال اللذين يتصف بهما وهو متلبس بالعافية.
والأمر لنا فلما ان نترك الجسم هيكلاً جميلاً ترتاح فيه النفس واما
ان تغادره خراباً ينخر عظامه السوس ويعلو عضلاته الصداً بناءً
متداعياً الى السقوط لا يلبث ان يخل ويسقط

الا انه لا حياة لنا بدون الطعام والشراب . ونيكول يشير الى
هذه الضروريات ببعض الاحتقار اذ يقول : « الانسان لا بد له
من الطعام غذاءً لدماعه الذي بدونه لا تستطيع النفس شيئاً . ولكن
أي شيء أخط من ذلك . الكيما يعيش يلزمه ان يموت كل يوم بان
يتوقف عن التفكير مدة اهتمامه بامر بطنه ؟ . فليشاء الله ويحطه الى
رتبة الحيوان !

سار بين الرومانيين مثلان ملوئها الحكمة وهما : « الشغل أي
العمل يغلب كل صعوبة » « والشغل نفسه هو مسرة » . والمثلان
متقاربان معنى باعتبار ان الغلبة ولو في الطفيفات من الامور لا تخلو
من مسرة . وجميعنا نحب ان تغلب ويربح ولو في لعبة مقصود بها
التسلية وقليل من لا يجزع ويرتبك اذا غلب وكان خاسراً . فاذا
كان الشغل يكسب ويربح في الختام فهل من ريب في ان السعادة
اليقته وحليفته . ومن يعرف كيف يقبل على شغله فيرى فيه لذة ويولع
به ولوعاً فاحراً به ان يكون فائزاً بالمسرات الحقيقية . الجسم والعقل
خلقاً للعمل ولا راحة لأيهما الا ريثما عمل واشتغل . وما الكسل الا
الصداً اللاحق بالاناء المتروك . وقد يشبهه التواني بطول الأناة احياناً

ولكن يجب الحذر من ذلك والتميز بينهما فان الفرق عظيم جداً .
ناهيك عن ان العمل والاجتهاد في النهار يمنحانك بركة النوم في الليل
وهي بركة كم تستلبن اياها الهموم وأثقال الواجبات ولا بركة بعدها على
حد قول شاكسبير بلسان احد الملوك :

كم ألو ف تنام نوماً هنيئاً من فقير ما بات يملك شيئاً
أيها النوم انت اكرم ضيف وانا الملك فاستضف عيني
ولماذا جفوتني بعدما كنت بلطف تغض لي جفنيئاً
مودعاً هاته الهموم يبحر النسي حتى اتم نوماً هنيئاً

وقد تعددت اوصاف النوم الجميلة ومنها انه مُرضع الطبيعة اللطيفة
وانه الرداء الذي يغطي الافكار او الطعام الذي يذهب بالجوع
والشراب المطفئ لنار العطش والنار التي تدفئ البرد والبرد الذي
يعدل الحرارة والدرهم الذي يشتري كل شيء والميزان الذي لا يرجح
فيه ملك على راع ولا حكيم على جاهل . اما كيف نتمتع بهذه البركة
فلا ايسر من ذلك . فمن قضى نهاره بحكمة أتاه ليله بلذة الراحة . على
انه لا ينكر انه قد تلم بالمرء مصائب عقلية او جسدية فيأتي الليل ولا
يأتي النوم . وقد اختبرت هذه الحالة بنفسى ولله ما أصعبها . اما الخطر
فهو في محاولة استدعائه (اي النوم) باستعمال الأدوية والعقاقير . وتلك
تجربة يجب الحذر منها ومن فارقته نومه فلا بد من ان يعود اليه ويعوض
عليه من تلقاء ذاته لان ملاك النوم حكيم رحيم
وكلنا يعود صغيراً في احلامه . وكان النوم يخفف من اثقالنا

وينزع حملاً تنوء به نفوسنا. فترانا نسبح ونطير في فضاء الخيال ونرى
من قدمتهم ابصارنا واشتاقت اليهم قلوبنا . فنخلق فوق هذا العالم
خالصين لا من قيود الزمان والمكان فقط بل من سلاسل العقل وروابطه
ونرتفع في اعلى سموات الخيال نسترق لحظات ونستمد انواراً من عالم
اسمى واحسن من عالمنا هذا

تعود الينا اذ ننام نفوسنا ولا مقلقات ازعجت في نهارها
وترتاح من اهوائها ومطالب . يذوب منا القلب آكل نارها
والرتوع في ظل رايات السلام ليس بالسهل اليسير كما قد يلوح
ويظهر . واذا كنا في ساعات الراحة ندع العقل وشأنه مع المصاعب
والمشكلات والهموم والعذابات التي نبلى بها فلا عجب ان وجدنا
اوقات الفراغ اتعب من اوقات العمل . ويلة قلق واضطراب اسوأ على
المرء تأثيراً من نهار شغل شاق . فالاولى بنا ان نطرح عنا كل الافكار
المزعجة ونلقيها جانباً . على ان اطراح الهموم لا يخلو من صعوبة تذكر .
واذا طردناها وخلا الفكر منها ومن سواها كانت هي الأسبق عودة
اليها ولذلك أخلق بنا ان نرحب بالافكار الصالحة والمسرة اذا شئنا
ابعاد الشريرة والمحزنة عن نفوسنا . ولا افضل في مثل هذه الاحوال
من الانعكاف على مطالعة كتاب في التاريخ القديم او في العصور
السابقة للتاريخ او آخر يبحث عن طبقات الارض والعصور الخالية او
آخر يبحث عن طباق السماء ونجومها القاصية الى غير ذلك مما يحمل
الفكر ويبعده عن الحاضر وقلاقله ويضله في ظلام الماضي وأبعاده

اما الضمير التعب الثقيل فلا راحة معه ولا سلام وكما قال
روشفوكولد : « من لم تكن راحته داخل نفسه فعبثاً يطلبها خارجاً »
نعلم ان الروى والأحلام كانت تهبط على الحكماء والأنبياء والليل
مرخ سدوله لا والشمس في راحة النهار . واننا ننظر أغلب ما ننظر
بفضل نور الشمس . ولكن اذا غابت وتوارت عن العيان وغمرنا جناح
الظلام تألقت السموات بملايين النجوم وعلمنا ان الشمس تحجب عنا
اكثر مما تبدي لنا . وهكذا نحن في ايماننا هذه اذا اتفق ان لاح لنا
الغير محدود فلا يكون ذلك والشمس في القبة الزرقاء ساطعة باهرة
بل حين يتجلى القمر بضياؤه اللطيف وتسفر النجوم درراً ولالى . وان
في الليلة القمرية لسراً عجباً !

الفصل الثالث

العقل

الجسم هيكل للنفس — النفس كل العالم اصاحبها — ملك عدس — نار
برموثوس — قصر الحياة — الزعم ان الانسان مخلوق حقير — شقاء الحياة —
لا بأس في الموت بالنظر لشقاء الحياة — قولان في الانسان مترادفان لا
متناقضان — القوة — المرأة — الجمال — هيلانة — الشعراء والنساء —
دروبادي — قول سليمان الحكيم في امرأة حكيمة — شرف الحياة — سر
الحياة — وضوح الواجبات — قول ملتن في الحياة

والجسم مع انه يقضي بالعجب العجائب ان هو الا هيكل للنفس.
والنفس ليست أهم من الجسم فقط بل من العالم بأسره لانه « ماذا
ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ». ونرى في الحكاية
المسيحية القديمة ان ملك عدس استحق الملامة لانه لسماعه بعجائب
المسيح أرسل يرجوه أن يشفي جسمه لاعقله . الا انه لا يجوز مطلقاً
ان نبخس الجسم حقه من الاهمية لان الاثنين معاً يؤلفان انساناً
« والانسان لله اليد التي صنعتة . ما اشرفه بعقله ! وما ابعده شأوه
بقواه ! وبهيئته وحركاته ما ادعاه للاعجاب ! . وبتصرفاته ما اشبهه
بملك ! وبفهمه ما اشبهه بإلاه^(١) »

ان للنار التي استمدها بروموثوس من السماء لقليل اضطرام او
كثيره في كل واحد منا . ومن يفكر لا يسعه ان يتجاهل عظمة
الحياة وجلالها . والانسان بعبارة سر توماس برون « ما اشرفه من
حيوان . انه رائع باهر ولورماداً وذو هية ولو في ظلمة القبر » (١)

وبالحقيقة انه لفخر عظيم للكائن ان يكون انساناً . ولا شك
اننا بمعنى لساننا الا مزيج اجزاء كيميائية وقد قدرنا معدل شغل الانسان
اليومي بقوة اربع ليبرات من الفحم . وحسبنا وصفنا الاستاذ هكسلي
بطريق الهزل يقال اننا ائتلاف كربونات النشادر وفوسفات السودا
وكالورس الخ

وعدة من الكتاب وصفوا الانسان بما يحقره كل تحقير . واليك
قول احدهم ذاكراً ان قصر الحياة موضوع يطرقه الفلاسفة والشعراء
على حد سواء

مثل طلل سحراً يعلو الجبال كلما لاح الضحى تلقاه زال
او كما قفاعة الإزباد في النهر تلقي حلقها في الحال حال
هكذا أنت أيا انسان ان تمضي فالعودة وعدٌ بالمحال (٢)

تشبه التوراة الحياة بحلم وبنوم وبخيال يزول وبخار يضمحل
وماء يهرق على الارض وبمحكاة تحكى . ناهيك عن ان الحياة لم
تنعت بالقصر فقط بل بالذمامة والحقارة ايضاً . وبوذا جعل اساءة الظن
في الحياة بمقام العقيدة والمذهب . فكان يتراءى له ان الحياة كلها

(١) توماس برون (٢) سكوت

احزان وهالك قوله « الولادة حزن والكبر حزن والمرض حزن
والاجتماع مع من لا تحب حزن والانفصال عن من تحب حزن وبالاختصار
ان علاقاتنا الخمس مع حطام هذه الارض جميعهن احزان »
وهوميروس انطق افلون بما يأتي :

أمن اجل اهل الارض نحن بنو السما
غدا يبتثا هذا الخصاص مضرًا
أبجدر بالعقل السماوي وقد سما
تدن لهاتيك الشؤون ليحكما
ولادتهم شرًّا عليهم ودينهم
عليهم لها وام حياة ومطما
كانهم الاوراق يوماً ترونها
تتبه جمالاً تقفن الشمس مبسما
ويوماً على سطح الاديم ترونها
وقد ذبلت لا تبهج العين مثلاً . . .
دعوم وأحوالاً عليهم وبالها
وعهدي بأهل الخلد أسمى وأعظماً^(١)

وفكتور هيغو نظر الى الحياة نظرة اليأس والانتقاض حين قال
أولادة لنعيش في طلب الممات ومنية فيها تتوق الى الحياة

(١) لم اغتر على هذه الايات في الاياذة ولعلها من ملحمة هوميروس
المروفة بالاوديسية

فاذا شبينا شاقنا عهد الصبو وة حين كان القلب في عمق السبات
واذا كبرنا نستعيد ولا يعو د شبابنا من بعد ما ولى وفات
ولدن نموت نقول اواه الحيا ة ولو شيوخاً آه ما اقصى المات
ومع ذلك فكثيرون من اولئك الذين يتأفنون من الحياة
ويعافونها يتذمرون شديد التذمر عندما يُقضى عليهم بتوديعها .
فكانهم في موقف الوداع يعتبرون وهذا لسان حالهم
أفخر القيادة والسطوة وذاك الجمال مع الثروة
وكلُّ سبيل لمجد العلى يؤدى اخيراً الى الخفرة^(١)
ولكنهم يستأنفون ويقولون كأنهم ينتحلون لانفسهم عذراً
اذا حلَّ موت فما نوجلُ من الموت لولا الذي نجعلُ
فبعد المات ترى ما نكون ؟ واين نكون ؟ لذا نوجلُ^(٢)
وحقاً ليس الخوف من ان كل حي عرضة لسهام الموت المسددة
بل مما يليه اذا نفذت سهامه :

نجدّ الرحيل لذاك البلد وما آب منه الينا احد
ونخشى المعدّ لما بعد موت لما نحن نجعل ذاك المعد
فنحمل رزءاً هنا يعترينا توقع رزء هناك أشد
كذلك الضمير يصير كلاً جباناً ويمخلق فينا الجلد^(٣)
ولا مرء ان الوجّه التي يُنظر منها الى الموت مختلفة جداً . فهو
« منية البعض ونجاة البعض وآخرة الجميع »^(٤) وكثيرون يرهبون

(١) كراي (٢) دريدن (٣) شاكبير (٤) سينكا

الآلام الشديدة اما الموت فغالباً ما يكون سهلاً جداً ولا سيما في
الشيخوخة —

رأت في المنام سماءً فخلت ولن تستفيق بتلك السما
بكل هدوء تتبع فيها ١١ حياة الممات ويا بئس ما... (١)
اعتبر حكماء الاسرائيليين ميتة موسى وهارون ومريم كأنها قبلة
لا يكاد يشعر بها . فهل هذا يصدق على هؤلاء الثلاثة فقط ؟
وآخرون يعزّون انفسهم بالاعتقاد الآتي

لا موت ان العيش صاح ارتحال فيها وموت المرء عنها انتقال
وان يمرّ العمر مرّاً الخيال في سرعة فلتقطعن المجال
والقبر ذاك الباب حين يُنْسال ناوي دياراً نحوها الارتحال (٢)

لما وقف سقراط لدى المحكمة وشرع يدافع عن نفسه ذكرها
(المحكمة) كيف انه قاوم غضب الشعب برفضه ان يكون ممالئاً على
الحكم باعدام العشرة قواد وبالتالي كيف انه وازعاً روحه على راحته
بكل هدوء وسكينة ابى الرضوخ لاوامر العتاة الثلاثين . وكم اجاد
ما كولي بقوله « ان سقراط صرح باعتقاده تصريحاً ثابتاً وواضحاً
حينما قال ان الموت هو ربح وانه ليس الا نوماً هادئاً خالياً من الاحلام
واضعائها » ثم اردف بمقالة هذا الفيلسوف قول الشاعر ملتن
المختلف عنها :

اي جهل ان قلت ان المنية هي برء من سقم كل بليه

من ترى يفقد الفكر وهذي تمشي في عالم الابدية ؟
وقال (اي ماكولي) واني وان كنت فكرت فكر ملتن مرة
في الزمان فكل يوم اراني اقرب فأقرب من المبدأ الذي وضعه
سقراط »

والاجدر بنا في كل حال ان نقابل الموت اذا أقبل كما قابله
سقراط الذي لم يتكلم في دفاعه كمحكوم عليه بالاعدام بل كزعم
ان يصعد الى السماء

ان هذين القولين - ان الانسان احط قليلاً من الملائكة وانه
اسمى قليلاً من الحيوانات الهالكة - ليسا بمتناقضين بل انهما معطوفان
الواحد على الآخر . ولكل انسان الخيار بين ان يتصف بالاول او
بالثاني . وكل شخص يمكنه ان يكون شريفاً وصالحاً او دنشاً وطالحاً
ذلك كما يختار لنفسه . وكلنا رب قضاء نفسه وقدرها . وانه لفي
استطاعتنا واختيارنا ان نصير ضعفاء وشراراً واشقياء او اقوياء
وموضعاً للثقة وسعداء . وانه لامتياز وفخر مجيد لكل انسان ان يكون
كذلك كما انه مسؤولية عظيمة وعبرة ثقيلة على عاتقه . اجل يمكننا
ان نرفع النفس الى قدس الاقداس ونهوي بها الى دركات الجحيم
واذا كان الانسان ذميماً محتقراً فهذا ما هو صير نفسه اليه لا ما
يمكنه او ما قصد به ان يكون

الاطفال في بدء نشأتهم « ادنى من الملائكة بقليل » . وبعبارة
سر توماس برون « لا بد ان فينا مسكة من الالهية او شيئاً ما

سبق العناصر بوجوده ولا يد للشمس فيه . فبحق قد قيل اذا انه
يجب حب الناس جميعاً وبالاحرى اعتبارهم اللهم بقدر ما يصونون
كرامة نفوسهم ويحافظون هم على اعتبارها

ان الاولاد في نعومة اظفارهم خاضعون بحكم الطبع لمؤثرات
الوسط الذي يكونون فيه . ومن ثم فالوالدون والمعلمون مسؤولون
عنهم كل المسؤولية . وعقل الولد أشبه بصفحة بيضاء طاهرة نكتب
عليها ما نشاء ولكن اذا كتبنا شيئاً تعذر علينا محوه . والمثال الذي
نضعه نصب عيونهم مهم كالمثالة التي نلقنهم اياها ان لم يكن اهم بكثير
وجميعنا مدينون ليس لوالدينا ومعلمينا فقط بل للعصور التي خلت
وسلفت .

« لاجلنا عاش المسيح ومات . ولاجلنا تعذب الشهداء وماتوا .
ولاجلنا صلت الكنيسة الوثنية حرباً عواناً . فكيف نقرأ تاريخها
كأن لا دخل لنا فيه ؟ »

الانسان بالحق تركيب عجيب من الحيوان والملاك . وفنلون
يقول « جسدنا شبيه بالحيوان ونفسنا شبيهة بالملائكة » ولكن كثيرون
لسوء الحظ يحرقون أنفسهم ويحطونها فيصرون ليس ادنى من
الملائكة فقط بل احط وادنى من الحيوانات ايضاً . ولكي نحفظ
النفس على طهارتها يلزمنا ان نحرص على الصحة ما امكن . على انه
لا ينبغي لنا أن نبالغ في مقدرة الجسم واستطاعته فانه احقر من ان
يدنيننا من كل غاية

القوة عطية عظيمة . ولكن ماذا اجدت هرقل قوته ! انه على
رغمها لم يكن حرًا بل عبداً مأموراً لظالم ضعيف . وعاش عيشة كدح
ونصب ثم آل أمره الى ان قتل اولاده ومات هو اشنع ميتة ذاهباً
غنيمة باردة لامرأة غيورة . وشمشون مثال آخر للقوة وهو ايضاً مات
عن حياة غير حميدة وكانت آخرته غاية في الشقاء

ان الشرائع المدنية تتناول الرجل والمرأة جميعاً . وانا لكذلك
نعني المرأة في ما نقول . على انه لا بد من تخصيصها بشيء من القول .
فاذا كان العقل في الرجل اقوى منه في المرأة (واني لا اقطع بذلك)
فان نور النفس فيها لا شك اسنى وابهى . وآدم لم يستطع ان يعيش
حتى في الفردوس بدون حوائه . « وبدون المرأة يمسي بده الحياة
وآخرها لا قبل لنا بهما واوسطها لا مسرات لنا فيه » . ولكن لا شك
« ان خفة رأس المرأة تثقل قلب الرجل »

كالقوة للرجل كذلك الجمال للمرأة . الا ان عطية الجمال
كسائر العطايا ليست نفعا خالصاً غير مشوب بشيء من الضرر بل
غالباً ما تكون لا نفع فيها اصلاً . والجمال منجم اخطار . ويا لسرعة
ما يذبل جمال الشباب وتذهب نضارته . « لما وقفت هيلانة مرة امام
مرآتها وتأملت تجمعات الكبر في وجهها تعجبت في نفسها كيف
انها سببت مرتين لمجرد جمالها » . ولقد حاولت في غير هذا الموضع
ان اظهر كيف ان اليونان اساؤا فهم حياة هيلانتهم . وحسبي ان
اقول في هذا المقام — انها لو لم ترض بأن تسبى مرة فاخرى ولو

انها عاشت بحظ اوفر من الحكمة واحسنت اختيار اصحابها لما كان
فارقها حسن صباها بل لكان تحوّل الى جمال الكبر الرزين والشریف
وعندئذٍ لكانت الرجال تفتخر بالركوع تحت قدميها عوضاً عن محاولة
سبيها بالخداع والقوة

كل النساء عليهنّ نطاق الزهرة اذا اردن استعماله . وقد قيل
انه ليس للفتاة ان تختار ان تكون جميلة في الربيع العشرين من عمرها
ولكنها هي الملوّمة اذا كانت غير جميلة وقد وصلت الى خريف
الخمسين . وفضلاً عن هذا مهما كانت المرأة جميلة في العشرين من
سنيها فليس من الضروري ان يدوم جمالها لطويل

والمرأة طالما حركت قلوب الشعراء الحساسة وضربت على اوتار
نفوسهم فاسمعتنا انعاماً شجية . وتأثيرها لا يقتصر عليهم فقط بل قد
يتناول الفلاسفة والكتاب ايضاً . وقد ذكر بلوتارك : « ان مطمع
المرأة الاسبرطية كان محصوراً في صيرورتها زوجة لرجل عظيم واماً
لاولاد فائقين » . أما الشعراء الناظمون فطبعاً أشد لهجة وتأثيراً من
الكتاب النافرين . وهربرت سبنسر زعم ان الشعراء اتفقوا على
اتلاف المرأة بفرط ما يطورونها ويتملقون اليها وقلّ ما يبعد زعمه عن
الحقيقة . واذا اردت الاستشهاد فلا حاجة بي الى الرجوع الى الازمان
القديمة ولأبدأ بقول شوسر

كأنني بها مما بها من فضيلة صحيفة حسن قد حوت للفضائل
فناظرها يقرأ جميل خلاصها على وجهها الحايي جميع الشرائل

وتعشق من راء يشاهد حسنها وتمدح طرّاً في مقالة قائل
واليك ما قاله بن جنسن في ضريح الياصابط
حجرٌ يحوي جمالاً ذابلاً مائتاً من بعد ما كان نضيراً
بل جمالاً كان أبهى مظهر لمعاني مفضل ان عزّت ظهوراً
وملتن يصف لنا امنا حواء بقوله :

كان الجمال مرافقاً خطواتها وسنا السما قد كان في لحظاتها
والنبل كان مضمناً سكناتها والحب كان مصاحباً حركاتها
وهاك وصف سر هـ . تايلر لاحدى ابطال رواياته : « واذا تحركت
فكأنما الموسيقى هزتها وأطربتها » . اوخذ قول ولر في نطاق يضم
خصر سيدة :

هو حلقة مع ضيقها اشتملت على خير الشائل في جوانب خصرها
دارت على المحبوب طرّاً والجمي ل فدعه لي وخذ السماء بأسرها
وبلايك لا يقلّ عنه بحماسة الحبي اذ يقول :

اذا كلمتني فصوت السماء أو اقتربت فجواري طهر
وان تصطحبني فكل الحقول فراديس تبهج مني النظر
وإما وقفنا بوادٍ سكوتاً فأرض مقدسة يا بشر
ومن ابداع ما جاء في الروايات الخيالية امرٌ دروپادي في ملحمة
ماهاباراتا الهندية . فهي التي اسرها الملك دوريودهان وطلب اليها
ان تتزوج به ولما رفضت سؤله رفضاً باتاً محتقرة اياه كل احتقار
أمر أن تعرّى وتجلد على عيون الاشهاد فضرعت الى معبودها كرشنا

وشكت حالها اليه ثم خلعوا عنها اول ثوب واذا بثوب آخر تحته
 فزعوه واذا بغيره تحته ايضاً الى ان اتوا اخيراً الى ثوب تعذر عليهم
 نزعه فحجل الملك ولام نفسه ولم يسهه الا ان يلغي حكمه ويسترد امره
 ولكن اي قول يفوق قول الحكيم سليمان صاحب الامثال
 المشهورة والاقوال الماثورة : « المرأة الفاضلة من يجدها لان ثمنها
 يفوق اللآلى . بها يثق قلب زوجها . تصنع له خيراً لا شراً كل ايام
 حياتها . تمد يديها الى المغزل وتمسك كفها بالفلكة . تبسط كفها
 للفقير وتمد يديها الى المسكين . العز والبهاء لباسها وتضحك على الزمن
 الاتي . تفتح فمها بالحكمة وفي لسانها سنة المعروف . تراقب طرق اهل
 بيتها ولا تاكل خبز الكسل . يقوم اولادها ويطوبونها ، زوجها ايضاً
 فيمدحها . بنات كثيرات عمان فضلاً اما أنت ففقت عليهن جميعاً .
 الحسن غش والجمال باطل . اما المرأة المتقية الرب فهي تمدح »
 فاذا كان للنساء أن يوحين الى الرجال الخير او الشرف أي قوة
 بعد هذه يعوزهن !

ومع ان الرجال يختلفون عن النساء من عدة وجوه فان اكثر ما
 يصدق على الجنس الواحد قد يصدق على الآخر تماماً . فيمكننا ان
 نشمل الجنسين اذ تقول ان تشبيه الانسان بقصبة تحركها الريح لا
 يخلو من الصحة الا انه قصبة ذات عقل وتفكر

العظمة نصيب كل انسان . والمرء يبقى عظيماً الى ان يصغر
 نفسه باختياره وارادته . فهو عظيم في قواه وفي الفرص التي لديه وفي

الامتيازات التي يتمتع بها وفي البركات التي يتنعم فيها . وهو صغير
بقدر ما ينقاد لشهواته وأهوائه ويستسلم للتجارب . وأن تكون رجلاً
حقيقياً اعظم من أن تكون ملكاً ليس كذلك . والمجد انما هو ان
تحكم نفسك لا من دونك . واحسان الخدمة والاطاعة فيهما من
الشرف ما في الاستخدام والإمرة لا مشاحة

فما هو عنوان الرجولية اذاً ؟ ليس المقام الاجتماعي ولا البيت
الفخم ولا الاموال الوفيرة ولا الملابس المجوهرة ما يجعل الرجل رجلاً .
انما العبرة بالشيم والاخلاق لا غير

يقال « الولد أب الرجل » بمعنى ان رجل اليوم هو بعينه طفل الأمس
وطفل اليوم رجل الغد . ولكن كثيراً ما لا نرى نسبة بين طفولية
بعض الناس ورجوليتهم لكثرة ما يختلفان

وانه ليمكننا ان نعيش بحيث يقال عنا اخيراً كما قيل عن حياة
كاسيو : ان في حياته لجمالاً يومياً

لا ريب ان الحياة سرّ مكتوم . وقد قال الفيلسوف پاسكال :
« وُلدت ولم اعرف لماذا ولدت ، وعشت ولم اعرف كيف عشت ، والآن
اموت ولا اعرف لماذا اموت » وهو القائل « الانسان أغرب ما
في الطبيعة . لانه قليل ما يمكنه أن يتصور ماهية الجسم وأقل ماهية
العقل وأقل ايضاً كيف الاثنان يتحدان . ففي اجتماع الاثنين حيرته
وما هو الا اجتماعهما »

الانسان ملاك ، انما ملاك في حيوان . واذا هو افتخر بعلويته

فان اصله الحيواني يعيده الى التواضع . فمادياً وروحياً ان نحن الا
مخلوقات حقيرة أحياناً

« كل انسان حي هو سرّ منظور يتراوح بين ابديتين وثلاث
لانهايات ^(١) » ومع ان الامر كذلك أليست واجباتنا واضحة تمام
الوضوح . أولسنا نفهم ما يوحيه الينا الضمير ؟

وان سلمنا ان الانسان ضعيف مسكين وغبي بوجه من الوجوه
أفنتكر انه وزن الارض على ضخامتها وقاس الجبال على علوها وسبر
غور البحار على عمقها وقرّر مسافات السيارات والشمس واقرب
النجوم على بعدها الهائل ؟ بل انه وزن الاجرام السماوية وقاسها
وعرف حرارتها ومقدار سرعتها ولم يقف عند ذلك الحد بل عرف
نوع تركيبها الكيميّ

فالعقل لا شك انه يترفع عن شهوات الارض ودناستها ولكنه
كالمستحيل على النفس كما على الجسم أن تتحرّر من رتبة الوجود
المادي وترتفع بكليتها الى السماء . ومع ذلك فانه يتسنى لنا أن نعمل
كثيراً . واذا كنا نبذل جهدنا حق لنا أن نأمل أن نكون يوماً ما
كما قال ملتن « متقدين بحب العلم وحب الفضيلة مفعمين آمالاً أن
نعيش رجالاً اصحاب اقدام وذوي وطنية حقة أعزاء في عين الله
ومعروفين في كل العصور »

الفصل الرابع

الامل

ماذا يجب ان تكون آماننا — البخل والطمع — القسم الاثني — قول
شيشرون في المجد — اضرار الثروة والقوة — المخاطر في سبيل الحياة —
شاكسبير والطمع — الثبات — راي الاشتراكيين — راي القدماء في التقدم
— العصر الذهبي — العلم والتقدم — مستقبل العلم .

أملوا ! ! هذه هي الكلمة التي قال سر جايمس ستيفن انها تحوي
جميع النصائح التي قدمها لجمهور شبان وقف فيهم خطياً
وانها لنصيحة سديدة . انما ما الذي يجب أن نؤمله . أن نملك
كل شيء ونحاول العلو فوق كل من دوننا . لالعمري ! وبئست
تلك من غاية . انما لتكن غاية كل منا أن يرتفع بنفسه فوق ما هي
عليه وأن يكون ارتفاعه مع الغير لا عليهم ما امكن . وان الذين
يحتقرون رأي سواهم قلما يستحقونه . وحسن بنا ان نرمي الى العالي
(من النايات) لئلا نهبط الى الحضيض . وهو من المستحيل أن
يسلم المرء من ركوب الشطط ولكنه يمكنه كل الامكان ان يجرب
الابتعاد عن سبيل الغلط . وبعض الناس ينتظرون ريثما تأتي الفرص
اليهم عوضاً عن أن يسعوا هم اليها فيتهزوها

قال القديس اوغسطينوس ان البخل والطمع يعتبرهما الناس من
الاعمال البارة ولو أدبنا الى اقرار الذنوب وارتكاب المعاصي حين
انهما خطيتان كبيرتان . ومقالته هذه صحيحة لا مرء فيها بشرط ألا
يلبس الطمع بالطموح والرغبة في الاعتلاء الى الافضل والاصح والآ
يقصد بالبخل الاقتصاد بل التقدير الذي يتناول صنّ الوالد على
اولاده بقوتهم الضروري

فماذا يجب أن تكون آمالنا ؟ أولاً يجب ان نفكر بالآخرين كما
نفكر بانفسنا . ومن ثم وقد اتيج لنا أن نكون أبناء مملكة عظيمة فيجب
علينا أن نطبع على صفحات صدورنا القسم الاثني القديم القائل « انا
لا ادنس ترسي المقدس ولن اغادر اخي الجندي في صف القتال
واتركه وحده بل اخوض المعارك ذوداً عن هياكلنا ومنازلنا سواء
معاناً ام غير معان . وقسماً ان اترك بلادتي لا اصغر بل اشرف
وأعظم مما ألقيت بين يدي »

أجل يجوز لنا بل ينبغي علينا ان نتطلب اعتبار مواطنينا ومعاصرينا
لشخصياتنا اما الجشع في طلب المجد فتهلكة وتغري بالنفس . واليك
ما قاله شيشرون بهذا المعنى « كما سبقت فقلت — كذلك يجب
الحذر من الافراط في حب المجد لانه قد يجرنا حريتنا والحرية اعز
شيء يجدر براقى الشعور ان يشتريه بكل غال ونفيس لديه . وليس
للقوة صفة ذاتية تحب من اجلها بل ما اولاهها بالرفض والترك احياناً .
وكذلك ينبغي ان نكون احراراً خالصين من شوائب العقل ومزعجاته

واحراراً من سلطة الشهوات خالين من الخوف بل ومن الارتمخاء
والكلال والاندفاع والحدة لكيما يتيسر لنا ان نفوز بدينك الهدوء
والسلام اللذين يمنحانا الثبات وعزة النفس »

كثيرون يغطون الاغنياء الاقوياء لزعهم ان هؤلاء مُسعدون
يشترى ما يشتهون ويفعلون ما يشاؤون . على ان المُسعد ليس
بالضرورة سعيداً . ففي الصيد مثلاً ليست اللذة في قتل الطريدة بل
بمطاردها . ولذة الارتقاء وهو مستمر اعظم من لذته بعد تمامه . واذا
لم يكن عندنا شيء نتمناه او شيء نأمل الحصول عليه فخسارتنا هي
خسارة نصف رونق الحياة والرغبة فيها

والذين يولدون على « الاطلس الوثير » لا يُنكر ما لهم مما ليس
لغيرهم من اجل ذلك . فقليل ما يتمنونه ولكن كثير ما يخافونه
ويخشونه . انهم يبددون وقتهم — والوقت هو الحياة والحياة هي اثنان
ما يملك — بين الرسميات والعوائد المملة التي تقضي عليهم بلبس
البذل اللاتقة ونزعها . فهم ابداءً بين مقابلات ومخابرات ومراجعات
وحضور جلسات خصوصية او محافل عمومية او ولائم عمومية او نصف
عمومية . . . الى غير ذلك من ارساليات واتدابات الخ . فضلاً عن
ذلك انهم مضطرون لان يكونوا ابداءً على حذر من المتزلفين
والمتملقين ومن تجارب هي اكثر مما يعرض لمن كان اقل نفوذاً
وظهوراً منهم . وليس هذا كل امرهم . فان مهامهم والمسؤولية الملقاة
على عواتقهم تقوّس ظهورهم وتحنّيها . وما اصدق قول شاكسبير بهذا

المعنى : « لا راحة لرأسٍ تحت تاج » . فعندهم أشياء كثيرة ولكن الراحة والسلام قلما يكونان من جملتها . « الامراء كالاجرام السماوية التي تسبب السعد او النحس والتي لها من اجل ذلك اعتبار كبير الا انها لا تكون لها ولا راحة ^(٢) » . انهم عرضة للوقوع في تجارب قد ينجو منها الوضع والصعوك . بل قل كم من ملوك خلعوا او ثلثت عروشهم وكم منهم من ذاقوا مرارة النفي وكم منهم من سقطوا فرائس باردة اما في يد العدل او تحت اقدام الخائن والجاني

كتب البرنس لودويك اوف ورنميرج الى روسو الفيلسوف التهديبي الشهير يستشيريه في شأن تهذيب اولاده فصدر جوابه اليه بهذه العبارة - « لو كنت سيء البخت وولدت اميراً »
الظالم الذي يسجن مظلوماً هو من ظلمه كسجينه في شقائه بل ان حياته لني خطر اشد

وقد قال بايكن « من اعتاد ان يتقدم دائماً ووصل الى موقف لا يمكنه ان يتخطاه انقلب من تلقاء نفسه وبات على غير ما كان عليه بالامس »

والعيشة في السجن بضمير نقي لا يخس ولا يبيكت وبعقل سائد عليه السلام افضل من العيشة على اسمى العروش بالهم والقلق والاضطراب ولا سيما اذا كان العرش مغتصباً بالقوة او مرتقى بالخديعة . والقوة ليست كما يقولون دواء لكل داء . وسيفشل الاملون

العاملون بقول سعدي : « بقوة الذراع يجتذب الرغائب من تلايبيها »
وزد على ذلك انه اذا كانت العليا مصدر وجد وجزع فالسقوط
ينبوع آلام لا ينشف . وكثيرون بعبارة ملتن :

همُ خَوْفًا من ان يصيروا أقلا ان يعيشوا ما همَّهم ذاك اصلا
ومن كان على جناح بناء شامخ كان ابدًا عرضة لخطر السقوط
الى اسفل . وجميعنا نعلم كيف تدور بنا الرأس اذا وقفنا على جرف
هوة وكيف نأخذ بتجميع قوانا حذرًا من الالتقاء بانفسنا الى أعماقها .
وان مركزًا عاليًا في هذه الدنيا مرتفعًا على سائر الناس لله نفس التأثير
على عقل صاحبه . وكثيرون ممن لم يكتب لهم العلاء في دنياهم
يمكنهم ان يسيروا في طريقهم على وطوءها بكل امان واكرام -
وهو الأولى

وقد يصح ما يقولون من ان :

ساعة المجد تساوي حبة من دون مجد

ومع ذلك فقد نشترى الذهب باكثر مما يساوي . « ويا له
من غبن ان نفقد السلطة على أنفسنا والحكم على وقتنا ابتغاء نيل
السلطة على الآخرين . وغريبة هي رغبتنا في طلب القوة ولو بخسارة
الحرية . وغريب ان نرضى بالحكم على الآخرين ولا حكم لنا على
أنفسنا ^(١) » ومدام دي ستايل وصفت الشهرة بقولها « انها فجر
السعادة المبهج » الا انها ككثير سواها لم تتبع قولها وتعمل به

أتحفنا مركيز اف مونتروز بشعر لطيف عنوانه « حبيبتي العزيزة
الوحيدة » يقول فيه

إذا كان غيري يخاف القدر وقلت فعالاً عليها قدر
فمجدك من ذا اليراع الاغر وصيتك من ذا الحسام الاغر
وفي رواية اخرى « فصيتك من ذا اليراع الاغر » واظن ان
الرواية الاولى هي الاصل وهي الافضل في رأيي . وفي بعض الاحوال
تصبح نصيحة ولسي قابلة للارتياح اذ يقول مخاطباً كرمول :
ألا دم بربك هذا الطمع فابليس فيه قديماً وقع ^(١)
وفي نفس المخاطبة أيضاً :

فوق ما في الارض من جاه كبير

راحة أمن سلام في الضمير

وزد على ذلك ان بسطة الثروة وعرض الجاه وصول القوة قد
يحول دون تمتع المرء ببعض بركات الحياة الحقيقية . وولسي مع انه
ينهى عن الطمع وحب المجد فهناك ما يقوله في هذه الايات

ليالي العز طولي ودّعينا أوامضي في تنعمنا دعينا
أيوم نزرع الآمال فيه فتنبت بهجة للناظرينا
ويوم تزهر الاغصان منها فنصبح بالمكارم مفعمينا
ويوم زمهرير القر منه يمت اصولها ان تدن حيننا
فينا نحن نأمل جني غرس نموت كأننا وهماً حيننا ؟

فمن كانت آمالهم في القوة فلا أمل لهم في السلام . والذين يطلبون حياة سلام وطمأنينة فليدعوا حب العظمة جانباً . « انه لا يوجد طريق جميلة وسهلة المسلك بين هذه الارض وتلك النجوم » « لا عمل في هذه الدنيا اكبر مشقة من العمل على تكبير الاسم (الشهرة) وقد تنتهي الحياة قبل تسطير الحرف الاول ^(١) » وربما آلت شدة الطمع في النجاح الى الفشل واططاء المرمى . او كما قال شاكسبير :

رام ان برقي الى رأس الجبل . فاعتلى الرأس وللوادي انسفل
على انه « لا يلزمك ان تلح في طلب القوة او ان تجاهد في
سبيلها اذ إن تكن حكيماً وصالحاً فهي أتبع لك من ظلك ^(٢) » ولئن
تقف على صخرة الفضيلة افضل لنا من الوقوف على جليد السعد
السريع الانكسار . والنجاح في اي خطة كانت لا يُنال بغير
الكد والاجتهاد ولا وصول اليه لمن يهب تارة وينام اخرى ويشب
وثبة ثم يجلس منهوكة . والثبات وتوطيد العزم هما من ألزم شروطه كما
لا يخفى . فكم تسلق جبال الالب انه ينقل خطاه متثبثاً مستمكناً فلا
يسرع ولا يتأخر بل ابدأ الى الامام . ولا شك ان الثبات من اهم
أسباب النجاح . والله در شاكسبير القائل
داوم فعالك يا مولاي مجتهداً

تلبس من الفخر اثواباً لها جُوداً

(١) لا برويار (٢) الملك الفرد

وطارف المجد فيه الخير فاعن له

لا خير في المجد ان ما فات او تلتا

وتالد المجد سيف مات صاحبه اسـ

تبقوا عليه فأمسى يعتليه صدا

اذا عجزت عن تخليف ثروة او منصب عال لاولادك فترك
لهم بالاكل ذكراً جميلاً. ومن فاته فعال الاربحية والبسالة في الحروب
فان في استطاعته ومن الواجب عليه ان يمارس العدل والشرف
والكرم والوداعة والاعتدال في كل اطوار حياته . واعلم ان احسن
ميراث يتركه الوالد لاولاده انما هو فضائله وما أثره ^(١) »

وكل انسان مهما قلت قسمته ينفع العالم بافعاله اذا بذل جهده
وافرغ ما في وسعه بينما كثير من الاغنياء والاقوياء يضعون ما لديهم
في كفة الشر من الميزان ويرجحونها على كفة الخير

يوئيد الاشتراكيون مبدأهم وخطتهم بدليل ان الحالة الحاضرة
غير مرضية . وانه ليسهل على جميعنا ان نشعر بما يشعرون بدون أن
نصير اشتراكيين مثلهم . والاشتراكية ضربة قاضية على الحرية
والاستقلال الذاتي . ومن وجهة اقتصادية لا أمل لها بالقيام مطلقاً لانها
تحميل على التقاعد عن العمل وتحصيل القوت وغيره من الضروريات
بل الانكى فيها انها تنطوي على الخضوع الاختياري التام للحكومة بل
لذات موظفيها . وما الذي أدى بحكومة الرومان الى الظلم فالحراب ؟

بعض رؤسائها كهادريان وماركوس اوريليوس واتونيوس بيوس
وامثالهم كانوا من خيرة الرجال ولقد ضربت بهم الامثال في الحكمة
والفضيلة . اما حكومة كالتى يقصدون فلا تكون الا استعباداً منظماً
واذا كانت الحكومة تتولى امر قوتنا وسكننا وكسوتنا بات من
الواجب اذ ذاك ان ناكل ما يُقدَّم لنا ونلبس ما يُعطى الينا وان
نعمل كل ما نؤمر بعمله . فلا يبقى لنا مجال للاختيار في شوؤنا ولا
في شوؤن اولادنا . فلا يحق لاحدنا بعد ذلك ان يختار مهنة لنفسه او
لاحد ابنائه بل يصير محتماً علينا ان نرضى بما يختاره الكاتب في
المجلس المحلي او احد مستخدميهِ . ولعمر الحق ان هذا الا محض
عبودية وغلٌّ لايدي عن العمل وعقبة في سبيل التقدم وعقال يُثقل
به معصم الحرية . فلا أمل لنا بتحسين الحال عن طريق الاشتراكية
وانني آمل اننا سنسلم من هذه الاخطار وعلى يقين من ان العالم سيتقدم
يظهر ان القدماء كانوا يجولون ماهية التقدم فكانوا يتصورون
العصور الذهبية كانها ماضٍ مضى . اما نحن فنعتقد ونرجو ان تكون
الآواتي عصورنا الذهبية

ولئن كنا نأسف أن نرى « حقيقة مستكرهة تقتل نظرية
جميلة » فبحق قد نيكها ونندبها الا انه يجب ان نقبرها ونواربها
تراب النسيان . والافكار تتقدم مثل الدراهم والمسكوكات . وقد
يُنتج الدماغ فكراً يكون خطوة الى الامام في سبيل التقدم ولكنه
كقطعة سكت من خالص الذهب لا تلبث أن تبرى بالاستعمال

وتقل قيمتها . » والنقطة التي كانت غير منظورة لعين الفكر بالأمس هي اليوم غايته وغداً نقطة ارتحاله ^(١) »

عجيباً كان تقدم العلم في القرن الاخير . فانه مكننا ليس من زنة النجوم وقياسها فقط بل من تحليلها ومعرفة العناصر المركبة منها . وبفضله صرنا ننحدر الى جوف الارض واعماق البحار ونشاهد بروز الجبال وتكون الاودية ونفهم تعرجات الانهار . وبوسائله بتنا نمشي فوق الانهار العظيمة ونقطع البحار الشاسعة ونخوض عبابها ولا نخشى ضلالاً . وبواسطته قربنا البعيد وتغلبنا على المسافات . بل انه منحنا نوراً وناراً وخفف عذاباتنا وآلامنا بعلاجاته واطال الحياة وضاعف لذة الوجود . وان كنا نعرف شيئاً عن العصور الخالية او كان لنا فكر ما عن رقي العصور الآتية فبفضله كل ذلك

لقب « رنان » القرن الماضي بالمسلي . اما انا فلو وصفته لقلت انه كان قرناً فائقاً باكتشافاته واختراعاته . فالقطار والباخرة والاسلاك البرقية والتصوير الشمسي والغاز والبتروول والنور الكهربائي والتحليل الطيفي واشعة رونتجن واكتشاف عدة عناصر بسيطة اهمها الراديوم واختراع الناقل والحاكي وتحويل الهواء والهيدروجين الى ماء واستنباطات دروين ووضع علم طبقات الارض على اساس راسخ واكتشاف العلاجات المخدرة والمانعة للعدوى — جميع هذه أشبه بمجرة في سماء العلم ليس لقرن آخر مجرة تضارعها . وما قيل في العلوم

المادية يقال في النظرية والادبية ايضاً . فخرية التجارة وقدر التهذيب
قدره وتطهير الديانات من شوائب الخزعبلات والقضاء على السحر
والعرافة اللذين طال تعلقهما على العقل الاوربي تعلق غطاء النعش
فوق الميت ، وقطع الزيادات التي لحقت بالفنون والاداب - كل
هذا من بركات القرن التاسع عشر ايضاً

ولما كان الامر كذلك فلا بدع ان نساء لنا اذا كان القرن
الجديد - اي الحاضر - يجود بتحقيق مثل تلك الرغائب البعيدة .
والمرحوم لورد دربي - وهو بلا ريب احد ساستنا الكبار - ذهب
الى ان ذلك أبعد من ان يؤمل . وانا مع اني اتردد في مخالفته عادة
فاني لا اتمالك من الاعتقاد بانه يحق لنا ان ننظر الى المستقبل بعين
ملوؤها الامل والرجاء . ولو كان العالم معروفاً لدينا اكثر مما هو الان
او لو كان يوجد بعض النسبة بين ما نعرف وما نجهل لكانت الحالة
غير ما تقول . اما الواقع فهو ان معرفتنا ليست الا كسراً جزئياً مما
لا نزال نجهله . فاي عنصر من العناصر نعرف جميع خاصياته او
استعمالاته ؟ ام اي حيوان او نبات نعلم تاريخ حياته من الاول الى
الآخر ؟ ألا اننا محاطون بقوى وفواعل لا نكاد نعرف عنها
شيئاً بعد . والعشاوة التي أثقلت ابصارنا لم تكد تزاح . وما نحن الا
مبتدئين لا نرى الاسرار القليل مما نرى . ونحن في عالم ملوؤه الاسرار
والغوامض . الا انه بالنظر لثلاثة امور يجوز لي ان ازيد آمالاً في رقي
الانسانية وتقدمها . الاول استمرار التحسين في الآلات والمعدات

واختراع آلات جديدة تساعدنا على البحث والاكتشاف . الثاني
تزايد عدد النازلين في هذا المضمار وان يكن يحق لنا حتى اليوم ان
نقول « هوذا الحصاد كثير اما الفعلة قليلون » . والثالث انه كما ان
شمس الاكتشاف تقشع غيوم الجهل وتبددها وكما ان نور العلم يخرق
ظلمة الاسرار والمبهمات التي حولنا فهكذا احتمال التقدم في المستقبل
يقرب من الامكان شيئاً فشيئاً . فكل اكتشاف جديد يفتح باباً
جديداً ويمهد سبيلاً جديداً لاكتشاف اعم ولفوز اسمى

ان اولادنا اليوم يتلقون العلوم على معلمين قديرين ولهم امتيازات
وفرص عظيمة لم تكن لأسلافنا . واني لآمل بل اعتقد ان تقدم العلم
المأمول لن يُعَدَم يدأً يبضاء حتى من الاقرب اليَّ والأعز لديَّ
فيأتون ما ينيلهم شرف العمل بالعلم ويزيد الانسانية معرفة . « والعلم
قد اطال الحياة وخفف الآلام وافنى الاوبئة . وزاد الارض خصباً
والبشري هداية . وسلح الجندي بعدة جديدة . وأقام فوق الانهر
الكبيرة جسوراً فخيمة باشكال لم يحلم بها اجدادنا . وذلل الصاعقة
المنقضة من اعلى عليين وانزلها الى تحت التراب مخزية مخذولة .
وأنازل الليل بسناء النهار . بل اطال بصر الانسان فصار يرى بعيد
الاشباح كأنها اقرب اليه من الوريد وزاد حركة المتحرك وضاعف
سرعة السريع . وحكم على البعد والمسافة بالاعدام . وسهل المخابرات
 والمراسلات بل مكَّن الانسان من النزول الى قرار البحار ومن
التحليق في طبقات الجو ومن الدخول في ظلمات الارض وقطع

السهول على مركبات لا تنجرها الخيول وقطع البحار بسرعة عشر عُقد في الساعة ضد الريح^(١)»

قال ملتن « شبه الكتاب الحقيقة بنبع جار . فاذا كانت مياهه ترجع الى الوراء لا تلبث ان تصير مستنقعا قذرا »

للعلم اهمية عظمى في حياتنا . واخلق به ان يكون أخلب لالبابنا من حكايات الجن والروايات جميعا . ومن يهمل تتبع سير الاكتشافات الباهر الذي يتحفنا كل يوم بطرفة ويحدث فينا تأثيرا ادبيا بما يظهره للعيان من جمال الطبيعة وعجائبها التي طالما عشنا بينها ولم نشعر بوجودها قلت من يغفل عن مراقبة تقدم العلم كان كالرافض بارادته واختياره احدى بركات الحياة العظمى وخير عطية حبتنا بها العناية

ولكن ليس ذلك كل الامر . فياللاسف ان رجال العلم لحد الآن لم يقابلوا بحتمهم من التشجيع . « فالرجل الذي اخترع المقرب وقرَّب السموات من الابصار كان طرحه في السرداب جزاءه والرجل الذي اخترع المجهر وكان اول من نظر الارض بدقة مات جوعا وطرد من بيته^(٢) » . « واذا عد اختراع المركب ذا اهمية عظمى لانه ينقل خيرات بلاد الى اخرى ويسهل المواصلات واشتراك الامم المتباعدة بعضها مع بعض ، فكم يجب بالاحرى ان تكبر حروف الكتابة التي كلما ركب تجتاز بحار الازمان الشاسعة وتمكن عصرا من مشاركة آخر في انواره وحكمته ومخترعائه^(٣) »

(١) مكولي (٢) رسكن (٣) بايكن

ما هو التقدم ؟ ليست العبرة في التقدم والرفي بزيادة حاصلات
البلاد ومدخولاتها او بتجارتها وصناعاتها وخطوطها الحديدية واسلاكها
البرقية ولا بانتصاراتها الحربية . لا لعمرى ! لا يتوقف توفيق البلاد
ونجاحها الحقيقيان على احد هذه الامور . بل على ازدياد ابناء البلاد
صحة وسعادة وجدارة واهلية . وانه لمن ابرك الامتيازات التي لنا
واعظم الامال التي فينا ان يعمل الواحد منا في حياته ما يقرّبنا من
هذه الغاية الشريفة

الفصل الخامس

القناعة

نور الشمس والظل — التذمرات الغير معقولة — سليمان الحكيم —
ادوار الحياة : الطفولية ، الصبا ، الرجولية ، الشيخوخة — الموت — القنوط
(السويداء) — التفكير في المصائب — العيش في فردوس — الحرية —
الاضطراب والبلبال — الشجاعة

(اذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون)

والشمس مهما اشتد لمعانها تظل الارض ذات وجهين من ليل
ونهار . بل قل لان الشمس تسطع بنورها يتحتم وجود الظل والخيال .
وكقول پندار :

هكذا حتى الأبد بحرنا جزرٌ ومدّ

موجة الافراح تعلو ويلى جزر الكمد

الا انه انكار للجميل ان نستطرد الى مثل قوله

واذا الأرباب جادت بجميل لأحد

تبتليه بنصيبين من الرزء الأشد

قل بلوتارك : « يستوقفني قول ديوجونيس التالي لدى مشاهدته

رجلاً غريباً يبالغ في استعدادده لحضور وليمة : — أحر بالانسان الصالح

ان يحسب كل يوم من ايامه يوم مآدب وولائم - والحق يقال شائقة هي ولائنا اليومية لو درينا وعقلنا . فعالمنا هيكل الالهى مقدس يدخله المرء حين يولد لا ليعاين اشباحاً غير متحركة من صنع يد الانسان ، بل ليشاهد ما صنعت يد الحكمة الالهية من ممثلاتها التي لا يدركها الا العقل ، وقد بعثت فيها علة الحياة والحركة ، كالشمس والقمر والنجوم والانهار المتدفقة بالمياه العذبة والارض التي تجود بمادتها غذاء للحيوان والنبات . ولما كانت الحياة بثاً وبعثاً في جميع هذه الاشياء وجب ان تكون ملائمة من الراحة والسرور . اما الناس فكانهم يحتقرون المآدب التي يأدبها لهم الخالق فيقضون اغلب ايامهم بالبكاء والنحيب وباتقباض النفس والاضطراب والاهتمام . وكيف ذلك ؟ . . انهم لا يصغون لاقوال الناصحين العارفين . على انهم لو فعلوا لكاتوا يعيشون في حاضرم انعم بالاً ويذكرون ماضيهم بالخير ويعملون للغد الاتي بامل وسرور وبدون خوف ولا رية »

واذا كنا لا نرى الحياة بركة فما بالناس يحسب الموت لعنة . وفي الحقيقة ما اقل الذين يطلبون الموت !

ليس أنسى به بعض النفس يتمنى ساعة لو يُختلس^(١) ورغماً عن ذلك كم نقرأ من تأففات وتذمرات في غير محلها فيُخيل لنا كأننا قصد بالعالم منذ خلق ان يكون منبعاً للاضطراب والعذاب وظلمة حالكة باحزانه واكداره ، وكأن « الحياة اذا طالت

فهي المصيبة تكبر^(١) . « واليك هذه الاغنية القديمة :

حياتك ان تكن فيها مُعيراً غنياً مسرفاً تهب الكثير
تجدها حلوة فاقت جمالاً فلا تلقى بها الا السرورا
ولكن ان تكن فيها فقيراً تُعار وتطلب المهضوم جورا
تقل قولي لها تباً وتباً لدنيا ما عرفت لها نظيراً

قال پوركاس : « خير للانسان ان لا يولد ، وان وُلد فأن يموت حالاً » وهو القائل ايضاً « جسمنا عالم صغير بل جهنم شقاء »
وحتى الملك سليمان الذي أمطر شأ يدب النعم والآلاء ، وأغدق بالبركات تدمر من الحياة قائلاً : « فكرهت الحياة لانه ردي » عندي
العمل الذي عمل تحت الشمس لان الكل باطل وقبض الريح .
فكرهت كل تعبى الذي تعبت فيه تحت الشمس حيث اتركه للانسان
الذي يكون بعدي . فتحولت لكي اجعل قلبي يئأس من كل التعب
الذي تعبت فيه تحت الشمس . لانه ماذا للانسان من كل تعب ومن
اجتهاد قلبه الذي تعب فيه تحت الشمس . لان كل ايامه احزان
وعمله غم . ايضاً بالليل لا يسترى بريح قلبه »

يوكد لنا لورد بيكنسفيلد « ان الشباب غرور ، والرجولية
جهاد ، والشيخوخة حسرات » و « ان فشل الرجولية ملحق لغرور
الشباب » . فيظهر ان الجميع يشعرون بان دور الطفولية هو عهد طهارة
القلب وعهد السعادة وينظرون الى الحياة كأنها تظلم وتمقد روثها

مع مرور ايامها . وكاستيليون يقول « وفي الكبر تسقط ازهار المسرات
من قلوبنا سقوط الاوراق في فصل الخريف » والشاعر هريك يجاريه
بقوله ايضاً

ألا ان احسن عهدٍ نعيش لهدُ حداثتنا الاولُ
واذ نحن نخرج من دوره في شرّ ادوارنا ندخلُ
وفي نظر شاكبير :

ما للشبيبة والكبرُ	ابداً لقاءً او مقرُ
فهي المسرة والهناء	وهو التحسر والكدر
وهي الضحى بغزالةٍ	تبدو يغازلها القمر
وهو المسا بغيومه	والليل فيه اشتدّ قرّ
وهي البسالة في الفتى	وهو الجبانة والخذر
هو أعرج يمشي وهي	ظلي بوادٍ قد طفر
هو داجن فقد الحيا	وهي الغزال اذا نفر

وشاكبير غالباً يفض من قدر الكبر . واني لأتردد في ايراد ما
أنطق به مكبث^(١) القائل :

كبرتُ وغصني اصفرّ اخضر لونه
وأوراقه عما قريب تودّعُ
فلا مجد لا اكرام لا شمل رقيقة
ولا خدم فيهم أطاع وأسمع

(١) بطل احدى روايات شاكبير

ولا عزَّ الا عزُّ فيَّ وانها
لأنفاس مصدور به تتقطع
اهمُّ الى اخادها فتعيني
حشاشة قلب من مماتي تجزع
أما مكبث فانه هو الذي جرَّ شقاءه على نفسه عقاباً وجزاء
وربما كان شاكسبير مخالفاً له في رأيه في الهرم والكبر
وقد لا نستغرب أن نسمع بيرون^(١) يندب ايامه وهو في
السادسة والثلاثين من سنه بقوله :
ألا ان أوراقى تغير لونها
وقد اصبحت صفراء والغصن قد ذوى
ودوح الهوى أزهاره وثماره
لقد سقطت والسوس في عوده ثوى
تمضت ليالى الانس لا عودة لها
وحلت ليالى البؤس ليس لها نوى
وهو نفسه القائل :

تحرث المرء السنين وبهم يُزرعُ
وكذا الموت اللعين حاصدٌ لا يشبعُ
ثم هاك أيات كراي من قصيدته « ذكرى كلية اتون »
أم لها تلك التلا ل'ويا لها تيك الظلال

آه لها تلك الحقو ل' وحبها الماضي خيال
حيث الفتوة عشتها بمسرة وصفاء بال
ولكن يا للأسف ! كم من مسافر في بحر الزمان يسلم دفته للمسرات
ويترك شبابه في مقدمة السفينة فتلاعب به أهواؤه ولا تلاعب
الانواء بالشرع

أما جوبرت فكان يرى ان الطفولية والشيخوخة هما أحسن
ادوار الحياة. فالاول دور البراءة والطهارة ، والثاني دور العقل والحكمة .
وسعادة الاطفال ابداً منوطة بالآخرين ولا سيما بالوالدين . أما سعادة
الكبر فتوقفة علينا لا غير

والصبوة يجب ان تكون ملاءى بالسعادة وخالية من الهموم بل
كلربيع بزهائه ومصادقاً لقوله :

ياربعي بل يا صبوة عامي يا صباي بل ياربعي حياتي
وسعيد هو الولد اذا كان في بيت سائد عليه السلام ، سالماً
آمناً تحت جناح ام حنون وفي ظل والد رؤوف ، خلواً من الهموم
ملائناً صحةً وحياةً ونشاطاً في ربيع عمره ، كل يوم بنشاط جديد
وافكار جديدة . وقليلة هي المسرات التي تفوق المسرة بفكر جديد .
بل ان الولد يكون اوفر سعادة بآماله السامية وغاياته الشريفة وبامتلائه
من حب هذا العالم الجميل الذي يبدأ يتجلى له جماله فيشعر اذ ذاك
بقيمة عطية الحياة وعجائب الوجود واسراره ويأمل أن يعد نفسه
ليجيء شيئاً يذكر في حياته . واسعد من هذا الولد ذاك الشاب

الممتلىء قوة، الناظر الى المصاعب كأنها فرصٌ يقتنمها، والحاسب ما يحل به من الآلام اخطاراتٍ وانذاراتٍ يستفيد منها . وهو اما متنعّم بزواج سعيد او آمل البلوغ الى نعيمه — وهو نعيم يتمناه الجميع لمن يستحقه ويأهل له . أما اسعد اوقات الحياة فقد يكون الشيخوخة . وهو وقت اذا احسن استعماله كان إعطاؤه أكثر من أخذه . ففيه يسعد المرء باولاد محبين له يراهم ينمون ويكبرون حوله . وبعد ان انجز فروضه وفرغ من اشغاله لا قلق ولا اضطراب يضيق صدره . بل حتى بعد الكبرة والشيب و « اصفرار ورقة الحياة » قد لا نعدم اكرام الغير ولا نفقد عاطفة الحب او نخسر ثقة من كان يحبنا اذا كنا اهلاً للجميع ذلك . والشيخ في شيخوخته ما اعظم سعادته بذكره انه خدم ابناء وطنه بشيء وعمل ما يؤول الى تحسين حال اخوانه بني البشر كأنارة ظلمات عقولهم وبعث اشعة السعادة الى قلوبهم

يتعجب الكثيرون من ايعاز الرسول بولس الى المسيحيين بأن يعزّوا بعضهم بعضاً بفكرة الموت وما ذلك الا لانهم تطير نفوسهم شعاعاً من خوفه . مع اننا لا نفتأ نصلي من اجله كل يوم اذ نقول « ليأت ملكوتك » فاقتراب الموت اذاً ليس دليلاً على انتفاء السعادة من عهد الشيخوخة . وان لهذا العهد بركاته الخصوصية يتمتع بها الشيخ اللهم ان لم يكن سبق فحوّلها الى لعنات بمجرد سقطاته وغلطاته اجل لا يسعنا ان نمنع الوقت من تسطير غصون الجبين الا انه في طاقنا أن نمنع الهموم من تدوين سطورها في صفحة الفكر . وما

ضر المرء اذا وضحت تجعدات وجهه وصفحة عقله مستوية لا
تعارض فيها ؟

« يخيل لكل امرء انه يحق له ان يكتب اكتاب هملت^(١) ولو
لم يظهر له خيال يوعز اليه بالاثار لأبيه^(٢) . ألا ان ضحكة واحدة
خير من مائة أنة وزفرة . وفي رواية (كما تريد) لشاكسبير ، يدعي
جاء الكتيب انه أكثر من الاسفار وأوسع من الاختبار وان اختباره
سبب اكداره وجعله كثيراً حزيناً . فيجيبه روزلند « واختبارك صيرك
حزيناً ! ! لعمرك اني لافضل غيباً يسعدني على اختبار يحزنني . وها
انت من اجل الاحزان والاكدار قد ركبت الاسفار ونجشمت
الاعطار ! »

أتى لنا ان نود لو كانت الحياة كلها « سمناً وسكراً » او
« لبناً وعسلاً »

فباعتاب زفس قارورتان ذي خير وذي شر الهوان
فيهما كل قسمة الانسان

فالذي منهما مزيجاً أنالا زفس يلقي خيراً ويلقى وبالا
والذي لا ينال الا من الشر فتنابه الخطوب انتياباً^(٣)
مصائبنا أسرع زوالاً من افراحنا . وكما يقول جوبرت « تفوت
المرء أتراحه كما تفوته افراحه » . و « يا لجهل من يمزج الانات

(١) بطل رواية هملت وهو الذي قتل عمه ايام (٢) غونة . شاعر
الامان (٣) هومبرس . الاياداة — تعريب العلامة سليمان البستاني

والتأوهات بنغات الحياة المطربة ! « فكيف ترانا تقبل نصيبتنا من
الدنيا ؟ أبفرح وشكر ام بذلّ وكمد ؟ . و « باطلة هي الحياة - انما
للباطل فقط ^(١) »

المسرات والآلام متداخلة متواصلة في نسيج الحياة . ولكل
همومه واحزانه . الا ان أغلب الكتاب انكروا كثيراً من البركات
التي ينبغي أن تُشكر لواهبيها

واذا جئنا نقدر الحياة قدرها ونعرف قيمتها كهدية وُهبّت لنا
وجب علينا أولاً ان نسقط من مجموع الاحزان والعذابات والهموم
ما نحن جررناه على انفسنا بأغلاطنا الشخصية كالسكر وسوء الخلق
وغيرها من النقائص . لان هذين وامثالهما سبب تقسم كبير من
انواع الشقاء . ثم ترتّب علينا أن نحسب حساباً للهفوات الممكن
الحذر منها الا اننا تقع في شرورها لقلة حكمة وعلم او لعدم تيقظ .
ولزمنا اذ ذاك ايضاً ان ننزل من نفس المجموع تلك المصائب التي لا
تحل بنا مطلقاً وان نخفف أهمية ما يقع منها ونصبرها بقدر ما كبرناها
عن جرمها الحقيقي . وكذلك أن نطرح البلايا التي ليست الا بركات
متسترة والمصائب الوهمية - وليست هذه بقليلة . واذا عملنا هذه
العملية الحسائية وأحسننا الاسقاط والطرح والتنزيل وجدنا الباقي قليلاً
جداً بالنسبة لما يُخال . وحاشا لي أن أقول ان المصائب الوهمية لا
تؤلمنا ولا تعذبنا فاننا عرضة لها وكم تنال منا ! ولكن اذا اعتقدنا مرة

انها وهمية لا غير نجونا من شر سطوتها واسترحنا من ثقل وطأتها
ظل الانسان اظلم ظل تحت شمس الحياة . وقد يتتابع الظل
والنور (اي الخير والشر في الحياة) تتابعهما في ايام نيسان . وقد
يوجد الاثنان في وقت واحد . وبعض امورنا في هذه الدنيا مستقيمة
بينما البعض الآخر متأود ومعوج . فالفرح والكدر والسعد والهم
والسلام في البيت والخصام خارجه ، او الخصام في البيت والسلام
خارجه ، والصحة والفقر والغنى والعذاب ، تأتينا بأدوارها وأحياناً
جميعها سوية . أما النتيجة فسعادة او بوئس . ذلك حسبما نريد ونختار
فان ندر ظهورنا للبركات ولا نضع الا المصائب نصب عيوننا أشقينا
أنفسنا لا محالة . وبالعكس اذا نظرنا الى الشمس وتركنا ظل المصائب
خلف ظهورنا ألفينا البركات تربو على اللعنات وعلمنا ان كثيراً من
مصائبنا ليس الا خيراً مستتراً او تجربة وامتحاناً او اخطاراً وانذاراً
او معارك نفوز فيها فنبلس اكاليل النصر . « وما من احق سعيد ولا
حكيم غير سعيد (١) »

وقد قيل ان الايرلندي لا يعرف السلام الا محارباً والاسكتلندي
لا يشعر انه في بيته الا وهو غائب عنه والانكليزي لا يكون سعيداً
الا اذا كان مدمماً متدمراً . الا ان هذه الخلة لا يتصف به
الانكليزي وحده

كثير من الناس يصعب ارضائهم واعجابهم . فقد قال ابيكتاس

« لا يعجبني الخلو فإنه صحراء ولا الاحتشاد فإنه ضوضاء . الا انه دلّ على حكمة فائقة اذ قال « لا تتطلب صيرورة الاشياء كما ترضى بل ارض بكونها كما هي ، تعش عيشة هادئة ومطمئنة . واذا كانت جميع المسرات لا تخلو من خسارة تتلوها ، فهكذا اغلب النكود قلما تخلو من خير يأتي جزاء احتمالها . والولولة من المصيبة لا تزيلها . أما احتمالها بعزة نفس وشجاعة اديبة فقد يحولها الى بركة . فخذ الخلو واترك المرء من كل شيء »

من الحكمة ان نسلك في الحياة مسلك الرزانة والحذر والحسبان بدون أن نحسبها مرسحاً للتقادير وطوارق الحداث . وكثير بل القسم الاكبر من مصائبنا منا وعلينا . أما البركات فهي مُهداة اليها . « وأي شيء لك لم تأخذه ، وان كنت قد اخذته فلماذا تفتخر كانك لم تأخذه ^(١) »

نعم ! ان جدينا آدم وحواء قد طردا من الفردوس . ولكن لا مانع يمنعنا من العودة اليه وبناء بيوتنا على نعيمه وقد قال تراهرن « ان النجوم اليوم لجميلة مثلما كانت في ايام جنة عدن وكذلك الشمس بلمعانها والبحر بصفائه . وما ملأ الدنيا شقاءً وخرّب نظامها وقضى على جمالها وسلامها الا الخطايا والذائل . فالزور والبهتان والحسد والترف والطمع وحب الفخر — هذه ملأت العالم شوكاً وفتاداً وأوجدت الضغائن والتشكيات والحروب والدمار »

واني لا كرر واعيد ان النحس قد يكون سعداً متخفياً . فخرمان
المرء حرية مثلاً قد يعد مصيبة كبيرة . ولكن كم من الكتب العظيمة
كتبت في اعماق السجون ! وقد قالت مدام دي ستال وهي في
حبس الباستيل : « نعم ! طالما انا في الحبس لا اعمل بارادتي - ولكن
— ولا بارادة غيري . فكافي استعدت نصف ما فقدت »

واكرر واعيد ايضاً ان كثيراً من مصائبنا وهي لا حقيقة له .
واغلبنا تذكر عدة احوال اشقينا انفسنا فيها توقعاً لنتائج لم تحصل
وخوفاً من اخطار لم تقع فيها . . ولنسمع الكولونل كودون اذ يقول :
« لقد طعنت في السن وصرت كهلاً وقد اتفق لي مصائب كثيرة
واغلبها لم يحدث مطلقاً » . وكثيرون يثأثون مصائبهم فيتركون
الواحدة ثلاثاً بتحديثهم فيها والتفاتهم الى ما وراءها وامامها
من جملة ما نكره ونخاف شبح الموت الهائل . ولكن اذا فقدنا
عزيزاً او حبيباً أفلا نجد بعض التعزية في القول مع مسز سيجورني :
« انه الآن آمن لدى قوي لا خطيئة بقربه ولا ألم ولا ممت » ؟
ومدار الكلام الآن ليس على خسارة الاهل والاصدقاء بل على فقد
حياتنا وخسارتها . وهو بديهي انه اذا كانت الحياة شقاء فالموت خير
ارتياح من ذلك الشقاء . وبعبارة اخرى اذا كان الموت ضربة
فالحياة بركة . والحياة ليست بركة دائماً ، الا انها غالباً كذلك . اللهم
ان لم ناعنها بافواهنا وتلفها بايدينا
وغالباً ما نبخس البركة بعض قدرها او ننكر وجودها بالكلية حتى

إذا فقدناها بكيناها - كقوله :

قد تكون الكنوز عندي كثاراً
فإذا بُدِّدت عرفت لها قد
ان جهل الفتى لما في يديه
ان الطبيعة للكرامة و . . .

للحكيم العاقل المعتبر
فهو في عين السما ان ينظر
وكما يقول الرسول بولس : « ليس اني اقول من جهة احتياج
فاني قد تعلمت ان اكون مكتفياً بما انا فيه » وعدم الاشتياء خير من
الشبع . والدنيا مهما أعطت فانها لا تسعد انساناً . فماريا ترازو قرينة
الملك لويس الرابع عشر قالت على فراش موتها « هذا هو يوم
حياتي السعيد »

إذا ما عملت جهدك فصبراً ورجاء . ولا تكن عجولاً ولا قلقاً .
ان ذلك لا يجديك نفعا . واذكر الآية الواردة في المزامير « ايضاً
كت فتى وقد شخت ولم أرَ صديقاً تُخَلِّي عنه ولا ذرية له
تلمس خبزاً »

« ومن كان فقيراً وقنوعاً فحسبه غني »^(١) ويقول بولس الرسول
« فان كان لنا قوت وكسوة فلنكتفِ بهما »
وبالحقيقة ما أقل ما نحتاج اليه حق الاحتياج . « والاسكندر

(١) كوبر (٢) شاكبير (٣) شاكبير

عاش بعظمته وجلاله الى ان رأى اخيراً صعلوكاً في (برميل) لم
يستطع ان يسلبه شيئاً ولا أن يزيده شيئاً ^(١) »

وقليلون هم الذين تعوزهم ضروريات الحياة كالخبز والماء واللحم
والفاكهة او المبيت ليهتموا لها . ولكن الناس شديداً يلهوون بالاهتمام بكاليات
الحياة بل قل - زوائدها - كإقتناء المركبات والخيول وخرن الذهب
والحجارة الثمينة فيشققون من اجل البذخ والترف ويكونون ويكدحون
وينتسبون في طلبها مع انهم قد يكونون احسن حالاً بدونها
لا شك ان التوفير حكمة عظيمة . وحسن بنا أن نجتمع حساباً
لايام العجز ولاجل من يبقى بعدنا . ولكنه أهم واجدر بنا ان نملا
الخزائن من سلام الفكر والتذكارات المسرة . والسرور والسلام قلما
يفترقان . اعتبر ذلك بمآل هذه القصة

سألوه أين يا هذا الولد	رفقة تلعب معهم أحد ؟
قال يا قوم (سرور) صاحبي	(وسلام) اخته فخر البلد
فهو يأتيني وتأتي معه	ونمضي الوقت في هزل وجد
و (سلام) بي شديد حبها	و (سرور) حبه عندي أشد

.....

كبر الطفل وامسى هزماً	واعتلى جبهته لون الكمد
ثم عادوا سألوه عنهما	فاجاب الشيخ لا يشكوتك
أي سروري مات اوراح الى	حيث لا ادري ولما لم يعد

قلت قومي يا (سلام) ها يدي وهبيني يا عروسي منك يد
وتزوجنا وهذا ولدك وسرور اسمك هذا الولد
« لا تدع السويداء تعلق بشغاف قلبك ^(١) » حاربها بقوة .
واذا عاجلت اخراجها فبالكف عن التفكير والهجس . ولا خير في
محاولة الهرب من المصاعب فانها تتأثرنا وتدركننا . فلنقف لها وقفة
الباسل الجسور نلّفها اضمحلت من تلقاء ذاتها

الفصل السادس

الدهر

صروف الحياة وتقلباتها — المصائب لا بد منها — أنواع المصائب : انذارية
تجارب . وهمية أو طفيفة . مصائب يخلقها المرء لنفسه . عقابات . بركات في غير
زيبا . الامل — الشجاعة الادية

عجيبة هي الحياة في تركيبها ، ومتقلبة متغيرة في وجوها وابدأ
قابلة لتأثير الطوارئ الخارجية، بحيث لا يتسنى لنا ان نسلم من صروفها
وننجو من مصائبها . وكقول الشاعر الاميركي :

وهل من قطع عاهدته ذئابها وعائلة ما حلَّ فيها مصابها
هنالك حملانٌ مضرَّجةٌ دماً وهذي بيوتٌ ليس يفتح بابها

والمصائب نوعان ، حقيقية وظاهرية . والاخيرة منها يمكن
تنويعها كما يأتي : (١) انذارية (٢) تجارب (٣) وهمية او طفيفة
(٤) مصائب يجرها المرء على نفسه (٥) عقابات (٦) بركات في
غير زيبا

— الانذارية —

الالم غالباً ما يكون اما عقاباً او انذاراً وخطاراً . ولولاه لكنا
نموت صفاراً . ولكن يتمزق لحمنا او يحترق او يُتلف بسبب من

الاسباب . . . فهو الذي يدعوننا الى الحذر ويجبرنا على معالجة اسبابه
وازالتها . وكذلك في ضروب التجارة كثيراً ما يستفيد التاجر من
الخسائر الزهيدة حكمةً وتدبيراً ينفعانه في مستقبل تجارتهم

— التجارب والفرص —

بعض المصائب ليس الا تجربة نبلى بها او فرصة تسنح لنا .
والمصائب التي يحسبها الجاهل بلأيا عليه قد يقتنها العاقل فرصاً
ثمينة له

مصائب دهرك تحلو وتنفع وهن ببحر الزمان كضفدع
قبيح مسم على رأسه كمثل الجواهر ما راح يسطع
ونحن اذا ما عقلنا رأينا حقائق توجد في كل موضع
ففي الغصن نطق وفي النهر كتب وفي الصخر وعظ لمن يتسمع^(١)
اما الغنى والقوة فتجربتان مهلكتان . وبعض ملوك الرومان لو
لم يُبلوا باموال لا تحصى وقوة لا تحصى ربما كانوا من انفع الابداء
لوطنهم وعاشوا غير تلك العيشة المكروهة وماتوا غير ميتاتهم الشنيعة .
« والمصائب تولد الرجال والحظ يخلق الوحوش »^(٢)

ومن جملة منافع المصائب انها تجي « امتحاناً للصدقة » .
والمثل الفرنسي يقول « يكثر السعد اصدقاءنا فيأتي النحس
ويعتصمنا لنا » . والشدة تجمع الاصدقاء الحقيقيين وتحكمهم حكماً
فينجلي لنا جوهر كل منهم ونميز خالصهم من مشوبهم وغشهم من

(١) شاكسبير (٢) مثل افرنسي

سمينهم . بل اذا المَّت الشدة بشعب جمعت شتاته وألفت بين متفرقاته
كلما اشتد الظلام ازداد لمعان الشمس . والغيوم تنير الجلد
وضباب المدائن ودخانها تظلم النهار وتسود الدنيا في عيون من
يجهلون كيف يُجتلى السناء من السماء ، وتزيد غروب الشمس بهجة
وبهاء لمن لهم عيون ويبصرون

لما ابتغى ابليس اهلاك ايوب بادر الى حرمانه اولاده وامواله .
كان لايوب بنون وبنات وسبعة آلاف رأس غنم وثلاثة آلاف جمل
والف ثور من البقر وخمسمائة حمارة وكان عنده حاشية واهل منزل .
فسلبه جميع ما ملكت يمينه . ولكنه تصبر وتجلد وثبت لدى التجربة
« فقام ايوب ومزق جبته وجزَّ شعر رأسه وخرَّ على الارض وسجد
وقال : « عرياناً خرجت من بطن امي وعرياناً اعود الى هناك . الرب
اعطى والرب اخذ . فليكن اسم الرب مباركاً . في كل هذا لم يخطئ
ايوب ولم ينسب لله جهالة » . ثم انه رُدَّ اليه ماله وغناه وعاد الى ما
كان عليه ويظهر انه قاوم هذه التجربة ايضاً وان يكن ذلك غير
مذكور في الكتاب . وتجربة الغنى يغلب ان تكون اشد خطراً من
تجربة الفقر

وليس علمنا علماً يجدر باهله ان يأسوا ويادروا الى جعل الخيبة
نصب عيونهم . والاستاذ هكسلي مثلاً يُعدّ بين خطبائنا الكبار ومن
أشهرهم . الا انه في بدء امره كان مبتلى بكل عيوب الخطيب . فبعد
اول خطبة القاها دفع اليه كتاب بدون امضاء يُنصح فيه ألا يعود

الى الخطابة ثانية فانه لا يصلح لها رغماً عن صلاحيته لغير مواقف .
وبعد ذلك اتفق انه خطب في موضوع « علاقة الحيوان والنبات »
فلمه سامعوه لدرجة ان ودُّوا الا يُدعى للتكلم فيهم مرة اخرى .
وهو من فمه قال لي انه استمر لمدة طويلة يرتجف حالما يأخذ باللقاء
وان الارتجاف كان يفارقه شيئاً فشيئاً مع توغله في الموضوع .
ودررائلي نفسه لم تكن خطبته الاولى في مجلس الامة الا محض خيبة
وفشل

— الوهمية او الطفيفة —

بعض المصائب وهمية او طفيفة لا أهمية لها . على انك انكى
المصائب هي التي نبلى بهمها ولا تقع بنا مطلقاً . وكم من مرة نشقى
أنفسنا ونتمسها من اجل امور عديمة الالهية

ولماذا ترى اضطراب البال ودموع تسح مثل السلالي
حرت في الامر حيرة جئت منها اسأل الخلق ان يجيئوا سوالي
لم بكاتا وما فقدنا حبيباً او خسرنا دنيا وطائل مال
أفهدنا من كثرة الايغال في التقصي والهدر في الاقوال؟^(١)
وهو من الغباوة ان يربو الحزن على السبب ويزيد عنه . وكأني
بالناس يلحقون ما يخافون ويشقون خوفاً من ان يشقوا^(٢)

أن يحرم المرء السعادة يُتَعَس لعمر كبل ان حقها منه تبخس
سعادته تأتيه تُدعى « قناعة » لتأس منه بابتسامة مؤنس

(١) - مز برون (٢) ليوناردو دي فينسي

فينكرها حتى تعود لاهلها وتتركه كأس الشقاوة يحتسي
فكم طمع في صدره قلم حاجباً وان أقبلت في وجهها الحلوي عبس
فيبلى من الارياح في كل زعزع وما بعد يلفى ساعة غير متمس
الخوف من الخطر قد يولد له . وكم من رجل « جرب ان
يهرب من الموت فوقع فيه ^(١) »

نصف الذي في القلب من حرقات من غيرنا اذكي له الجرات ^(٢)
وكثيراً ما نجمع الشقاء بطرح السعادة . والامر مألوف قليل الكلفة
كثير السهولة

لما ذهب نعمان الى الشبع ليشفيه من برصه وقيل له ان يذهب
ويغتسل في الاردن سبع مرات « غضب (نعمان) ومضى وقال :
« هوذا قلت انه يخرج اليّ ويقف ويدعو باسم الرب الاله ويردد
يده فوق الموضع فيشفى البرص . أليس ابانة وفرفر احسن من جميع
مياه اسرائيل ؟ أما كنت اغتسل بهما فأطهر . ورجع ومضى بغيطر »

— المصائب التي يخلقها المرء لنفسه —

كثير من مصائبنا ما نحن نخلقها لانفسنا . « وربّ خوف من
مكروه يلقينا في شر منه ^(٣) »

وروسو كان يزعم هذا الزعم ايضاً . « وربما طلبنا بركة وهمية
فحملنا النفس الف لعنة حقيقية ^(٤) » . واحزان الحياة وهمومها قد

(١) بلر (٢) يروكتر (٣) بوالو (٤) كتاب الاقتداء بالمسيح

نبلى بها ولكن نادراً . اما عذابنا الدائم فهو نتيجة القلق والوسواس
وقلة الصبر وكثرة الهوس

ولنذكر اننا لا نوجد في هذا العالم لكي نتمتع ولنلذ فقط . وتوماس
اكبس ينبها الى الواجب الكبير بقوله :

ما وُجدنا فيها لعرشٍ مؤبّد بل لكي نخدم السوى نحن نوجد
وكثيراً ما نأبى احتمال صغيرات المصائب فتعظم علينا بسبب
ذلك الإباء . « أو لم يكتب ديكاركوس قديماً مقالةً جمع فيها الاسباب
المختلفة التي أفنت القبائل من أمثال الطوفانات والأوبئة والغزوات
وهجمات بعض الحشرات المسّمة القتالة . الا انه عاد فأحصى ووجد
ان الناس بحروبهم ومظالمهم اذرع فتكاً بالناس من سائر الشدائد؟^(١) »
والطريقة الاخرى التي تزيد فيها الحياة مشاغب ومتاعب هي
تحرّشنا وتداخلنا في ما ليس من شأننا ولا يعنيننا . واحد هم كان يقول
ان السواد الاعظم من الذين لم تربح تجارتهم هم جمهور الذين يتخلون
عن شؤنهم الخصوصية ولا يستطيعون ان يلزموا جانب السكون
الى واجباتهم الاصلية

وقد قال توماس اكبس « اذا استطعت ان تترك الناس وشأنهم
تركوك وشأنك وكنت حراً »

— العقابات —

المصائب الناتجة عن اغلاطنا او الآتية عقاباً على خطايانا يمكن

ادخلها في باب المصائب التي تولدها في احضاننا ولا يحق لنا لذلك التذمر منها . ليس الفقر ولا المرض ولا العذاب ما يُعدم الحياة سعادتها بل الكبرياء والطمع وحب الذات والخطيئة ما يفعل ذلك - البركات في غير زيتها -

واخيراً جملة من المصائب الموهومة ليست الا بركات في غير زيتها . والحزن مثلاً اذا احتملناه بشدة وثبات رفع هممتنا وزادنا فخراً فهو كبرد الشتاء وثلجته للذين يشدان العزم ويقويان البنية «رخاء العيش بركة» العهد القديم «والشدائد بركة» العهد الجديد^(١) «ولا يندحر من وجه الشدة الا من سبق فخائمه رخاؤه»^(٢) . وقد يجلد سطح نهر الحياة احياناً الا ان مجراه يستمر في سبيله تدفقاً وترققاً . والرخاء اهلك من الناس اكثر مما اهلكت الشدة والله سبحانه تعالى

بِمَسْكِ الْمَطْلُوبِ عِنَّا رَحْمَةً حيث قد يودي بنا مطلوبنا^(٣) فاذا كنا لا نصلي مكررين هذه الكلمات : اعطنا اللهم ما يوئول الى خيرنا - فلتكن روحها فينا كلما طلبنا شيئاً

قال لوتسي الفيلسوف الصيني القديم «الرياح العاصفة لا تدوم كل الصباح . وشوئبوب المطر لا يستمر طول النهار . ومن يحرك الرياح ويسقط الامطار ؟ اغير السماء والارض ؟ واذا كانت السماء والارض تعجزان عن اطالة مدة هبوب الرياح وهطل الامطار اكثر

(١) يابكون (٢) سينكا (٣) مور

مما هي ، فما عسى الانسان ان يستطيع من ذلك ؟ « فاليأس لا يحسن
بنا في حال من الاحوال

وليصر مهما يصر من مسي ومسر
اي حال لم يحل اي وقت لم يسر^(١)
واذا كان وجه الامر عبوساً لا نور فيه ولا رجاء فللمرء ان
يعزي نفسه بتأمل قوله

(رماني الدهر بالارزاء حتى فوادي في غشاء من نبال)
(فصرت اذا اصابني سهام تكسرت النصال على النصال^(٢))
قل جرمي تايلر « الرجاء والصيام هما جناحا الصلاة اللذان
يطيران بها الى عرشه السماوي . أما الصيام فجنح طائر . واما الرجاء
فجنح ملاك . والصلاة محال بدون الرجاء وبه تصير معقولة ملوؤها
حرارة وتقوى لان الامر منوط بوعده الله وعنايته . وصلاتنا تكون
حارة وصادقة بالنسبة للرجاء والامل اللذين يصحبانها »
لا ريب ان الثقة الزائدة والتطوُّح بالآمال ليسا من الحكمة
على شيء

(قلل الآمال في الدنيا تفز فدليل العقل تقليل الامل^(٣))
وفي التجارة خصوصاً كم تجسم خسائر المضارب بقدر ما تشوط
به آماله . وهكذا الميزان لا بد له من كفتين راجحة وناقصة . وكم من
يفضل الفقر مع امل الاغتناء يوماً ما على الغنى مع خوف الافتقار في

(١) شاكبير (٢) بلر — والبيتان للمعنى (٣) ابن الوردي

الغد . على انه اذا كانت شدة الامل تؤدي الى الخسارة غالباً
فالخشية والخوف قد يتهيان بها ايضاً . فالحسارة والاقدام موقوف
والخشية والحذر آخر . والحكمة كل الحكمة في معرفة اي الموقفين
موقفنا . ومتى كنا على غير اليقين من امرنا كان الاحجام افضل لنا
من الاقدام . لانه اذا اقدمنا وفعلنا شيئاً ربما استحال علينا بعد ذلك
ان نعيده الى حيز التردد بعد ما دخل في حيز الحدوث

كثيراً ما نحسب الحظ أعمى ، والحقيقة انما نحن العميان .
ولأن أبصارنا مغطاة فلا تجتلي أنوار نجمه لذلك نظنه أعمى ، ونلقي
ستاراً على العناية العلوية ايضاً ^(١) « وعلى كل حال اذا قلنا ان الحظ
أعمى فهل نفينا وجوده ؟ الا انه » يجب ان نحكم الحظ وتدبره كما
نحكم الصحة وتدبر امورها . فاننا نتمتع بوجودها ونصبر على فقدها
وندخر منها في آياتها ما يقينا شر السقام مدة هجرانها ^(٢) . على
ان الحظ الحسن اصعب مراساً من السيئ . لان نكد الطالع اذا حل
بنكباته فواحدة هي الفضيلة اللازمة — الا وهي الصبر . على ان
السعد اذا أتى برخائه فقد يؤدي بمن يأتيه ، اللهم ان لم يكن عنده من
أمثال التعقل والحذر والاعتدال — وعدم حب الذات والاحسان
فضائل عديدة

والتقاء النكبات والبلايا يجب أن يكون بروح كالروح التي اظهرها
ملتون بعد ما فقد بصره ومال الى اليأس اذ قال

— (١) ريليجيو مدبسي (٢) روشفوكولد

لئن بت أعمى فلا أبصرُ فلست برب السما اكفر
ولست لأفقد كل الرجاء ولا القلب يفقد ما يقطر
انا كالسفينة من ذا الزمان — خضم ولست أني أنخر
« لان الذي يحبه الرب يؤدبه . وكأب بابن يسر به »

وحتى ولو لم يكن الأمر كذلك فمن الواجب علينا ان نعرف للشدائد
قدراً . فان احتمال العذاب نصرٌ وكل نصر عزٌّ وفخر

اذا ما حسبت القتاد الخطر وقلت السلامة زهر عطر
وطلت الازاهر رغم القتاد سليماً فانعم بنيل الوطر
واذا ذكرنا أيوب وصبره قلنا مع القائل :

اياك واليأس لا تذهب مذاهبه اما الرجاء فعش ما عشت طالبه
والليل مهما دجى واشتد حاله فالبث فأخره صبح تعاقبه ^(١)
وربما احتوت البلايا نفعاً عاماً تظهره الأيام وان كان لا يشعر
به المرء في حينه . فالطوفان يزيد الأرض خصباً وفيضان البراكين كم
أغنى الأرض تربة . وحريقة لندرا لم تكن عليها وبالاً محضاً . واعتبر
ذلك ايضاً بخراب بومباي . ومدينة انها حفظت تماماً . وغوته ^(٢) قال
فيها « نكبات الزمان كثيرة ولكن ليس بينهن واحدة عادت على
الخلق بما عادت به هذه النكبة . ولا اخالي أعرف لذة تفوق لذة
تأمل هذه الخرابات والبقايا » وهو القائل في موضع آخر « قد تنزل
بالمرء شدائد عمومية او شخصية فتسحقه ولا سحق النورج للسنايل اما

طريل (١) الاقدار فاذا سقط على حزم السنايل المملأى سحق قشها
سحقاً وما مسَّ جوبها بضرر فانتثرت هذه تطفر فوق الأرض كأنها
ترقص جذلاً . فلا تبالي إلى التلم مصيرها فتجدد حياتها ام الى
الطاحونة فتقوم بحياة زارعها

ان الشدائد كالنار تطهر الانسان وتمحس معدنه وتفرق بين
تبره وترا به

« فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس .
فان هذه كلها تطلبها الامم . لان اباكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى
هذه كلها . لكن اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم
فلا تهتموا للغد . لان الغد يهتم بما لنفسه . يكفي اليوم شره (٢)

(١) الطريل آلة تدق بها السنايل (٢) متى

الفصل السابع

المعروف

التسامح مع الصغار والمرضى والموتى — لماذا لا نتسامح مع الجميع ؟ —
نقائضنا تضر بنا أكثر من نقائص الغير — الاحسان : الجود بالدرهم والجود
بالنصائح — العناية وتعالجها — الصلاة — غريغوريوس وتراجان — الصفح
والغفران — تعزيز الشكوى — البيت

اننا لا ننسئ من الاطفال بل نتسامح معهم ومع المرضى اذا
أساءوا الينا ونسلم بصحة المثل اللاتيني القائل : « واذكروا الموتى
بالخير » فلماذا لا نوسّع دائرة هذا المبدأ ليشمل المومى اليهم وسواهم
ايضاً ؟ فانتنا نرى الفعال ونخفانا التجارب التي قاومها المسيئون قبل
وقوع الاساءة . وقد قالت مدام دي ستايل ما يقابله : (لا تلم الغائب
الأ بعد حضوره ، ومتى عرف السبب بطل العجب)

وسينكا يقول : « يجب علينا ان نتحل اعذاراً للجميع —
فلأولاد لانهم صغار ، وللنساء لانهن ضعيفات ، وللحكام لان مهامهم
عظيمة فلا بد لهم من الخطاء ، وللصالحين لانهم لا يقصدون الاساءة
وللأشرار لانهم يستحقون الشفقة اذ الشقاء مستقبلهم »
سئل ثايلس عن اصعب الاشياء واسهلها فعلاً فاجاب : ان

اصعبها معرفة الانسان نفسه واسهلها انتقاد الآخرين
والاجدر بكل انسان ان يهتم بواجباته بقطع النظر عما يجب على
سواه ، وان يكون متساهلاً وحليماً مع الجميع الا نفسه . واعلم ان
التنويه بحسنات الاعداء خير من التنديد بسيئات الاصدقاء .

اذا كنت تعجز عن ان تصيرَ كما قد اردتَ بعزم وطيد
فكيف تؤمل ان سواك يجيئك طبقاً لما قد تريد
فجار تجارَ وساعدُ تُساعدُ صواب وحق ورأي سديد^(١)

ولكم تشكى وتذمر من نقائص الناس . اما النقائص التي فينا
فتجر العذاب علينا ولا نفتأ نحرص عليها . بل قد نحتمل التوبيخ
والاحتقار وتكبد العقاب من أجلها ، ونغمر بالنفس ، وتحمل الخسائر
من جرأتها ، كل ذلك ولا نمسها بتكميل

فمن أجل راحة الفكر وسلامه ، ان لم يكن لقصد اسمي ، الاولى
بنا الانسي ، ظناً وان ننظر الى معائب الغير وهفواتهم نظر الحلم
والاحسان ونطوي كشحاً على اقوالهم وافعالهم حاسبين لاحوالهم
الشخصية حساباً تصغر معه سيئاتهم وتكبر حسناتهم . واذ نحن غير
كاملين فكيف يسوغ لنا ان نتطلب الكمال من سوانا ؟ والغضب
لنقائص الغير ومستغرباتهم كالغضب على العواصف والزوابع . وما
عسانا ان نستطيع اذا غضبنا على الجو وتقلباته ؟ بل اذا غضبنا على
الناس فقد نترك احوالهم اسوأ وارداً . واذ كر ان ايذاء الغير ألم واضر

من احتمال الاذى . وكـم نحاول ردّ أذية ودفع اهانة (وربما كاتسا
وهيتين فقط) فنبداً خصاماً كنا في غنى عنه . وربما كان من حولنا
من مهد لنا سبيل اعتماد الاذية على انه في الغالب نحن موضع التخطئة
والملامة . والأفتجربة وجبت مقاومتها ومعركة أدبية نحسن البلاء فيها
على أمل العودة بالنصر فخراً وكسب الصديق غنيمة

ومن لا يشعر مع غيره كان غير مستحق لشعور غيره معه . واذا
كان قلبك بارداً نحو الآخرين فربما كانت قلوبهم ايضاً باردة من
نحوك . وان لم تكن ، فعلى كل حال ليست محبتهم لتنير حياتك وانت
غير مستحق لذلك . وليست لتضرم حرارة فؤادك بل لربما جمعت جمرأ
وناراً على رأسك . ومن اقام حول نفسه سياجاً فقد منع عنها اكثر مما
منع عن سواها . واذا كنا لا نحب الآخرين فلا سبيل لمحبتهم
الينا . واذا كنا لا نستطيع المحبة فاني لنا ان نعرف لها قيمة وقدرأ ؟
وان كنا لا نستحقها فلن نتمتع ببركاتنا بل تبقى قلوبنا باردة كالجليد
وكالجليد تذوب الا انها لا تعرف الحرارة . واذا كان في « انا »
« نون » واحدة فان في نحن « نونين » . ومن ثم اذا حسبنا النون
من النور كانت « نحن » اكثر نورأ . والاهتمام بـ « انا » حب ذات
وذل حياة اما الاهتمام بـ « نحن » فغيرية وعيش اوسع واشرف

وليس هذا واجباً من الواجبات فقط بل انه من أصدق مسرات
الحياة واطهرها . ولكن قبلما يمكننا ان نساعد الناس يجب ان نعرف
الناس وان نحب الناس . ودافع عمل الخير ربما أحدث ضرراً اذا

جری فی غیر سبیل الحکمة . وقد يستحيل ان تأتي شيئاً من النفع
بمجرد حسن النية أي بدون الحکمة المبنية على المعرفة والاختبار
اما الفقراء المتسولون المتكاثرون على حسنات الغير وصدقاتهم
فالاولی ان يمنحوا استقلالاً لا مالاً يزين لهم الاعتماد على الغير في
معيشتهم . ولا شك ان سد حاجة المعوز حسنة من الحسنات اما
تحسين خلقه فحسنة هي كل الحسنات . والصدقات الواقعة في غير
محلها قد تعدّ ظلماً وقساوة . وان الطبيعة لقسطاس العدل واذا أدبت
المرء بالفقر فلکی تعلمه كيف يجب النظر في الأمور . والاحسان اعمی
اکثر منه أصم . والله درّ المحسن القائل :

جدت للسائل يوماً بقليل الذهب
من يسير المال مما حزنه في تعبي
فمضى ثم أتاني ودنا من رُكبي
عارياً يرجف برداً مائتاً من سغب

...

جدت للسائل يوماً بكلام ذهبي
فاغتدا منه كبير النّفـس حراً وأبي
لم يعد لي بعد حين صديقاً لم يشرب
جانحاً ما ذاق شيئاً شاكياً من وصَب

...

فليكُ الاحسان نصحاً لفقير بل غبي

فلاحسان اذاً من المسائل العظمى . ومجرد الجود والإعطاء .
سهل جداً ، اما التكرم على السائل بذات الجيب بدون سلبه « ذات
النفس » أي اعتبارها والاعتماد عليها فاصعب من صعب . فكما قال
بأيكون : « لتكن غايتنا مع المعوز لا سدَّ حاجته فقط بل مساعدته على
الاستقلال فيسدَّ حاجاته بنفسه » . واذا كنا نزيد حالة العجزة
الملتجئين الى ما وبي الشفقة عسراً وضنكاً فكأننا نزيد طينتهم بلة
وسبيلهم معائراً . الا انه لا حد للاحسان . او كما يقول لوف فلو :
« العقل محدود اما العواطف فلا . وما اشبهها بيثر حية يُستقى منها
ولا تنشف »

فضلاً عن ذلك ان لكل منا مقداراً معيناً من المال لينفق منه
وما تصدَّقت به على غير مستحق فقد خرج من يدك فكيف تجود
به لسواه اذا عرفته مستحقاً ؟ وكذلك اذا فتحت باب العمل للطالح
قد أوصدته في وجه الصالح . واذا جدت بنقودك للسكير فكأنك
تزيد شر السكر انتشاراً . ومن هذا القبيل يا للفرق الكائن بين الدراهم
وعواطف الخنو ومشاطرة الغير احساسهم ! فان هذه لا تقف عند
حد مطلقاً — وكأنها لعنة الارملة ...

وليس من الحكمة ولا من العدل ان يحمل المحسن القيام على ماله
حمل المسرف المبذر . لان ذلك يفقر الاول ولا يجدي الثاني
نفعاً . وقد صدق سبينوزا بقوله : « اذا كنا نحب التقدم والخطو
الى الامام . فلتجاهل العلاقة التي أوجدتها العناية بين السلوك ونتائج »

وصحيح انه لا يجوز « الامتناع عن الاحسان خوفاً من الجحود
والنكران . لأن الله جعل الثواب من خصائصه وحده » ولكن
الخوف الحقيقي ليس من الجحود وعدم الاقرار بالمعروف بل من
الأذى الذي قد يلحق بمن نحسن اليه

لا ننسَ ضعف الطبيعة البشرية وسهولة التمادي في الكسل
والخمول . ولا ابسر من جعل المعدمين أشد حاجة الى المساعدة .
أما مساعدتهم لكي يساعدوا ذواتهم فليست من الهنات الهينات .
ولكن اذا كانت الصدقات عرضة للشك في كونها رفقا ورحمة فالاحسان
بمعناه الحقيقي لا يستهدف لمثل هذه الشكوك . وقد يكون بذل الدراهم
ضرراً وخطيئة اما مد يد المساعدة وتكريس الوقت للخدمة وتمحيض
النصح والحلم والحنو فليست كذلك . واذا كنا نخطئ أحياناً بيدنا
ما يطلب منا فلا خطأ في تركنا ما يطلب لنا او نسيانه بالكافية

من جملة اقوال الملك « الفرد العظيم » : « عزّوا المساكين
واحمو الضعفاء وذودوا عنهم وبكل قوى يمينكم أصالحوا الفاسد .
حتى اذا فعلتم احبكم الله وكان لكم اكبر جزاء » . ومن جهة أخرى
نرى ان حب الذات هو نبع الشقاء الاكبر ولولاه لكانت همومنا
اقل من القليل . فاذا كنا نهتم بالغير وبمصائبهم فغالباً ما يؤول ذلك
الى سلواننا ومصائبنا ونسيانها ونعم النسيان

اذا كانت العواطف لا تتجلى للعيان بالاعمال التي تدل عليها
فقد يستفيد منها صاحبها اما الحبيب فلا . فهي بالنظر اليه كأنها غير

موجودة أصلاً . أما اذا أظهرت وتجلت فما أجملها وما اكبر قيمتها !
فما أعظم ديننا لامهاتنا بالنسبة لاعتنائهن بنا وتأثيرهن علينا وحبهن
لنا — واني أقول هذا وكلي محبة وعرفان — . وقيل سئل مرة سر
بنجمن وست رئيس المجمع العلمي الأمير عمار صيره مصوراً عظيماً
فأجاب : « قبله من أمي »

وقد قيل ان الرسّام روبرنس حول صورة « ضحك الولد » الى
صورة « بكاء الولد » بحركة واحدة من ريشته . انما لا يتحتم ان
يكون المرء رسّاماً أو مصوراً ماهراً لكيما يستطيع مثل هذا التحويل
فاللسان قد يفعل فعل ريشة الرسّام وأكثر . والناس لم يخلقوا من
الحجر الصلد ولكنهم كم يتصرفون حتى كان قلوبهم قدت من
الصوان . ويا لها من محمّدة اذا كنا

نداوي سقم نفس جل أمره وننسي ذا كراماً ما ساء ذكره
ونمحي للشقا في العقل سطرّاً اذا في صفحته خط سطره
وقلباً دسّ فيه الهمّ سماً نذيق حلاوة فيقل مرّه (١)
وكلنا نستطيع ان نساعد الغير ولو بالصلاة . ولا يستخفن
بتأثيرها . فقد روي ان صلوات البابا غريغوريوس العظيم نجت
الامبراطور تراجان من عذاب الجحيم ، الا ان ذلك البابا حُظر
عليه ان يعود الى مثل ذلك ثانية . . . وعلى كل حال ينبغي للقوي
ان يذود عن الضعيف . وكقول الشاعر

تبسم للضعيفة واعتبرها . وكن عن عيها ابداء عمياً ^(١)
تكلم جوبرت عن رقة الطبع فقال « هي التساهل » ولأن
نحب خير من ان نحب . واللفظ افعل من القسوة ولا سيما مع
الاطفال

لا تنتظر من الناس فوق طاقتهم . واذا كررنا كثيراً ما نحب
انفسنا فلا عجب ان خابت آمالنا في الآخرين
قل سقراط مخاطباً جورجياس وكليكلس : « فحسنا تعاليمكما
فكانت ناقصة . ولم يجتز الامتحان ويسلم من الامتحان الا واحد منها
فقط وهو — الأولى ان نكون اشد حذراً من الاساءة الى الناس
منا من اساءتهم الينا . وان اهم اعمال الحياة ليس التظاهر بالصلاح بل
الصلاح الحقيقي في السر والعلانية »

اذا كان لنا اعداء فنحن من اوجدهم . ويا لشر سوء الظن ! وكما
قالت مدام دي سثيني « من تجبته كدور وسنت فيه ظناً لا غرو
ان صار لك عدواً حقيقياً بعد ذلك . فان في معاملتك هذه سبباً كافياً »
من اشرف الامتيازات الانسانية التي نسبها المسيح لنفسه مقدرته
على الصفح والعفو في هذه الدنيا . او ليست هذه المقدرة فينا جميعاً ؟
الا انه تعوزنا الارادة لا غير ! ومن كان فظاً أو ظالماً في معاملتك
فقد يؤذيكَ من جهة ويمنحك امتياز العفو والصفح من جهة أخرى .
« وقد جعل الله في المحبة والبليّة شيئاً من قوته الكاملة » ^(٢)

والاثار طبيعة بشرية اما العفو فصفة إلهية . وانا لنصلي كل يوم طالبين ان تغفر ذنوبنا « كما تغفر نحن ايضاً للمذنبين الينا » وننسى اننا لا تغفر لغيرنا فلا يغفرون لنا . ورب جواب لطيف « يرد غضباً » ورب جواب حدة وسخرية يضرم الغيظ ويزيد السخط قال كوسمو ديوك اف فلورنس اننا امرنا بمساحمة اعدائنا ولم نوثر بالعفو عن أصدقائنا : على ان العفو واجب في الحالين . واذا أخذت بئارك من عدوك فربما بتّ وانما ندّان او كفتنا ميزان . ولكن اذا ترفعت عن مقابلته بالمثل حلاً وعفواً فقد ارتفعت عنه مقاماً ، ولربما حولته الى صديق تماماً . ناهيك عما في التفكير واعداد العدة للانتقام من اشتغال النفس بالضميم ، وحك حزازات الصدر ، ونكّ جروح القلب ، بحيث يتعسر بعدئذ شفاؤها — وان في ذلك لعذاباً أليماً . ومن يحاول مسّ غيره باذى فقد يتعذر عليه ذلك ولكنه لا يسلم من جرح نفسه

وفضلاً عن ذلك « ان العفو عن العدو خير انتقام . وأخلق به ان يُعدّ نصراً كسروياً وغلبة مُبينة بدون سيف ولا حسام . بل انه تذليل للعدو واحناء لرأسه تحت الاقدام حزينا خجلاً نداماً . بل ربما آل الانتقام بالعفو الى تحويل العدو الى صديق ونعم المآل . فالفرّ من وجه الاعداء كره عليهم بهذا المعنى . ومقابلة الشر بالخير هي السياسة السماوية لحفظ للسلام على الارض . والعنف والقوة قد لا يُنهيان الشر أو اذا انهياه فقد ابتدأت البغضاء والشحناء على الأثر . والخصم

الذي يصلح رغم انفه قليل ما يكون موضعاً للثقة . لانه لا بد من
الحبة والاخلاص قبل تبادل الثقة . وقد يكون سلامه وقتياً واضطراباً
لا غير : فاذا كنت لا ترحم غيرك فبالاقل لا تظلم نفسك . وأي ظلم
أشد على النفس من أن تبیت لا تهجس الا في اتخاذ الحذر وإعداد
العدة وتعمد الاذى حتى كأنك افترشت القتاد ، ونمت مع العقارب ،
فلا تذوق للنوم طعماً ؟ »

ولماذا نرانا نبحت عن مساوىء الغير ونُعمن النظر فيها ونكبرها
عما هي ؟ وان لكل حسناته ، فما بالنا نغض الطرف عنها ؟ « قشوا
تجدوا » واذا طلبت الحسن وجدته في كل مكان وزمان . ورب
ضعفات في الصديق تحبينابه ، او بالاقل تزينه لنا بوشاح التواضع والوداعة
ولقد نستغرب ان نرى انساناً خالياً من الرأفة والحلم . على اننا
لا ننظر الى دواخلنا فنعرف اننا نظيره وانه هو ايضاً ينتظر منا نفس
ما نتظر منه

وقد اخطأ بستلوزي بقوله « ليس تحت السماء من يريد او
يقدر ان يساعد غيره » . واني كأحد الناس اشعراني لا استطيع ايفاء
جميل الاقرباء والاصدقاء حقه من العرفان . وزد على ذلك انه بقدر
ما نعمل كذلك تزيد مقدرتنا على العمل . فكان الصالحات أمهات
يلدن

وربما صح قول شكسبير

الشر يحيا بعدنا والخير يدخل لحدنا

على ان الاغلب هو ان يعيش كلا الشر وانما بعد موت
صاحبهما

لا غرو ان الذهب والفضة ينيلاننا ضروريات الحياة من مأكل
ومشرب وملبس ومنزل ، ولكن اني لهما ان ينيلانا البشر والفرح
الذين تبعهما فينا نظرة اللطف ؟ واني للفقر ان يجرح القلب ويسمه
كما تفعل كلمة فظة قاسية مخاطب بها ؟ واليك قول شاعرنا سكوت
بهذه المعنى

وكم من سهام على غير قصدٍ تصيب وتصمي خلاف الهدف
وربَّ كلام به فمت عفواً من القلب حل محل الشغف
فكان كسيراً وعاد سليماً او ازداد كسراً ويا للأسف
ان في الامر لسراً خفياً . فالعطايا ولا سيما المالية منها مع انها
منيدة غالباً ، فكثيراً ما تضر اكثر مما تنفع وخصوصاً اذا أعطيت
« تصدقاً » ، كما يقال ، وليس عن عاطفة محبة حقيقية . والهدايا لا
شك انها توثق عرى المودة وتمكنها ، ولكن ذلك محصور بين
الاصدقاء والاقارب : اما المثل الانكليزي القديم فيقول : اهلاً بما
يسرني ويطيب نفسي »

فمع الجميع وخصوصاً الاطفال

بلطف تكلم فان الفوائد كثير لفيض العواطف حية
وان رمت تعلم قدر الكلام الا لطيف وتسال فالأبدية (١)

وبنت الشفة اذا خرجت من تحت سقف الخلق ، فقد مضت
في سبيلها ، وربما عدت فوددت لو تعود ولكن « عزّ ما كنت
تريد »

وكم عبثاً نستعيد الكلاما وليس يعود فليس حماما
حمامة تروح الى الفلك عادت واما الغراب فعلى وحاما
« عبّر أحد الحكماء عن الفرق بين السماء والجحيم بقوله ان في
السماء كلاً يريد ان يهب جميع ما عنده لسواه ، بينما في جهنم كل
يريد ان يسلب الاخر ما عنده »

وعاطفة المحبة وروح الأحسان وسلام العقل — ربما كنا اغنياء
واقوياء بدونها ، ولكننا لا نكون سعداء . بل ان السماء نفسها اذا
خلت من هذه الثلاثة لا تظل سماء وبها كل انسان ملاك ، وكل
بيت نعيم وسماء

سأنت فرانسوا دي سال يشبه الافعال الكبيرة الآتية عن محبة ،
بالسكر ، والصغيرة منها ، بالملح : وهو معلوم ان السكر الذّو واشهى
طعماً ، ولكن قليلاً ما نستعمله . اما الملح فلا يخلو منه طعام . فمن
الخطأ ان تقصر المدح والثناء على الاعمال العظيمة ، او ان تحتقر
الاعمال الصغيرة . ولنعرف لكل شيء قدره

كثير من الناس يصرون على حقدهم . ويحرصون على الاذية
التي تنالهم حرص البخيل على درهمه . يجرحون فلا يرضون ان
ينذرّ البلسم على جروحهم ، فكأنهم يعشقون دمها ويلتذنون بألمها .

واليك هذه القصة مثلاً لهذه الفئة من الناس : اتفق للورد دربي يوماً
انه وعد احدهم ان يعينه لمركز في الحكومة ، وعاد فعين فيه سواه سهواً
ونسياناً . وما جاءه الموعد حتى قابله باظهار الاسف لما وقع منه عفواً
وسهواً ، وقدم له مركزاً اهم وأسمى من الذي كان قد وعده به ، الا
انه آثر ان يكتم استيائه . ويصرّ عليه على اشغال هذا المركز ، وخرج
من لدنه يغلي حقداً ويميز غيظاً

وما هو البيت ؟ وما العيشة العائلية الهنيئة ؟ ربما بنيت بمالك
وجاهك قصرًا فخيمًا وحصنًا حريزًا . اما المحبة ، فهي ما يجعل المنزل
بيتًا بل سماء . اعتبر ذلك بفحوى قوله

ألا لو كنت لي لجعلت بيتي الس — مادة طائر يأوي اليه
وكنا حول « نار البيت » نهنا بتذكر الصبا والعيش فيه
وكنا نسمع الاجراس تشدو اذا الميلاد حلّ بنعمته
وقلبانا يطيران ابتهاجاً ولا شيء يفوت فنشئيه^(١)
وقل بربك لماذا نغلف في الكلام طوراً ، ونملأ الصدر حسداً
تارة ، ونخليه من عواطف الرأفة والحلم أخرى ؟ ألسنا بذلك نشقى
الآخرين ونظلم انفسنا . والحسد في المرء شر من السم في الحية ،
بل أشر . لان الافعى لا يضرها سمها والمرء قد يقتله حسده . وما
كان اسعد الدنيا لو كنا نتساهل الواحد مع الآخر وتلاطف
وتتحاب جميعاً

«سمعت انه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك . واما انا فاقول
لكم احبوا اعداءكم . باركوا لاعنيكم . احسنوا الى مبغضيكم وصلّوا
لاجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم» (١)

الفصل الثامن

التهذيب^(١)

أقوال مأثورة في التهذيب — مهود العلم في تاريخ المدينة — التعليم
الاجباري — من هو المهذب — ماهية التهذيب والغرض منه — ماذا
يجب ان تتعلم — المعلمون — التهذيب وطرقه — التهذيب والانسان —
المدرسة والعالم — ازالة وهم — رب علم يكون بالنسيان — كلمة الى طلبة
العلم — كيف ندرس — الانسان والكمال

اساطير الاقدمين، وكتب المتأخرين، وكتابات المعاصرين واقوالهم
جميعها مجمعة على الاقرار بفضل التهذيب، محرّضة على اعلاء مناره
واليك سلسلة افكار واقوال جاءت بهذا الصدد : « التهذيب »
قال افلاطون « هو اجمل شيء في احسن انسان ». « والتعليم » يقول
فوالر « اعظم صدقة يجود بها المحسنون اذا ارادوا مد اليد البيضاء

أثبت على ترجمة آخر سفر من « فصل التهذيب » في كتاب « السعادة
والسلام » وانا اتراوح بين اثباته وبين تلخيص ما ورد في « معنى الحياة »
لنفس المؤلف تحت عنواني « التهذيب والامة » و « تهذيب المرء لنفسه » .
وبعد التردد الطويل آثرت اثبات التلخيص متوخياً الحرص على لذة المطالع العربي
ولا سيما وان الفصل المشار اليه يبحث في التهذيب بحثاً يهم ابناء انكلترا خصوصاً
وقد لا يوافق اخواني ابناء مصر وسورية موافقة مضمون هذين الفصلين .
وحسبي حسن النية اذا فاتني الامنية

الى المعوزين والفقراء . وموتتاين الفرنساوي ، يصرح بان الجهل ،
هو ابو الشرور والجهالة أمها . « والقوة » قال فيلسوف أدبي « بدون
معرفة خطر ووبال ومعها مصنع خيرات ومنافع » . وشاعرنا شاكسبير
يقول :

أن الجهالة لعنة وجهنم
لأولي الجهالة بل هو اهل الجحيم
لكن معرفة الفتى ترقى به
أوج العلاء وداره دار النعيم
وسليمان الحكيم يوفى كلاً من العلم ، والحكمة ، والمعرفة حقه
من التنويه بفضله ، والذكر لحسناته ، والدعوة اليه . بل ان اقواله في
هذه الثلاثة جارية أمثالا ، فهي أشهر من ان نفسح لها مجالا
في العصور الخالية ، كانت تقوم الفلاسفة ، وتنبع النوابع ، من
آونة الى اخرى ، وتظهر العلم باجل جلال ، وأجل رونق . انما ،
لا يفهم من هذا ان التهذيب رقي معارجه العمرانية رقياً مستمراً بدون
عقبات ومشاكل . والحق يقال ان له ثلاثة عهود متداخلة متلاحقة
فمن عهد كان فيه العلم من ميزات الرجال ، محظوراً التوسع فيه
على النساء ، حتى جرى المثل الالماني « ان خزانة المرأة هي مكتبتها »
وشاع القول الافرنسي « المرأة يجب ان تلزم ما بين الاربعة اناجيل
أو ما بين اربعة جدران غرفتها » . وبلغ ذلك التقيّد مبلغ ان حسبوا
العلم من خصائص الرهبان والكهنة دون سائر طبقات الناس . وسببه

انهم جهلوا قدر العمل وما أدركوا شرف الشغل ، ذ كانوا ينظرون الى القارئ الكاتب كمن يحسن به الترفع عن كل عمل يدوي . حتى ان الدكتور جونسن نفسه ، مع تضلعه من العلوم ووثوقه من الحقائق قال : « لو تعلم كل الناس وتهذبوا فمن يقوم لنا بالأعمال اليدوية ؟ » ومن عهد آخر ، عول فيه على اقتباس اللازم ، واللازم فقط من أصول الخط والقراءة والحساب مما يستعمل في الأعمال البسيطة . فكانوا يعلمون تلك المبادئ آتين بالطالب الى الحد المعين منها ، فيوقفونه عنده ، حذر ان يوهل نفسه للاندماج في أهل طبقة أسمى من الطبقة التي ولد فيها . تلك كانت ايام الظلمة والظلم ، ايام لم تكن عرفت الحرية ولا المساواة بعد

اما اليوم والعلم في عهده الأخير ، فأننا لا نقول انه يطلب من الحكومة أن تعمم التعليم الاجباري بين جميع رعاياها لا نقول هذا فقط ، بل نزيد ونطلب منها (ولنا ان نطلب وعليها ان تجيب) أن تعمم « التهذيب » تهذيب الناشئة القائم بتهذيب عواطف الأحداث وأخلاقهم ، بحيث يشبون على شريف الخصال ، ومستقيم المبادئ ، ويصيرون رجالاً عالمين عاملين

قال أحد ساسة السويسرا : « أغلب أولادنا يولدون فقراء ، ولكننا لا نتركهم ينشأون ويتعرعون ، ويعيشون جهلاء » . والحمد لله نحن ايضاً ، قد انزاحت تلك الغشاوة عن بصائرنا ، وصرنا نرى أهمية تعليم كل ابن أمير ، وكل ابن صعلوك ، من أبناء الوطن . ولماذا ؟

الآن ذلك من الكماليات، ونحن كدولة راقية قد أحرزنا الضروريات، وهذا من جملة الكماليات التي تنقصنا بعد؟ لا لعمرى ! اذ ليست تربية أطفال اليوم أي رجال الغد، وتثقيف عقولهم، وتهذيب نفوسهم من الكماليات فقط، بل انها من ألزم الزومات. فالعلم هو أساس العمران. به تقوى أركان الأمة. وكل أمة جاهلة ينهدم بنيانها وتسقط أركانها لا محالة. بل لأن سن الشرائع يستدعي علماً - علماً بالتاريخ وبفلسفة الاجتماع وكل العلوم العمرانية، ولأن تنفيذ الشرائع يستدعي تهذيباً - تهذيباً يشرب النفوس حب العدل وكره الظلم، حب العفة والنزاهة، واحتقار الهوى والرشوة

ولأن الشعب اذا تعلم، ويلا حرى اذا تهذب، احب الحكومة ورعى حرمة قوانينها

كيف لا، واذا قابلنا بين احصاءات الجرائم وبين احصاءات المدارس لسنين معينة وجدنا معدل عدد المجرمين يقل بنسبة زيادة عدد المتعلمين

وسببه أن جزءاً من الجرائم الفظيعة ينتج عن ميل الانسان الغريزي الى الشر، وعن ضعفه لدى التجارب... اما المصدران الكبيران فهما السكر والجهل

وحسب المدارس منفعة انها تحفظ الاولاد الميالين الى التقليد والتشبه، من مشاهدة مفاسد ومساوىء اهل البطالة والكسل، المنتشرين في الازقة وحوشاً ضارية تقتال اطفال الانسانية. حسب

المدارس انها بمجرد تنفيذ قوانينها تقلل فرص معايشة طلبتها للادب والاجلاف والسكيرين ، وبالنتيجة فرص اقتباس عوائدهم . هذا فضلا عما فيها من الرياضة على الحسن الشريف من العادات والمعاينة على الدنيء منها

اهذا صواب ام خطأ ؟ . اهذا خير ام شر ؟ . اهذا جميل ام قبيح ؟

ان هذه الاسئلة لتقوم في النفس مرارا كل يوم . اذ الانسان خلق عاقل يتصرف بعد ان يفكر . واعمال الحياة يغلب ان تكون من نوع الصواب والخطأ او الخير والشر ، او الجميل والقبيح . فالمهذب هو من يسأل نفسه احد هذه الاسئلة في وقته ، ويجاوب حسنا ، ويعمل حسنا اذا لزم العمل

والغرض من التهذيب تهيئة المرء لسعادة الحياة والقيام بعمل يذكر فيها

ومجرد القراءة والكتابة ومعرفة اصول الحساب وصرف اللغة ونحوها ، ليس كل التهذيب ، كما ان السكين والشوكة والملعقة اذا وضعت على المائدة لا تكون الغذاء المطلوب

وكثيرة جدا هي الأشياء الممكن تعلمها ولكن على الانسان المعين في أحواله المعينة ان يختار لنفسه بعضا منها مما يوافقه من كل قبيل لدينا كتب السلف المحتوية على أفكارهم وأساليب تعبيرهم ، وعديد مفرداتهم ، مما طمسه الزمان فصار في حكم المجهول . فدرس

تلك الكتب لا أقول انه مضر لكل انسان ، ولكنه لا مشاحة غير ضروري لكل انسان . ذلك لقلة ما يرجى من الفائدة من معرفة مترادفات لا تحصى لكلمات يكفي القليل المؤلف منها لاجل التفاهم ، ولا متناع هذا مع استعمال الغريب القديم من التراكيب والعبارات . بل رحمة بالوقت ! فاننا نصرف في درس اليونانية واللاتينية القديمتين وقتاً يجب ان نصرفه في غير سبيل

والمعلمون عزيمة هي واجباتهم وثقيلة هي المسؤولية المنوطة باعنائهم . اذ التسلية وتمضية الوقت مع التلامذة امر بسيط هين ، اما تعليمهم ، وتربيتهم ، وتهذيبهم ، وتثقيف اذهانهم ، وترقية مداركهم فهذا هو الفرض المقدس المرسوم عليهم

وربما كان اسهل من سهل على المعلم ان يفهم التلميذ مسألة نحوية او حسابية . « اجل سهل ويسير هذا ، اما ان تساعد النفس الحديثة ان توفر وتزيد قوتها ، ان تبعث في صاحبها روح الامل والرجاء والاجتهاد ، ان تنفخ في رماد الالهال تلك الجمرات التي استودعته اياها الطبيعة ، فتظهر نوراً وناراً — ذلك ليس بالسهل بل هو عمل عظيم لا يأتيه الا المعطون من الله » . (١)

وعلى طلبة التهذيب — ولا أقول العلم (٢) ان يتعلموا أشياء وينسوا أخرى على حد قولهم ، تعلم السحر ولا تعمل به وفي الاختيار بين ما يجب اتباعه وبين ما يجب الاقلاع عنه

(١) امرسن (٢) لان العلم شيء والتهذيب آخر

مما يستفاد من الكتب ، تنحصر مقدرة المعلم على تهذيب الطالب ،
ومقدرة الطالب على تهذيب نفسه

والتهذيب لا يقصد به اعداد محامين وقواد ، وأساتذة ، او
أرباب صناعات وتجارات وعملة مجيدين لا غير بل ان صفته اللازمة
انما هي انماء رجل الغد من طفل اليوم . والتهذيب التام بنظر ملتن
هو ذلك الذي يؤهلك الى اتمام كل الواجبات الشخصية الخصوصية
والغيرية العمومية ، آن الحرب ، وآن السلم بكل اتقان وحذق وامانة .
قال جونسن « من يتصور ان الافكار لا توجد الا في الكتب وان
في الكتب كل الافكار ، فما هو الا متصور . فالافكار تجري مع
الانهار والمجاري وتطفو على وجه البحر ، وتنكسر على شواطئه ،
وتسكن التلول والوعور ، وتسطع مع نور الشمس ، وتنسدل طي اجنحة
الظلام . فالافكار موجودة في كل اين وآن . وما الطبيعة ، اذا
اعتزلت الناس الا سفر ، لله من يقرأه ويفسر آياته

و « ثلاثة هي طرائق التهذيب تبدى الواحدة حيث تنتهي

الآخرى

الأولى : قراءة الكتب وادراك معانيها

الثانية : التفكير والتأمل الشخصي في تلك الافكار والمعاني

الثالثة : محادثة الغير بها واختبار سقيمها من صحيحها ، وسليمها

من فاسدها » (١)

وبعبارات أخرى اذا قرأت فتعمن وتفهم . واذا خلوت بنفسك
فتمكّر واجترأ ما قرأت وانعم النظر فيه . واذا وجدت مع احد
فلاحظ بدقة ما قد تسمعه او تعينه مما يتعلق بموضوع تلك الافكار .
هذه هي الطرائق المثلى

والتهذيب هو التناسب بين القوى والمواهب الانسانية ، انماء
وترقية

وهو يتبدى مع اول ادوار حياة ، ويستمر على تواليها . فالمرية
او الام تكون اول مذهب للولد ، ثم الاب ، ثم المعلم ، فالاختبار والايام
والتجارب . وكمن من آدمي خرج الى حيز هذا العالم ، ولم يعرف أمّا
ولا أباً ، ولا عرفه معلم — فالتخذ الوقت الثمين أباً ، والفرصة العزيزة أمّا
والايام والظروف اخواناً واعواناً ، وعاش ما عاش ، وترك هذا العالم
شاكراً حامداً

فكل انسان له تهذيان تهذيب يحدثه فيه الغير ، وتهذيب أهم
وأجدى ، هو يحدثه في نفسه

وكثيرون من رجال الدهر ، الذين يتمنى المجتهد ان يقاس ولو
بقيراط من عظمتهم ، اجل عدد يذكر منهم عرفوا ايام تلمذتهم
بالبلادة وخمول الذهن ، وبالطيش وقلة الاكتراث بالدروس . ومن
هؤلاء ، القائدان وانكتن ونابوليون ، والفيلسوف الفلكي اسحق نيوتن
والروائي الطائر الصيت سر ولتر سكوت ، والشاعر المعروف شريدان ،
والكاتب المردين سوفت وغيرهم من طبقهم

هذه كلمة تقولها ، لا لنظمت الكسول ونشجع الطائش ، من طلبة
المدارس ونبررهما بل رجاء ان يتمسك بها ذلك المهتم بدروسه ،
المستلب الساعات من مخالب الآفات ، حجاباً تهذيب نفسه واستزادة
علمه فيتشجع ويثابر على جده واجتهاده ، علماً انه لا يُعَدُّ جزءاً في
العالم اذا كانت تفوته الجوائز في المدرسة

يتوهم البعض ان العلم مصدر الشرور ، ويعتبرون العيشة الطبيعية
ام الفضيلة . وما توهمهم الا لعدم فرقهم بين حقيقة الجهل وبين البرارة
وسلامة القلب فانهم يزعمون ان البارَّ سليم القلب صافي النية كالطفل
في سريره ، الا ان الواقع خلاف ما يتوهمون ويزعمون . فان المرء
بعد بلوغه اشدَّ ورشده ، اذا سلبته معرفته وجدته في طور الهمجية ،
لا في دور الطفولية ، وكان لك منه وحش ضارٍ بشكل انسان . هذا
لان العلم هو دليل الانسان وقائده في هذا العالم ، يميل به الى الخير
تارة وعن الشر أخرى . ومن لا علم له ، فالشهوات والاميال الحيوانية
متغلبة عليه

وخلاصة القول ان العلم للنفس كالبرارة والقداسة والطهارة —
اللهم ان لم يشب ويفسد وقد يجرب السليم ويخبث الطيب
ورب علم يكون بالنسيان

نعم صعب علينا ان نتعلم ما نجهل ، ولكنه اصعب واصعب ان
نجهل ما تعلمنا ، اذا كانت مما علمه مضر وجهله انفع . فلنسهر على
تهذيب ناشئتنا ، وتعليم اولادنا كل السهر لئلا ينشأ الطفل على اعوجاج

في المبادئ والاخلاق ، وهيئات ان يُقوّم اعوجاجه بعد الكبر ،
آخذين بقول القائل

(قد ينفع الأدب الاحداث في صغر

وليس ينفع بعد الكبرة الأدب

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت

ولا يلين اذا قومته الخشب)

ويا ايها المطالع المهذب نفسه ! اعمل على استبقاء الاحسن
الأفضل فقط من كل ما تقرأ في الكتب ، وتجد في الناس ، او تتلقاه
من افواههم . ولا تنجل من نفسك ان ترى غيرك اعلم منك واخبر .
انما اذا رأيت من نفسك القعود عن الاكتساب والاستفادة وكان
لسان حالك غير

(اذا مرّ بي يوم ولم اتخذ يدًا ولم استفد علماً فماذاك من عمري)
فعند ذلك فاحجل . ولم نفسك ما تشاء

قال سرفتش : « ايام تلاميذتي . كنت ادرس الكثير من مثالي
مكرهاً مرغماً ، لا كمن عرف ان كل ما يتعلمه لغة كان او تاريخاً
او جبراً او هندسة ام غيرها سيعود عليه ببعض النفع يوماً ما . اما
اليوم بعد ان قطعت مرحلة طويلة من مراحل الحياة فاني انظر
الى الوراء فأرى ان كل فقرة تاريخية وكل رأي فلسفي وكل قاعدة
لغوية وكل عملية حسابية وبكلمة كل ما كنت محملاً على
درسه ومطلوباً مني فهمه قد افادني بصفته الخاصة في ظرف من

الظروف ، اما في اثناء المطالعة او في المعاملات والتخاطب او في
الكتابة او في غير هذه من المجاريات اليومية . « فليعتبرن المتأفون
من طلبة العلم المتدمرون من درس ما لا يوافق اذواقهم تمام الموافقة .
فان تكلف الصعب وفعل المطلوب لمجرد كونه مطلوباً يكسب
الفاعل قوة يفتقر اليها في اغلب الاحايين . وما تلك الا قوة الارادة
ارحم الوقت ترحم نفسك . فاذا اردت ان تدرس شيئاً فانصب
عليه انصباً واجمع كل قواك قوى عقلك ووجدانك جميعاً حوله .
فلا يكون الا القليل الا وقد درسته كما يجب . والا كنت قاتلاً للوقت
خادعاً لنفسك . ولا تكن ممن اسان حالهم قول القائل او مماثله
(لا تكلفني القراءة اني مغرم في هوى الغزال النفور
فاذا ما فتحت يوماً كتاباً طاف طيف الحبيب السطور)

الفصل التاسع

الأصدقاء والأعداء

الجهالة في تكثير الاصدقاء . — صديق جاهل اضر من عدو — يونانان
وداود — قداسة الصداقة — نقائص الاصدقاء — الصديق الكثير
الصراحة — الحديث — المجادلة — سوء النفع — الاجتماع — حب
المدن — الغرباء — الانفراد — قيمة الاصدقاء — الخلو في الضوضاء —
الكلمة اللطيفة — الهدايا — حضور الاصدقاء — الحب — الحسد

يُعنى بعض الناس ويهتمون لتكثير أعدائهم ، ويا لهما من مهمة
وعناء في غير محلها . ويا لسرعة ما يتكاثر الأعداء من تلقاء ذاتهم
ولا شك ان عدوًا عاقلًا خير من صديق جاهل . ولكن العداوة قلما
تعود بعائدة نفع ، وغالبًا ما تكون مجلبة للضررة . فضلاً عن ذلك ان
الأعداء الذين يرجى نفعهم هم غير الذين نعاذهم نحن . ومهما يكن
من الأمر فلا مراء انهم لا يخلون من منافع ، اهمها تحذيرهم لنا من
سقطات وهفوات لا يحذرنا منها الأصدقاء . ومن ميزات العدو انه
عدو قلبًا وقالبًا . وحبذا لو أخلص الصديق في صداقته اخلاص العدو
في عداوته . ولا مشاحة ان الادعياء من الاصدقاء شرٌّ من الدّ
الأعداء . والمشير فلرس لما أتى ليستأذن الملك لويس الرابع عشر
بالذهاب لقيادة الجنود الفرنسية استعطف جلالته بان « قني شرّ

أصدقائي ، فاني أستطيع ان اتقي شر اعدائي وأكفاه »
 « والصديق القديم ما اشبهه بمعتقة الدير التي يحتسيها شاربها
 ويقول حسي القديم فلا تسقني جديداً » (١) ولكن كل صديق قديم
 كان جديداً يوماً . فاحرص على الجديد الجدير حتى تصيره قديماً
 ان اجتماع النفوس المتقاربة من عظمى المسرات . اما الوحدة
 والانفراد فمن التجارب الموبقة . والوحدة المكانية ليست شيئاً بجانب
 الوحدة الروحية النفسية . والتألم لفقد الأصدقاء دليل على بركة وجودهم .
 على ان من كان من محبي الطبيعة فهو مكفي مؤونة العزلة والوحشة
 وليس في التاريخ ما يحرك العواطف مثل أخبار محبة الاصدقاء .
 فحبة بلايدس لأورستس التي ضربت بها الأمثال ، وعشق يونانان
 لداود الذي فاق عشق النساء ، من ابهج ما سطر في صفحاته
 واتخاذ الصديق الصدوق ليس بالسهل اليسير . ومن تسنى له
 ذلك فليعلم انه فاز بكنز ثمين ينبغي له حسن القيام عليه
 والأصدقاء اذا جربت صدقهم فاشتد حرصاً عليهم فالتقليل هم (٢)
 بل أحلهم من صدرك محل الحياة التي لا تجازف بها ولا تبخسها
 قدراً . ومزدوجة هي بركة الصداقة — تضاعف الهناء وتناصف العناء .
 فعزز أصدقاءك ، وساعد هم جهدك ، واتعب لهم ، ودافع عنهم ، وقف
 بجانبهم اذا هوجموا ، وافرح معهم اذا أفلحوا ونجحوا ، وشاطرهم
 الاحساس اذا ابتلوا ، وعزّم اذا أصيبوا

والعرب يحسبون مهاجمة من ذاق ملح طعامهم مرة خيانة لا
تغتفر . ومع ان الرومانيين كانوا يقولون في امثالهم ان الصداقة لا
توثق عراها الا بعد أكل الاردبات من الملح فمن لا تنوي معاملته
كصديق فخير لك الا تدعوه الى بيتك

ولأن توهم محاسن الصديق وفضائله توهماً افضل لنا من غض
الطرف عن حسناته والتحديق في سيئاته . ولكن مهما حق لنا ان
نأمل ونرجو من أصدقائنا فلا يجمل بنا ان نتظر منهم ما كان ذنباً او
عاراً ولا بهم ان يتطلبوا مجاراتنا لهم في مثل ذلك
ولربما صعب علينا ان نتصور كم يتسنى للوضع ان ينير حياة
الآخرين . اما شاكسبير فيقول :

كمصباح ضئيل النور شق الدجى بضياؤه وانار ليلا
كذلك قليل خير في دنانا الدنية ليس في عرفي قليلا
اما الصديق المتفرش والكبير الصراحة عن جهل او سلامة طبع
فقد يكون معرضاً للصداقة لما يؤول الى حل عراها . اما الصديق فلا
يُحجم عن الانذار والتحذير . وقد قال غلادستون « ليت شعري لو
ان كل صديق يثبت بجانب صديقه ثبات العدو تجاه عدوه » . انما
هذه المواقف قليلة نادرة لحسن الحظ . اما الصداقة على كل حال
فيجب ان تكون عوناً للفضيلة لا مشجعاً للردية

وقليلة هي المسرات التي تفوق السرور بفكر جديد . واذا
تركت لذة معاشرة الاصدقاء جانباً فان مجرد تبادل الافكار معهم

فيه ما فيه من اللذة

اما المجادلة فغالبا ما تكون سيئة العواقب . وكثيرا ما تأتي نتائجها بعكس المقصود منها على خط مستقيم . وما ذلك لان العواطف تثير اثناء المحاورة وتهيج بل لان لهجة المناظر المناقض مهما رقت ولا أنت فلا تخلو من رنة تقع من القلب موقع التأمر والاهانة . زد على ذلك اننا بقدر ما تقترب من الاقتناع برأي مناظرنا نزيد له تحجيلا وتقبيحا . ونفس التكلم بسلطة وعن ثقة يدل على ان المخالفة جهل وسخافة عقل . واظهار الحدة في مثل ذلك المقام ضربة قاضية . وعليه فالاقناع بالجدل نادر الامكانية . وهنا يحسن بنا ان نذكر زعم العلامة لوك ان قسما كبيرا من الشقاكات الفلسفية تنبع عن احتمال الكلمة الواحدة معاني مختلفة

وهذا لا يصدق في المباحث العلمية فقط بل نصف الخصام في العالم ليس الا سوء تفاهم لا اكثر . ورب كلمة اساء السامع سمعها او فهمها او جملة تكررت على غير وجه الصحة او عبارة قيلت في معرض الهزل شملت على محمل الجد او توبيخة صدرت عن اخلاص حقيقي واتخذت مأخذ الخبث والضعينة - آلت الى حل عُرى صداقات والى تمرير حياة وحياة

وكما قال غوته الالمان بلسان احد اشخاص رواياته « وان اختي وزوجها كانا نعم الزوجين . ولكن عوضا عن ان يتداعبا في الكلام ويتلاعبا باساليه كان يحاولان ان يقتع احدهما الآخر . وانما لفرط

رغبتها في الاتفاق التام ماتا ولم يتفقا على شيء »

ولكي تأتي معايشة بخير ما يرجى منها . لا بدَّ معها من سلامة ذوق وتبصر وحسن روية . ورب متضلع من التاريخيات تعوزه كلمة يفوه بها في العلميات والفنيات . ورب آخر يلذ لك حديثه في المواضع العلمية تجده عيًّا اذا استطرد الحديث الى موضوع تاريخي او في واذا تجمّع في نفسك عدد من الاسئلة اللائقة فقليل من لا تسرّ بمقابلته فتستجوبه اياها . ومن المعلوم ان كثيراً من الناس اقدر على فهم ما يسمعون وحفظه منهم على مطالعته وتفهمه لذواتهم . فقول هوراس التالي لا يصح في هذه الحالة :

النفس اسرع ما توثق من النظر والعين احرص من أذن على الاثر
في العين تُخبر وفي آذاننا خبر والخبر اصدق عند النفس من خبر
طبع الناس على حب الاجتماع والتآلف . ولا قبل لهم بمقاومة
دواعي المدينة بما فيها ومن فيها . والنساء والرجال اخلب لالبابهم من
الحيوانات والنباتات . فهم بحكم الطبع أميل الى الاجتماع منهم الى
الانفراد . اما الطريقة المثلى للتمتع ببركات القرى والبراري فهي
الخروج اليها بسرب من الاصحاب المتفقين اميالا واذواقا . ولكن
اكثر الناس يحبون الاحتشاد والجمهرة . فاذا قصدوا البرية لزمو قارعة
الطريق ، واجفلوا لكثرتهم اسراب الطير وجماعات الحيوانات .
واذا استلقت الازهار نظرة منهم ، مدوا اليها الايدي ، واقتطفوها
جميعاً ، وما لبثوا ان رموها بازدرآء . وجمال الطبيعة باحراجها وحقولها

وانهارها ، قلما يروق منهم عينا او يسر خاطرا
والفلاسفة بل الاكثرية من الناس يؤثرون المكاتب والمتاحف
والمجالس على جميع ما سواها . ولسنا ننكر ان هذه من اعذب موارد
السعادة واصفاها . وقد صدق شيشرون بقوله : « ولنضف الى هذه
الامور فوائد لطف معشره الذي يرى فيه العلماء شعائره واذواقه .
ويعبدون من حديثه لذة وطلاوة تأخذ بمجامع القلوب . وما الذي
ينقص حياة كحياته ليزيدها سعادة ؟ ان السعد نفسه ليعنو لدى
حياة هذه مسراتها . فاذا كان السرور بمثل هذه من خيرات العقل
يعد سعادة وكان هذا السرور نصيب العلماء والحكماء ، فلماذا
لا نقول ان جميع هؤلاء اذا سعداء في نفوسهم ؟ »

وربما طالت اقامتنا مع بعض الناس وظلوا لنا بمثابة الغرباء .
« والقلب يعرف مرارة نفسه وبفرجه لا يشاركه غريب » ^(١)
وهذا القول لا يصح في الغرباء فقط . وكم من مرة يفاجئنا
بعجيب مستغرب من كنا نحسب اننا عرفناه تمام المعرفة وقد قال
لورد هوتن

لم يزالوا كأنهم غرباء	بعد ما طال واستطال اللقاء
كم قضينا سوية من سنين	واتانا فيها الهنا والعناء
كم رحلنا سوية وحلنا	وعلينا من الشهود الفضاء
فلماذا كان اللقاء والتآخي	ان يظلوا كأنهم غرباء

والحياة تزيد وحشة ان نحن لم ننتبه للامر ونهتم له . وهل يجوز
ان نكون

كل فرد ضاحكاً او باكياً مستقل ليس من خل معه
فكان النفس في هيكلها ناسك مستعصم في صومعه
وبلور ليتون يضمن نفس الفكر قوله
أفكرت في أنا على القرب ها هنا

بعيدان والافكار تفصل بيننا ؟

فجنباً الى جنب جلسنا وانما

كانا ابتعدنا واغتدى الوصل بيننا (١)

وأني لشغرينا اقتراب لقبله

وقلبك عن قلبي بعيد وما دنا

والشاعر برونن يلمع بقوله الآتي الى أولئك الذين يسكنون السنين
الطويلة في منزل واحد ولا يستطيعون ان يوجدوا معاً في ناحية من نواحيه
ابداً ادور على جميع جهاته عرصاته غرفاته وجناحه
واذا التقيت بها استحات طائراً شق الفضاء مصفقاً بجناحه
ووحشة المكان وان ثقلت وطأتها على القلب ليست بشيء ازاء
وحشة النفس . ومن يحب الطبيعة حباً حقيقياً يعزل وينفرد ولا
يشعر بوحشة مطلقاً . ولا غرو فالطبيعة ام السلام والسكينة . واذا خلا
الفكر وارتاح من مشاغله استفاد القلب من ذلك الخلو وتلك الراحة

ولا شك اننا نطلب الوحدة احياناً . والمملكة فكتوريا لما كانت
ولية العهد بعد وبلغت وفاة الملك وليم وبشرت بارتقاء العرش
البريطاني طلبت ان تخلو بنفسها ساعتين من الزمن . والوحدة تختلف
باختلاف الأشخاص . وربما كانت معبداً وميناء سلام لهذا وسجناً
ومحل عقاب لذاك او سماء الواحد وجحيماً للآخر . وليس لكل انسان
ان يقول مع القائل :

يا ليتني في بقعة مقفّره وظل أشجار به ارتع
عن كل افعال الورى المنكره عن مكرهم والظلم لا اسمع
وتوماس أكبس يخبرنا :

قائل قال من بني ذا الزمان وهو قول من الحقيقة دان
غالباً ما صحبت ناسي حتى خلت نفسي أقلّ من انسان
والشاعر شلر يستشهد بمثل قوله :

(وانما رجل الدنيا وواحدتها) ^(١) يعيش لا يتعمى يوماً الى رجل
على ان قول بارناردت دي سانيار يلوح لي أقرب الجميع الى
الحقيقة - وهو : « وما حال نفس وحيدة ولو في السماء نفسها ! »
ولكن أي سرور في الحياة يفوق لذة الاجتماع بمن نحب . وقد قال
لابرويار : « العيش مع من نحب حسبنا وكفى » . وقد يصح ما يقال
من ان البعيدين عنا قد يكونون أقرب لقلوبنا من الحاضرين لدينا .
وربّ زمرة ترى نفسك في عدادها وتحسبك في عزلة

(١) من لا يعول في الدنيا على رجل

وربّ امرئ ما بين مُبلى ومُكرب
يعيش ولكن قلبه قلب مطربة
يجد الى الآمال سعياً ينالها
ويطلب ما يهوى ويمنى بمطلبه
« والرجل العظيم هو ذلك الذي تحقق به الألوف ولا تعكر
عليه صفاء ، بل يظل منها كما لو كان معزلاً منفرداً »
والحديث يجب ان يكون طبيعياً لا صنعة فيه ولا تكلف ، وما يرينه
الآ الاخلاص والحرية الفكرية . الا انه لا يكون طلياً الا اذا عُني
له . وحسن بنا اذا أردنا الكلام ان نعرف ذوق السامع ومبلغ مداركه .
وقد أتاح لي الحظ معرفة أحد علمائنا الكبار الذي رغماً عن سعة علمه
كان عياً لا يستطيع مجاذبة اطراف الحديث مع مجالسيه . وكثيراً ما
كان يتفق له ان تنتهي المأدبة ويفرط عقد المدعوين وهو لم يفهم
بينت شفة قط . ولكن يا لسعادة من ارتاب واحترق في أمر مسألة
علمية واستفهم اياها ، فوجد فيه اذ ذاك جليلاً انيساً ومتكاملاً فصيحاً .
كان متفرداً بمقدرته على الايضاح والتفسير ومن اتاه مرتاباً في حقيقة
خرج من لدنه وهو على اليقين من امرها . الا انه لم يكن يستطيع ان
يفتح غيره حديثاً أو يبدأ معه كلاماً . والحادثة كالمخاصمة لا بد من
اثنين يقومان بها . ولا ريب ان من الناس من يهذرون ويكثرون
من الكلام ولو أقلوا ودلوا لزادوا في عيون سامعيهم اعتباراً واکراماً .
وحق المجيدون والفصحاء قد يحسن بهم السكوت أحياناً . وربّ

صمت افصح من كلام . ورب فترات تزيد الحديث طلاوة وتأثيراً
واذا كنا في هيئة مجتمعة فلندكر ان حسن الاصغاء مضارع
لحسن الالتقاء في الأهمية . ومن يحسن الاستماع يستفيد من جهة ويسر
محدثه من جهة أخرى . ولما كان الناس عموماً يحبون التكلم حباً ،
كان الاصغاء لأقوالهم لطفاً وأدباً

وعجيب هو تأثير الكلام —

بيننا هم يترشفون من الطرب
كاسات انس في قصور من ذهب
للعود اوتار وألحان علي
ها الغيد ترقص لا هموم لا كرب
والورد والرياح فاح شذاها
يتنعمون وما عليهم من عطب
واذا بقول ساء هم فتغيرت
ألوانهم والحال في الحال انقلب (١)

أجل ان ما يصفه الشاعر أشبه بما ورد في الخرافات وقصص
الجن ، على اننا في غنى عن الرجوع الى عصور السحر والعرافة تأييداً
لما نقول . فمن منا لم يلاحظ مرة كيف ترتعد الفرائص وترتجف
الاعصاب ويتزعزع العقل من مركزه وتفسد ساعة السرور فساداً
لمجرد سماع كلمة فضلة أو كلمة غيظ وغضب؟ واعتبر ذلك ايضاً بالكلمة

الصادرة عن شعور حي وعواطف رقيقة فهي الكلمة التي تفرح قلب
الكئيب وتنشله من بحر الأحزان والالام والهواجس وتنير ما أظلم
من دنياه في عينيه

كل من قرأ « سياحة المسيحي » يذكر تلك الفتاة المسماة
« بلادة » واصحابها « ساذجاً » و « كسولاً » و « مدعياً » و « سخيف
العقل » و « بطيئاً » و « جباناً » و « عبد أهوائه وشهواته » و « قتل
النوم » . ولا غرو ان كثيراً من شرور العالم مصدره البلادة والخمول .
والسكر كثيراً ما يُقدم عليه حباً بالتهيج وتخلصاً من القنوط والخمول
ولكن لماذا يحمل المرء ويقنط ويتبدل والحياة كلها حركة وأمل ؟ واذا
كنت لم تعط ان تكون مجونياً تحسن الهزل وتسليه النفس فاعتنم
فرصة الاجتماع بمن كان كذلك . ورب ضحكة خارجة من اعماق
الصدر تخفف عنك وطأة يومك على شدتها . والضحك وقل القهقهة
فائدة للجسم والعقل جميعاً

والصدقة لا بد معها من التكاثر والتسارر . واسرارك الخيار
بين ان تضيعها او ان تكتمها . واما اراد صديقك فشأنك معها غير
هذا الشأن

والمرء يجب ان يكون طلق المحيا مفتوح القلب ما امكن . وبعض
الناس مولعون في الكتم والاصرار على اسرار تافهة ظناً منهم انها
اسرار عجيبة . وهذا خطأ مبين على انه لا يُنكر ان هنالك اموراً
يجب كتمانها عن الآخرين خشية ان ينشروها بين الملاء جميعاً ولو

خلت نيّاتهم من سوء وتعمد الخيانة فإن كثيراً من الناس يشق عليهم
ان يكتموا سرّاً رغماً عن رقة شعورهم وسلامة طواياهم
والمثل الفرنسي يقول : « لا أثقل من سر والله حمله » . والله
درّ شاكسبير القائل :

القول سهل كالهواء وجوده وكملتقى العنقا لقا النمل الوفي
واذا كنت تعجز عن كتمان سرّك في صدرك فمن الجهل ان
تتطر كتمانك من سواك

وكثيراً ما يأتي الشقاق وسوء التفاهم عن طريق النسيئة ونقل
الكلام . وربما انكر المتهم انه استغاب ووشى ولكن قلما يقبل انكاره
واعذاره . وكما من رسالة يبلغها الرسول على غير وجه الصحة وتقع
التبعة على صاحبها ويسلم الرسول من عواقبها . ولذا كرتلك اللعبة التي
فيها يهمس احد الجلوس جملة في اذن جاره فيعيدها الاخير على
مسمع الجميع واذا بها مختلفة عما همس به الاول اختلافاً يستدعي
الدهشة والضحك . ورب شهود عيون لحادثة من الحوادث يختلفون
كل الاختلاف في وصفها رغماً عن اتفاقهم على توخي الصدق والحقيقة .
فما بالناس اذاً لا ننظر الى ما يقال في ظهورنا نظرة تأن وتؤدة
ولماذا نرانا لا تقبل للمتهم بالقدح فينا وباغتينا بنا عذراً ولا برهاناً ؟
وقد قيل

(واقبل معاذير من يأتيك معتذراً)

ان برّ عندك في ما قال او كذبا)

والخصام حق وجهالة ولا سيما اذا قام على غير سبب موجب له.
فلماذا نخاصم من يظهر لنا براءته من اغتيابنا؟ الا نكون بذلك ظالميه؟
بل واذا ثبت لديك انه اغتابك فقد يكون انكاره من باب النسيان
لا غير ومن ثم فغفوك عنه كرمًا وحلمًا وصفحك عن ذنبه اليك يعد
لك فضلًا وهو الافضل

قرأنا في الكتاب ان فلس الارملة النحاسي يعتبر اكبر قيمة
من « وزنات » الأغنياء الذهبية ، لان قيمة العطية الحقيقية ، انما هي
الروح التي تُعطى بها . ولسنا ننظر الى مقدار المال ، حتى ولا الى
منافعه ، بل الى العاطفة التي تبعث على الجود به

نعم الحبيبُ وقد اتت به هدية من حبه
من ليس يعبا بالهدية به عيبه في حبه

وربَّ خصلة من الشعر يحرص عليها الحرص على ملك عظيم ...
وأصدقائنا ابدأ معنا اذا كنا كالتقائل :

وأذكرها اذا ما الشمس أرخت جبال النور من أفق البحار
وأذكرها اذا ما النهر التقت عليه نورها درر الدراري
وأسمعها وصوت الموج سار الى قم الجبال مع السواري
وأصمت سامعاً إما وحيداً أتيت الغاب..ياحلواذكاري^(١)
ولما كانت أعمال الانسان سريعة الزوال والاضمحلال ، فلا
بد لنا من أناس نحبهم ويحبوننا . لانه متى نفيت المحبة والعواطف

من صدورنا لا تلبث السعادة ان تهجرنا وتقصد منفاهها « (١)
والصدقة أوقات مقدسة تُسبّح فيها . وأمسية الشتاء رائقة
صافية لكثير منا كأمنية الصيف او أكثر

أضرموا النار واقفلوا الابوابا
واجلسوا بعضنا لبعض قريبا
غابت الشمس . أسدلوا ذا الحجابا (٢)

ان للبرد في الجسوم ديبا
إي ! وأعلوا عمود نار سحابا
آن للعيش ساعة ان يطيا
وبصافي الكؤوس ذوقوا شرابا
مفرحاً للعقول ليس سلوبا
فلمسا يا صحاب عاد وآبا

ولترحب بعوده ترحيبا

وانه ليسعنا ان نكثر الاصدقاء ما شئنا وما أحببت قلوبنا . وقد
قال افلاطون « ما اعظم المحبة . فملكيتها تشمل كل شيء إلهياً كان
أم بشرياً . والمحبة هي أم الفضيلة في الحياة ، وأم السعادة بعد الموت »
ذلك لان العقل محدود ، اما عاطفة المحبة فلا تعرف حداً ولا نهاية
ومع ان الصداقة هي محور كلامنا الآن ، فاني لا أتمالك من
ذكر « الحب » لأنه اعظم لذة يفوز بها الانسان . وسماوية هي

(١) شيشرون (٢) المراد « الستارة » نقي من البرد

الملاذ الموسيقية اما سير . ت . برون فيقول « ان في جمال » رب
العشق « ^(١) ونغماته الخفية لشجى ورقة لا يوقعان على آله » .
ولا تنكر ان سهام « رب العشق » اللطيفة قد تكون أذرع فتكاً من
حراب « الاله الحرب » ^(٢) . اما بايكون فلم يعدل في قوله « ان الحب
» بنت الماء « ^(٣) تارة و « الاله الغيظ » ^(٤) اخرى »

واليك أمنية عمر الخيام احد شعراء الفرس :

أديوان أشعارٍ وقربة خمرٍ وكسرة خبز تحت غصنٍ مظلٍ *
وانت بقربي تشدين فتطربني وما القفرُ فردوس به الهم ينجلي
الآن أنه لا يجوز ان يُجازف بالحب ويوهب على غير روية وبصيرة
وقد قال مكدونلد

أن همت في حب ومت قتيله خير من العمر الطويل بدونه
ولأن تحب وتنتهي وتصدني خير لو انك ما وجدت بكونه
وقد جمع شاكسبير جلّ علائق الانسان باخيه في نصيحته هذه
المأثورة

حب الجميع وثق ببعض منهم واحذر فلا تدني المضرة من أحد
وعلى حياتك والصديق كليهما فاسهر وعش أقوى من الضد الألد
وهو يحذرنا ويعيدنا من الحسد ، ذلك الوحش الضاري ، ذي
العينين الخضراوين الذي افترس كثيرين من امثال او تلو . والحسد
اكثر ما يكون بدون داع ولا سبب . وكقوله :

Fury (٤) Siren (٣) Mars (٢) Cupid (١)

تخذ الحسود من الغبار تولوا ورأى كثيراً ما نراه قليلا
والواهيات من الدلائل عنده أوحى بها أو أنزلت تنزيلا
ومن لا ثقة لك فيه فلا تتخذك صديقاً . اما اذا اتخذته
صديقاً فثق به وثوقاً
ولكن مهما كان من أمر الصديق وخيره والعدو وضره ، فان
اعدى اعدائك وأصدق اصدقائك انما هو « نفسك »

الفصل العاشر

المال

قدر المال فوق قدره — التمتع بما لا تملك — الحذر الاولى ليس من
« المال » بل من « حب المال » — الجود غير مقصور على الاغنيا —
فلس الارملة — الوقت آمن من الذهب — الأمن لا يشرى ولا يباع ولا
يسرق وهو الافضل — ثروة الامة — الاقتصاد — المضاربة والطمع —
المقامرة — ازجال تخلق المال . والمال لا يخلق الرجال

كلُّ يعد ملاذ الفنون والعلوم والأدب والموسيقى بين ملاذ الحياة
العظمى ، وكل يعلم ان المال لا يتقص فيها ولا يزيد . والتماثيل والرسوم
يتمتع بجمالها الفني الذي يتأملها كالغني الذي يملكها ، بل اكثر .
« وليس للمالك الا ما نظرت عيناه »

وأرباب الملايين قلما يخلو فكرهم انخلو المطلوب لاجل قدر ملذّة
العلم قدرها . ومن هام في غرام الأدب فقراغ الوقت يعوزه اكثر
من الدراهم . ذلك لان أنفس الكتب ارخصها . وأجرة يوم واحد
تشتري لك ما قد تستغرق سنتك بمطالعتها . والمكتبة الكبيرة ملك
هو خير الاملاك . اما خيراتها فقدر على المطالع المنعكف على قراءة
مجلداتها ، لا على صاحبها الذي ربما كان نصيبه منها الاعجاب
بزخرفة الكتب وتأمل حسن تجليدها . واذا اتفق ان كان صاحب

المكتبة من أهل السياسة ، أو من اصحاب المناصب العالية ، أو من
ارباب الثروة الشديدي الاهتمام باموالهم ، فقليل ما يتيسر له من
الوقت للمطالعة

وبالجملة اننا نقدر الغنى فوق ما يستحق . ودليلنا على ذلك اقوالنا
المتداولة في من رُزى بماله « تلفت حله وساء مآله » وما أشبه .
والصفات ابداً أفضل من البجوحة والترف في المعيشة . وهوراس
عبر عن رأي اهل رومية عامة اذ قال « المال سلطان يمنح القوة » .
وعند الفرنسيين سار المثل « ذلك حسن وجميل ، اما الذهب
فأفضل »

فمن جرّاء فرط المبالغة والمغالاة في تقدير فوائد المال ، اصبح
مجرد الشوق الى وجه الاصفر الزنّان مضرّاً كوصاله . ورب وصال
يحسن بدءاً ويسوء عقبى . بل ربما فاز صاحب هذا الشوق بوصال
محبوبه ، وحظر على نفسه التمتع به خيفة ان يجهنمه او يصدده فيفقده .
والكتاب لا ينذرنا من « المال » كما ينذرنا من « حب المال وعبادته »
وخطر المال يتأتى من ناحيتين . فأولاً انه ينمي ذلك الحب ويزيده
وثانياً انه يغرّ صاحبه فيسرف به ويسيه استعماله بان ينفق في المضرّ
ويحبسه عن النافع : وهالك وداع هاربا كون ^(١) لدراهمه المسروقة :
« اين أنت يا مالي العزيز ؟ أواه قد ذهبوا بصديقي الصدوق —
حرموني اياه حرماناً ، ولم يهجرني هجراناً — ذهب ذهبي ولن

(١) بطل رواية البخل لمولير

يعود . سلبوني دراهمي بل اعواني وتعزيتي وافراحي - قضي الامر .
فليقض عليّ كما قضي عليها . اذ ليس لي بمد فقد دراهمي من مرام في
هذه الدنيا »

يقولون « الوقت ذهب » . والحق ان الوقت اثن من الذهب .
والناس جميعهم واحد باعتبار الوقت . فليس لاحد منا اكثر من اربع
وعشرين ساعة في يومه . واحر بمن ينام ثماني ساعات كل يوم ان
يحسب نفسه عظيماً كاعظم السلاطين وغنياً كأرباب الملايين . بل انه
احسن من هؤلاء . لانه اكثر اتعاباً واقل شواغل فهو ينام
نوماً لذيلاً من نومهم بكثير . ثم احسب ساعتين او ثلاثاً للأكل
والشرب ومهامهما . والجوع احسن مقبل كما نعلم بالاختبار . والعامل
الشغل يلذ له طعامه كائن نوعه ما كان . ثم ان الانسان يحب
امراته وأولاده . والوقت الذي يُصرف معها ومعهم ، فيه لذوي
العواطف من العمال ، نفس ما فيه لذوي العظمة من الملوك . بقي ان
نحسب ساعتين أيضاً للرياضة البدنية ولبس الثياب ونزعها الخ ، والغني
والفقير في هذه الاحوال على حد سواء . ولم يبق الا ساعات الشغل
الثماني أو العشر . والشغل العقلي اتعب من الجسدي كما لا يخفى وهل
هو اوفر لذة يا ترى ؟ ومن يقرأ منشور المحكمة او يتصفح الجرائد
الاميركية اشك في كونه يرضى بمنصب « رئيس جمهورية » بدلاً من
مهنة نجار او بناء . وربما كانت الاعمال العقلية اوفر لذة من الجسدية في
احوال شتى ، انما لا يصح القول انها دائماً كذلك . اما المسؤولية

والعناء فلا شك انهما في الاولى اشدّ منهما في الثانية
ومهما يكن مما مرّ . فليس للغني والقويّ في ثلثي زمنهما وان
شئت فقل في ثلثي حياتهما ادنى صفة يمتازان بها على الفقير . واما الثلث
الباقى فالحكم فيه عرضة للنقض والابرام

✕ يقال احياناً ان لذة الإعطاء والتكريم من اعظم ملاذ الغنى
واطهرها ، وهذا صحيح . ولكن الفقير ايضاً يتسنى له ان يجود ويسخو
وفلس الارملة يساوي دينار الغني من هذا القبيل . فالفرق بين الغني
والفقير من هذه الوجهة اقل من قليل . « لا يستطيع المرء ان يملك الا
قسماً صغيراً من العالم . ولكنه يستطيع ان يتركه بأسره ويتخلى عنه
جميعاً » (١) وكما قال امفيون مرة وهو يتمشى في الاسواق « ما اكثر
الاشياء التي اريدها مع اني لا حاجة بي اليها » . اما من حيث الشعور
مع الغير والرفق بهم ، وهذان اسمى العواطف واثن من المال ، فالفقير
كالغني واكثر . فالدراهم ليست غنى حقيقياً

وكم ممن نحسبهم فقراء وضعفاء من هم في الحقيقة اغنياء ، اذ
عندهم من العزة والشرف والمبادئ القويمة ما يحمل على اكرامهم
اكرام ذوي الملايين تماماً . والشيء الاثمن هو بالحقيقة مالا يُباع ولا
يُشترى . الغنى « اباطيل مزخرفة مطلية ومفاخر فارغة كفقاقيع
الهواء » . (٢) والمثل العربي يقول « غنى المرء انما هو العمل الذي
يأتيه في هذه الدنيا . وبعد موته يسأل الناس اي ميراث خلف ، اما

(١) نيكول (٢) تراهرن

الملائكة فتسأل عن الصالحات التي ارسل بها الى آخرته من أولاده «
وما بال الناس يقدون الثروة بالحياة فيسعون في سبيلها مضحين
صحة ابدانهم وراحة فكرهم والقسم الاكبر من وقتهم ؟ ومتى كان
قنطار المال يساوي نقطة حياة ؟ اما السعادة فلا تباع ولا تشرى .
وأهم موجودات الدنيا هواء نقي وماء صاف وطعام صالح وعافية جيدة
وضمير مرتاح . والمليونى ليس له ان يتمتع بهذه البركات اكثر من
العامل المسكين

وشر ما في الدنيا الألم والاضطراب والحلم والخطيئة ، وهذه
لا يتنى وجودها بمجرد وجود المال . بل ربما كان المال بمجملته ذا جميعاً .
« ينزل الله الامطار ، ويطلع الانوار ، على الأبرار وغير الأبرار .
الا انه لا يمطر مالاً ولا يطلع فضيلة على جميع الناس بالتساوي .
فالمنافع العمومية يشترك بها الجميع ، اما الخصوصية فلا ينال منها الا
الأخيار » (١) . « والقصر الفخيم مظهر من مظاهر العزة والمجد اللهم
ان كان ساكنه عزيزاً شريفاً » (٢)

وما يصدق على الافراد يصدق على الامم ايضاً . فغنى الأمة
الحقيقي ليس بالفضة والذهب في خزائنها ، بل بعدد الصالحين
والاصحاء والسعداء من ابناءها . والامة كالفرد اذا عرضت ذاتها
للهلاك والدمار هلكت وانقرضت . وكأني بالكثيرين يتصورون ان
غنى الأمة لا يمس بتقصان . وهو عظيم حقيقة ، الا انه كغنى الفرد

المعين المحدود . ولسوء الحظ قليل من ينتبه لهذه الحقيقة . وكل بلاد
تقتصد اذا حأت بها الأزمة وضرب فيها الفقر اطنابه . اما الأمة الحكيمة
فهي المقتصدة حتى في ايام سعادها وأوج علائها . فهل امتنا امة حكيمة ؟
اني لأشك في الأمر وارتاب . وقد سبق دانيال دُفُو فقال « الاقتصاد
ليس فضيلة انكليزية » . والغنى بدون حكمة معدن لا قيمة له مطلقاً .
واليك قطعة من أمثال الملك ألفرد تشير الى ما نحن بصددده . « هكذا
يقول ألفرد . لا قيمة للمال بدون الحكمة . لانه ولو كان لانسان
سبعون فداناً من الارض ، وزرعها ذهباً احمر ، فما ذلك الذهب كما
ينمو العشب ، ظل الغنى عنه بعيداً وغريباً لا يعرف له وجهاً . وما
الذهب الا الحجر الا اذا كان في يد الحكيم العاقل »

ولقد عبد الاسرائيليون من الاوثان اشكالاً وانواعاً ، اما العجل
الذهبي فكان ادعاها جميعاً للسخط السماوي على قوم موسى

وفائدة المال الذاتية انما هي كفوئنا مؤونة الاهتمام والعناء للحصول
عليه ولكن اذا كانت النتيجة اننا كلما فرنا بشيء منه زدنا اهتماماً
واضطراباً فتنابها من نتيجة . والمال تجربة عظيمة . يغر المرء ، ويزين
له التمرغ في احوال الملاذ الباطلة . وكثيراً ما يبلغ الغرور بالأغنياء
مبلغ ان يعتبروا الفقراء كالرصيف يدوسونه . اما الفقر فكل ما يلزم
معه فضيلتان — هما الاجتهاد والصبر . والرجل الموسر اذا خلا من
سجايها الاحسان والاعتدال وحسن التدبير كان ابداً رهناً للخطر
والهلاك . والتاريخ يفيدنا جلياً كم من الأخطار تحديق بالقوي والغني .

والملك سليمان ختم حياته زنيماً كثيباً . والبعض من ملوك الرومان
احسنوا ابتداء حياتهم وشبوا على الاستقامة ، الا انهم ما ارتقوا
عروشهم حتى تبدلت احوالهم ووخم ما لهم . ونبوليون ايضاً مات ميتة
المتناهي في حب الذات

يشبه فنلون من يضحى نفسه في سبيل الثروة والمجد بمن يركب
مركبة زاهية فاخرة رغماً عن علمه انها ستري به من اعلى هوة عميقة الى
اسفلها . وفنلون لم يكن ليحتقر الاقتصاد المعقول على ما أرجح . ورب
ذي بصيرة يُبصر ، وذي بصر لا يتبصر

اذا كنت في ايام شبابك تشتري ما لا حاجة بك اليه ، فستضطر
بعد المشيب الى بيع ما لا غنى لك عنه . فالحكمة تقضي بان نعيش في
شبابنا بحيث نكون في مشيبتنا احراراً من ربة الدين وكل قيد مالي .
واذا حسن بك ان تنفق من نتيجة الامس ، فها هو بالحسن ان تصرف
مدخول اليوم الذي انت فيه . فكيف بمن يُنفق نتيجة غده قبل
الحصول عليها ! فلا حرج اذاً ان قلنا ان مُسرف اليوم شحاذا الغد
يقال ان ربلايس أوصى بما يأتي ساعة موته « ديوني كثيرة .
لست املك شيئاً . والباقي اتركه للفقراء »

واذا تعاطيت التجارة فلا تتعجلن الاثراء ولا تضارب مغترأ
بعضيم الارباح والمقامرة اياً كان نوعها فالخراب والدمار نهاية امرها .
اما الارباح الخفيفة فهي التي تصير الكيس ثقيلاً . ولا تنس في ايام النعمة
والتوفيق ان ايام البؤس قادمة اليك . واذا احل النحس بايامه فذكرى

ايام السعد خير عزاء ، وانتظار عودتها خير رجاء
 واعتبر ايضاً باصحاب الاراضي والاملاك الواسعة . وكثيرون
 من ابناء وطننا يقضون الاشهر بطولها وهم ينتظرون بذهاب الصبر
 ان يمضوا شهراً او شهرين في بلاد سويسرا على شاطئ البحر او
 سطحه ، ولا يخطر ببالهم مرة ان تلك الجبال والسواحل والأمواج ليست
 لهم ملكاً شرعياً . فامتلاك الاحراج والحقول والانهار ، ربما عاد علينا
 بدخل يذكر ، ولكن هذا لا يزيد شيئاً في لذة مرآها والعيش فيها
 وعاشق الطبيعة يتنهج بمنظر الجلد نهاراً ، والقمر والنجوم ليلاً ،
 وبشروق الشمس صباحاً وغروبها مساءً . ومُلك من هذه يا ترى ؟
 واذا كان المضيف يمتاز عن ضيوفه بشيء فما هو الا انه المضيف
 وهم الضيوف ، ولا فرق بينه وبينهم في الوان الطعام واشكاله . والفقير
 يلذ له زاده البسيط اكثر مما يلذ للتاجر طعامه المتقن . ولما كان آدم
 وحواء في فردوس النعيم ، نعم كانت تنقصهم وسائل البذخ والشرف
 الا ان عذابهما لم يكن الا من شوقهما الى جني ثمر المعرفة قبل اوانه
 والأموال تزيد الناس غناء واهتماماً بخلاف الفقر . او كما يقول
 المثل الافرنسي « مال قليل اهتمام قليل » . والاموال بركات اللهم
 على المحسن القيام عليها . فهي عبيد الحكماء ، وظلمة الجهلاء . والسلاسل
 سلاسل ولو صيغت من ذهب . اما الطماع فلا يعرف الشبع . وكنوز
 العالم باسره لا تسعد بخيلاً طمعاً
 قال بايكون « عندي ان المال للفضيلة ليس الا بمنزل « الارزاق »

للجيش . فلا بد له من المؤونة اذا زحف ولو انها تؤخره وتعيقه
زحفاً وتبدد قوته كراً وفرّاً . والمال ان جمع فنفعه في تفريقه . وما
حُجِر عليه وحبس في الخزينة فسرقة مخفية لا اكثر »

لما قيل لا آجس ان بعض المساكين يحسدونه على ثروته وماله ،
اجاب « اذا امتعاضهم امتعاضان - الواحد من فقرهم والثاني من
نعيمي » وما أغناهم عن الثاني

سئل مرة ثيوستكليس عن رأيه في أي أفضل - تزويج الأب
ابنته بـرجل رجل الا انه فقير ، أم بغني أقل منه شئمة ورجولية .
فاجاب « لعمرى اني بلا ريب افضل تزويج الفتاة بـرجل لا مال له
على تزويجها بمال لا رجولية معه »

الفصل الحادي عشر

الخوف من الطبيعة

الخوف من الطبيعة — المذنبات والخسوفات — آلهة الوثنيين —
السكر — المتوحشون — الرومان — الفلزية — النجوم والسيارات —
الارواح — عدم الاكتراث بالطبيعة — مدام دي ستايل — كولد سميث —
جونسن — تنسون وقاوة الطبيعة — الموت — العلم والطبيعة

كثيرون منا يعجبون بالطبيعة ويمجونها ويعترفون بفضلها ،
وكثيرون لسوء حظهم لا غير ، لا يعبأون بها ولا يكثرثون لها . بيد
انه يشق علينا نحن ابناء القرن العشرين ان نتصور معظم الرهب من
الطبيعة الذي كان مستولياً على بني العصور الخالية ، ولا يزال سائداً
على المتأخرين من الشعوب المعاصرة . ففي تلك الازمان لم تكن
المذنبات والخسوفات والكسوفات وحدها مما كانوا يحسبونه إنذاراً
بالشر ودلالة على الغضب الالاهي السماوي ، بل مظاهر طبيعة أقل
من هذه شأنًا كانت توحى اليهم مثل ذلك وتلقي الرعب في قلوبهم .
فاذا دوى الرعد قالوا صوت المشتري او هبت الانواء وهاجت الامواج
فسخط نبتون . على ان الشك الذي كان يخالج نفوسهم في مزاعمهم
كان أدعى لخوفهم من تلك المزايم نفسها

والمتوحش يفسر الحركة بالحياة . فيعبد الحجارة والجبال والنار
والماء لزعمه ان هذه الجوامد تكتم ضغينة ضد بعض الناس لما فرط منهم .
وفي جزيرة نيكوثر جبل يتحاشى السكان ذكر اسمه خيفة من انه
يغرقهم في قرار البحر اذا فعلوا

والهمج لا يزال يعتقد في السحر والعرافة ، وكذلك غير المهذب
من بني الحضارة ايضاً . ففي عموم نواحي استراليا وعند بعض القبائل
البرازيلية ، وفي بعض جهات افريقية ، يُعتبر الموت الطبيعي امراً
مستحيلاً . وفي جزائر هبريد الجديدة اذا مرض انسان عرف ان
ساحراً ما يحرق متلفاته ، فاجتمع ذووهُ ينفخون في ابواق صدفية
تسمع لأميال ، اشارة للسحرة ان يتوقفوا عن عملهم ريثما يوثون
بالتقدمات والهدايا

والقبائل المتوحشة تخاف الصور والرسوم خوفاً شديداً . فلا يرضى
الواحد منهم ان يرسم مطلقاً لزعمه ان راسمه يتسلط عليه ويصير ولي
امره . « وكاين » تخلص مرة من زمرة من الهنود تعاقبت باذياله بقوله
« ارسمكم الا ما ذهبتكم » . وقد ذكرتُ في كتابي « أصل المدينة »
الخطر الشديد الذي أحرق بكاتلين على أثر رسمه جهة واحدة من
وجه أمير قبيلة لظن قومه انه سرق نصف وجه الأمير . والناس
يتوهمون ايضاً ان هنالك علاقة عجيبة بين خصلة الشعر وبين صاحبها
والسحرة في انحاء المعمور المختلفة اذا تحصلوا على شعرات من رؤوس
اعدائهم ، او على قلامات من اظافرهم ، او على بقايا من طعامهم ،

ظنوا ان كل ضرر يحدثونه بها يمس اصحابها لا محالة . بل حتى القطعة
من ثوب وآثار القدم من طريق تستخدم لهذا القصد احياناً . وعند
بعض القبائل مجرد معرفة الاسم يخوّل المرء سلطة على صاحبه
وهنود كولمبيا البريطانية يحذرون شديد الحذر من ذكر اسمائهم
والتصريح بها للجميع . فهم يُعرفون بالقباهم الا عند الاهل والاقرباء
والاعزاء من الاصدقاء . فاسم الفتاة التي اشتهرت بجهاها ولقبت
La Belle Sauvage لم يكن Pocahontas بل Matokes الآن
عشيرتها اخفت اسمها الحقيقي عن الانكليز . وحسبما قال وارّد ،
تصرّح المرأة باسم زوجها يُعدّ جريمة لا تغتفر في بعض جهات الهند .
وذكر اسماء الموتى محظور لا يُتصدّى له في كثير من اقطار المعمور
كشمالي أميركا وجنوبيها وسيبيريا وأستراليا وشتلاندا . وفي شتلاندا
تحذر الارامل شديداً من ذكر ازواجهن بشيء . فالتوحشون يرون
ذواتهم أبداً عرضة للممات بسبب من الاسباب التي تخفاهم . ولا غرو
ان قلنا ان خوف المجهول أشبه بسحابة سوداء مكدرة لكل صفاء .
وعليه فالعذابات الفكرية التي يتحملونها والآلام الشديدة التي يقاسونها
والذنوب التي يرتكبونها ليست الا سويداء بالغة اقصاها

والخوف من القوى الطبيعية لم ينحصر في المتوحشين وحدهم
فالرومان مثلاً كانوا يشعرون بهزة خوف لدى كل مجهول يعرض لهم
فكانوا من اجل ذلك يدعون وجود أشياء غير معقولة الوجود يعتبرونها
بمقام الآلهة . اما اليونان فانهم بعكس الرومان اجتلوا الغامض وفسروا

المجهول ، فابتدعوا تلك الخرافات والحكايا وضمنوها علائق الاحياء
بالطبيعة « (١)

ويقال ان اسم رومية الحقيقي كان «ثالنسية» الا انه لم يصرح
به خوفاً من سحرة الاعداء وعراً فيهم . وثالريوس سورانوس الذي
باح بالسر حكم عليه وأعدم اعدام الخائن
وحتى الآونة الأخيرة ظلت النجوم والسيارات تُعتبر ذوات
تأثير عجيب وسيء على البشر لا قبل لهم برده عن نفوسهم
وفي الأجيال المتوسطة كانوا يعتبرون الايذاء والاثار وتعمد
الشر من صفات الارواح حتى الجميلات منهم كزهرة تنهوفر التي
كانت مجلبة للخطر بجهالها . اما الجبال والغابات والبحيرات والبحار
فكانت لهم مسكن الوحوش والجبابرة والغيلان والسحرة والشياطين .
وهذه المخاوف مع انها وهمية لا اكثر كانت تؤثر على افكار القوم
كما لو كانت حقيقية تماماً . ومن جملة الأوهام التي سادت على عقول
الناس في العصور المظلمة اعتقادهم انه اذا ذوّب خاتم شمعي منقوش
عليه اسم صاحبه أصبح هو ايضاً عرضة للهلاك . ولكن نور العلم
الساطع اليوم قد بدد ظلمات الجهل وقضى على هذه الأوهام
قضاء مبرراً

ومع ان مناظر الجبال اليوم تستفد اعجابنا وابتهاجنا ، فقد كانت
مصدر الرعب والخوف لأجدادنا السالنين . وليوناردو بروني يقول

في سياق الكلام عن سياحته في ارلبرج « رهبة بل خشية كانت
تعتريني كلما نظرت الى تلك الجبال الشامخة والصخور الشاهقة. وحتى
الآن لا أزال اذكرها والخوف ملء نفسي » . واليك طلبه راهب
من كنتربري قلها عند ما عبر سانت برنارد ذاهباً الى رومية (سنة
١١٨٨) « ردّني اللهم الى ما بين اخواني فلو صيهم الا يمرّوا بهذا
المكان فيذقوا عذابي »

والقدماء قلّ ما كانوا يعرفون قيمة المناظر الطبيعية اذا هم سلموا
من خوفها . فالازهار والاشجار والجبال لم تكن في عيونهم الا اشياء
مألوفة الوجود لا اكثر

قل أخذت مدام دي ستايل الى محل اسمه شاموني وما كادت
تصل حتى قفلت راجعة وهي تتساءل . « أي ذنب جنيته في حياتي
فجوزيتُ بزيارة هذه البلاد المخيفة ! » . ويروي انها قالت مرة لمحدث
« انني لا أسوم نفسي مشقة فتح النافذة لأشرف على خليج نابولي مع
اني بكل سرور أسافر مسافة ١٥٠٠ ميل لأسرّ بمحادثة رجل كبير
ولو لم تسبق لي معرفته »

ذكر نيكول الكاتب الفرنسي في احدى « مقالاته الادبية »
انه ليس من ينشئ جنينة بقصد التمتع بمنظرها . فالناس ينشئون
الجنائن والحدائق لأجل المظهر والابهة لا غير
وكولد سمث فضل مناظر هولاندا على مناظر اسكوتلاندا متذمراً
من كثرة الصخور والجبال في الأخيرة ، لانها تصد نظر المسافر

وتقف في سبيل طرفه فلا يسرح
والدكتور جونسن عد الطريق الى انكلترا اجمل منظر في
سكوتلاندا

قال كلبن في مصنفه عن جبال كهبرلند وبحيراتهما (١٧٨٨) :
« بالحق قيل عن بحيرة وندر مير انها ذات الجمال في حضن الرهبة .
اما الجبال التي توئم الطرف بقممها وروؤوسها المخالفة لجمال البساطة
والعظمة ، فاذا شوهدت من بعيد فقدت تلك الضخامة والعيوب جميعاً
واكتست من الجمال ثوباً قشيباً لا يُعهد لها »

اما إذا أردنا ان نشعر بجمال الجبال الحقيقي فلا يكفي ان نعجب
بها اعجاب شاعر ، بل يلزمنا ان نعرفها معرفة عالم ايضاً . وقد قال
ثيو بالد « لا نزال نجعل ماهية الجبال حتى يتجلى لنا تركيبها الداخلي
تجلى البلور للعيان »

وكم من الناس من يغضون الطرف او يغمضونه عوضاً عن ان
يميلوا به ذات اليمين وذات اليسار فيعيشون ولهم عيون وكأنهم لا
يبصرون . فمثلهم مثل « پيتر بل » :

كم تمشى ما بين سهل وتل ومجارٍ وكم تفتياً ظلاً
أي وادٍ ما زاره أي كهف ما اتاه عن أي غاب تخلي
سكن الحقل والطبيعة لكن حبها ما درى لجنييه سبلاً
ولا إخال تنسون قد أصاب كعادته اذ قال : « دامية هي برائن
الطبيعة ومخالباها » . وهل في الطبيعة كل هذا العذاب !! اني لا ارى

ذلك . والموت الفجائي الذي يدهم الحيوانات خصوصاً ليس فيه من العذاب ما في الداء العياء العضال . وحب الحياة وخوف الموت يظهران كدليل قاطع على تساوي الكفتين من ميزان السعادة في الحياة . وانا لمرتاع لوصف ميتة شنيعة من مثل القتل والشنق . الا ان كل ميتة شنيعة بالحقيقة . ولكن الموت الفجائي وهو نصيب أغلب الحيوانات أخف آلاماً وأقل عذاباً . واليك وصف لثنستون لمعركة وقعت بينه وبين الأسد : « كنت على رأس تل صغير واذا بالأسد قد اعتلى كتفي فانقلبنا معاً الى أسفل ، وأصبحت من حيرتي ودهشتي اشبه بالفار وقد وقع بين مخالب الهر . فاستغرقت في حالة سبات وحلم وبت لا اشعر بألم ولا رعب مطلقاً مع اني كنت واعياً مشاهداً لكل ما يجري بي . وبكامة لم يجد الخوف الى قلبي سبيلاً ، فكنت اتفرس مفترسي بدون ادنى خوف او رية . ولعل هذه هي حالة كل الفرائس التي تنشب فيها الأظفار وتمزق إرباً »

وقد وصف همبر سقوطه من محل مرتفع وقال : « كنت أعد تلك القفزات والطفرات الهوائية واحسبها غير مزعجة ولا مؤلمة . على انه لو طال بي المجال لكنت فقدت الشعور وودعت الحياة . فها أنذا الآن اعتقد ان الموت بسقطة من محل هائل الارتفاع من الميتات الأقل آلاماً من غيرها »

والموت غرقاً ايضاً من الميتات السهلة بالنسبة لغيرها . وهذا

أقوله عن اختبار شخصي . فاني غرقت مرة وخبرت الفرق ^(١)
والحيوانات لا تهتم ولا تضطرب بالأعلى ما ارى فقليلة هي
عذاباتها في كلا الحياة والموت . والعلم ما انبأنا بذلك . وبفضله قد
بتنا نعرف قيمة الطبيعة ونتمتع بها . والعلم لم يقشع عن افكارنا غيوم
السحر والعرافة فقط بل انار قلوبنا بحب الطبيعة حباً نحسبه نعمة
عظيمة

(١) والمغرب ايضاً غرق مرتين . فهو يؤيد المؤلف عن اختبار شخصي

الفصل الثاني عشر

حب الطبيعة

كل مهم وضروري عادي الوجود — الولوع بجمع الحشرات والازهار —
المجموعة ككتبة — مسائل الطبيعة — درس طبائع الحيوان — وصف رسكن
للسنجاب — للحية — للازهار — الجلد — الليل — كلمة في العلم — الطبيعة والجمال —
الطبيعة والالوان — البحر — الاوراق في الخريف — ارضنا — يد الطبيعة
والجمال — الطبيعة كصديق — الطبيعة والسلام

حبذا لو كان الربيع لا يجيء إلا مرة في الزمان ^(١) والشمس
لا تشرق وتغيب إلا مرة في العام ، وقوس قزح لا يظهر الا يوماً
كل مئة عام ، او لو ندرت الازهار ندور الياقوت وقطرات الندى
ندور الماس — اذاً لراعنا جمالها واخذ منا الابتهاج كل مأخذ
نراها كثيراً ونأبه لها قليلاً . وهل يشينها انها اعتيادية مألوفة
او اننا نمنحها بلا مقابل ؟ على اننا اذا رضنا انفسنا على حب الجمال
نزيد بها اعجاباً ولها حباً . وقد لاحظ غوته ان الناس يحولون
انظارهم عن قوس قزح اذا دام اكثر من ربع ساعة كأنهم يملون
جماله . ولا خفاء ان المؤلف من الاشياء افضلها وأكثرها ضرورة

ويروقه من كل وادٍ زهره نظراً ويشجيه غناه نسيمه
وكانه من شمسٍ وسماها يختال في فردوسه ونعيمه
« ليس الجدير بالاهتمام في هذه الدنيا من الأمور غير
الاعتيادية »^(١)

وعجبية هي الأزهار بالوانها واشكالها ، ولا بدع فالطبيعة هي اليد
اليد المتفتنة التي صاغتها في قالب الجمال الفاتن للبصائر والابصار
وحتى اسماء الأزهار والنباتات تطرب السماع كما يروق منظرها
النظر ورأى تحتها الشم . والوانها الجميلة من بيضاء زاهية وحمراء وردية
وبنفسجية وبرتقالية تلذ للعين والاذن جميعاً . وعاشق الاغصان
والاشجار اذا ضاق به الزمان ذكر تنسون وقوله :

أفعمت الغابات بالألحان وقعها الطائر في الافان
وكل ما سمعته اشجاني وما رأيت راق للعيان
دخلتها والهم في وجداني فلم يعد للهم من مكان
زعم شيشرون ان الانسان لا يستطيع ان يشعر بجمال الجبال
الا اذا كانت في وطنه فاحبها من اجله ، او اذا ألفها نظره بعد ما
جاورها مدة من الزمن . واما نظر تنسون فاقرب الى الحقيقة لانه
عشق جبلاً خارج بلاده وقال في احدها وهو « موتاروزا »
للله واديه ووارف ظله ولجين ثلج قد كسا اطرافه
وأشعة ذهبية تلقى على فضيه ... أعرقم اوصافه ؟

والكاتب الشهير روسكن كثيراً ما يتغزل بجمال الطبيعة بمثل قوله : « هنالك كهف لا تضيره السيول ولا الامطار وهنا جبل لم يحن رأسه لصاعقة ولا لعاصفة » . وحكيم هو القائل : « لنرفع بصرنا الى الجبال من حيث يأتينا العون » . والحق يقال اننا مدينون للشعراء بمثل ديننا للعلماء ، لأنهم يعلموننا حب الطبيعة وعشق جمالها . « والجبال تجود على الجداول بمائها وعلى الجو بنقي هوائها ، ولها دون هاتين منافع اعظم واسمى . فانها تروي غلة المشتاق لرؤيا صنعة يد الله وتغعم القلب والنفس ابتهاجاً واعجاباً ووقاراً . وهي المباني الفخيمة الشاهقة ، تأوي اليها من الزوبعة فترحب بك وتلتجى الى ظلال اشجارها فتوهل ونهل وتسمعك حفيفاً لطيفاً وتحتفي بك ضيفاً . واذا جلت بنظرك بمنة ويسرة الفيتها مزدانة بالنقوش والرسوم وما هي الا الازهار كست اطرافها بساطاً سندسياً وتركت منظرها فاتناً سحرياً ^(١) »

وما قولنا في انساء ؟ وحسبنا اسمها جمالاً . ومليكة النهار اذا ارتفعت بموكبها الوهاج بهرت ابصارنا واخجلت نواظرنا . وحسبنا ما نشاهد من جمالها قبلما تطفر من احشاء الظلام غزالة ، وبعد ما تنقلب من سمتها الى افقها جونة ، وقد سقتنا من لعبها الذهبي راحاً تسكر النفوس . اما اذا غابت وغرقت في البحر او ضلت في غابة علمنا اذ ذاك انها هي التي نخفي عنا ملكات اخواتها في السناء يتحجبن في النهار ويسفرن في المساء

واذا ما الظلام أرخى سدوله* برز البدر والكواكب حوله
وانبرى كالخطيب يخبر هذي الـ أرض تاريجها ويحصي حووله
والدراري والزهر تصغي حيارى وبعرض الافلاك تنشر قوله (١)
وكان الليل معهد السلام والراحة :

ألا فاجلسن* قربي على ضفة النهر
وقد أصبحت مهداً لانوار ذا البدر
وهذا خرير الماء تلحين مريض
حنون تغني من شعور ومن شعر
وهذا سكون الليل حباً يسدره
سكون به نام الحبيب بلا ذعر (٢)

قال سانت بسيل « واذا كنت تقف بالسماء مرة وتجمل طرفك
في تلك القبة الزرقاء وفي ما يزينها من درر النجوم وازهار الدراري
ومواكب الكواكب وسناء السيارات وبهاء الثوابت ، ثم تفكر برفع
تلك القبة ومبتدع حليها وناظم نظامها - قلت اذا كان هذا جمال
العالم المادي الزائل فكيف بمجمال عالم الخلود !! » وقد قيل ان السماء
تظهر مجد الله وعظمته لا حنانه ورأفته . ولكنني لا اوافق على ذلك ،
فانها تظهر كليهما جميعاً . « يأمر (الخالق) نسيم الصباح فيمد البساط
الزمردي ، والسحاب فتسقي اطفال النبات في مهدها . ويلبس الاشجار
من الاوراق ثوباً قشيباً ، ويكال الاغصان في فصل الربيع بتيجان

الاثمار . وبحكمته وقدرته تحول النحلة عصير الازهار الى قطر الشهد ،
وتبرزغ النحلة من النواة وتنمو شجرة باسقة ^(١)

قضت عجيبي تلك المناظر انما

تساءلت هل هذي هي الكون وحدها

فادركت اني لا ارى غير ما بدا

وكم خافيات لا ترى لنعدّها

اما وردسورث فلم يجد كعاداته اذ قال : —

دع العلم خل الكتب عنك فما عسى

تضم من الاكوان في صفحاتها

وقف بي بقلب لا يضيق اذا عجيبي

بانعام دنيانا وجل هباتها

ولكان أجمل به لو أتى ارباب الفنون ورجال العلوم من غير

هذا الباب وورما هم عن غير هذا القوس . فاننا لا نزال في شديد الحاجة

الى مواصلة البحث والتنقيب توصلاً لمعرفة المحيط الذي نعيش فيه .

« واما الارض بالنسبة الى الكون الا بمقام المحراب من الهيكل » ^(٢)

وما نحن الاعلى الاعتاب من ابواب الاكتشافات وكم علينا من

مشقات بعد في سبيل معرفة الطبيعة قبلما نستطلع اسرارها . وأي

حيوان أم أي نبات نحسب درس طبائعه لساعة من الزمن مما لا طائل

تحتة ؟ وانه ليحزنني جداً أن ارى أبناء وطني تائهين عن مورد عذب

للسعادة لا يقصده الا الراغب في البحث والعلم — ولكنهم لا يعلمون
نقول ان الانسان خلق للاحزان والآلام ولكنه لم يخلق
للكمول والقنوط . ومن احب العلم فقد نجا من شر هاتين الآفتين .
ومن لم ينج فلوومه على نفسه . فكل حقل وكل غابة وكل حديقة وكل
جدول بل وكل حوض يسر ذا البصر ويسري عن نفسه . ولو
عرف الناس لذة الجلوس في البرية واطراق الرأس بالتأمل والتفكير
لما كانوا يولعون بالتردد الى الحانات حيث تضع اوقاتهم وعقولهم معاً
ولو دروا ما هي الرغبة في العلم وما غرامه لما كانوا يعمدون الى المقامرة
والمراهنة تهيجاً لمواطنهم ونجاة من خمودها . والعلم لم يخرب احداً
ولا اهلك احداً . وما ارققه بمحبه واكرمه عليه . وترى في أخبار
الجن ان بعض الارواح تعشق أنسياً وتغمره بهداياها وعطاياها .
والطبيعة مستعدة وبكرم فائق تعامل عشاقها . وفضلاً عن كونها معدن
الجمال ونبعه انها مهبط الوحي والالهام . وقد قيل ان بوذا طلب الحق
فاعتزل البشر وخلا بالطبيعة وتوسل اليها ان تساعد في شأنه

ولا حرج ان قلنا ان رؤسكن أحب الجمال حتى كاد يعبد .
ولا ريب ان كتاباته لم تُعَدِّم تأثيراً على افكار قارئها ، فعلمتهم كيف
يُعرف الجمال وكيف يُحب . وهو يشدد النكير على شر لزعمه ان
الجمال لا يؤثر على النفس تأثيراً يحملها على القيام بالواجب ويقول « لا
يسع المؤمن وقد خلا فكره من كل اضطراب ان يمر بزهرة أو غصن
او حجر او يسمع صوتاً ما الا أن يستمد من الطبيعة قوة ورجاء . »

والطبيعة تُفعم القلب فرحاً وابتهاجاً والنفس عجباً وعرفاناً .
وقد نختلف آراء ومذاهب في العالميات والدينيات ولكننا ابدأً بمجمعون
متفقون على بهجة الربيع وبهاء الصيف . والربيع اذا عاد جاءنا
بنسمات حياة جديدة

واذا الربيع اتى ونور زهره رقصت قلوب العالمين حورا
ولكن واأسفاه كم من الناس من يعيشون فوق ظهر الارض
ويقبرون في جوفها وكأنهم لم يروا شيئا منها ولا عاشوا فيها
وكأني بتشارلس لامب لم يقصد بقوله التالي أن يؤخذ مأخذ
الجد . «ولا يظن ابن لندن ان الصحة والراحة والعمل الذي لا غبار
عليه ، ومجازبة اطراف الحديث ، والانعكاف على المطالعة المسلية -
تزيد العيش في القرية طيباً وحلاوة . فما هي الا تسلبه طيبه وحلاوته
والجنة بقيت سجنًا وحبسًا حتى أخطأ ساكنها وخرج منها »
اما كيتس فقد ألهم حكمة اذ قال :

ومن طال في قلب المدائن مكثه وقوس منه ألهم صدراً وأضلعا
فأخلق به أن يرفع العين للسما ويبحو لتعظيم الفضاء ويضرعا
فللقبة الزرقاء وجه اذا بدا تبسمه راق النواظر مظلعا
ولكن ويح الانسان ! فكم حوائل تفصل بينه وبين الطبيعة
والحقيقة . اعتبر ذلك بطبقات العين والاعصاب والدماغ والهواء
والغبار والمطر ، وبحالة المرء الصحية من انتظام هضم ودورة وموية .
وبكلمة ، كم تحول حالات عقلنا وجسمنا ما بين النفس والطبيعة

وبقدر ما ندرس الطبيعة يزيد تلذذنا بها وتكثر معرفتنا عن كمال
 علمنا هذا وعجيب نظامه . وانا لنعجب من الفيلسوف روسو أن
 يقول : « لا جميل الا غير الموجود » — لان الحقيقة عكس ما يزعم .
 وصحيح ان بعض الاشياء اجمل من بعض ولكن الطبيعة كلها جميلة
 وهو الانسان من يترك جميلها قبيحاً بمحاولته تقليدها واني له أن يضاهيها
 وغالباً ما تكون الافكار والتأملات التي تقوم بنا لدى مشاهدة
 بعض الاشياء اجمل من تلك الاشياء نفسها . والكون بأسره يزيد لنا
 جمالاً بقدر ما نعمل الفكرة ونطيل التأمل في احواله . وقد قال مارتينو
 « لا عالم أقدم من علمنا أو اقرب منه ليد الباري تعالى . واني لعالم
 آخر أن يحتوي على ما في علمنا هذا من اسرار عميقة تنهيبها ونوقرها ،
 وعواطف وشعائر تحملنا على معرفة الحقوق والواجبات » . وقال
 الامبراطور آكبر : ما أعظم البساط الذي مدته يد المكون العظيم
 وما أجمل الالوان التي وشي وطرز بها « وقال جوبرت : « كأني
 بالسنة وفصولها الاربعة اكايل يُضفر من الازهار والاشواك والاثمار
 والاعشاب اليابسة »

وكثيراً ما يؤخذ المصورون والرسامون على محاولتهم مضاهاة
 الطبيعة بتكثير الالوان الزاهية البراقة . والطبيعة هي ام الجمال . وهي
 أحذق ما يكون في انتقاء الالوان وتنسيقها بحيث تجيء متناسبة وآية
 في الجمال

كتبت مرة مدام دي سثيني الى ابنتها تفيدها انها قد قصدت

القرية لتودع الاوراق التي يآزف فراقها اذا ولى الصيف وحل
الخريف — ومن جملة قولها . « لا تزال الاوراق كاسية لاغصانها ،
انما قد تغيرت ألوانها فقد مالت الى الاصفرار بعد ذلك الاحضرار
وصارت أشبه بالنضار ، أو بالشمس المختلفة الانوار بين شروق وغروب »
الى أن تقول : « ويا عزيزتي كم يغلب أن نمر بمثل هذه المناظر وكأننا
عمي أو بلا نواظر ، فلا ننتبه لها ، أو اذا انتبهنا ما تأملناها لتفقه مغزاها .
ان الطبيعة تكلمنا وتريد ان تعلمنا ولا نفتأ من جهلنا نحسب الجليل
قيحاً والقبيح جميلاً والخير شراً والشر خيراً »

وان لكل من الفصول الاربعة ولكل ساعة من الاربعة وعشرين
جمالاً مستقلاً . ولكن هذا لا يمنع من حدوث ما يميز ظرف زمان عن
آخر وينبئ ابدأ على الرفع في نفوسنا . ورب ساعة يحسبها عائشها هدية
من السماء يتحف بها . .

ساعة خلتها اتني كوحى هابط منزل بهذا الفضاء
اقشعت شمس أنسها غيم همي فكأنني بها سناء السماء (١)
والاولاد غالباً ما ينفثون على حب الطبيعة وتاريخها فتراهم لذلك
يولعون باصطياد الحشرات وضم الازهار . وحاشا لي أن أنكر عليهم
هذا الولوع ، فان المجموعة اشبه بالمكتبة ، يتردد اليها صاحبها ويتعهداها
بالدرس والملاحظة . زد على ذلك ان زيارة المتاحف العمومية مباحة
للجميع فيمكننا ان نقتنم الفرص ونزورها بقصد درس الطبيعة وخلاتها

يسر الصغار بل والكبار ايضاً بشراء تلك الالغاز والاحاجي من
الخوانيت ويلتذون بحلها ويتسلون بتداولها . فليت شعري : كم
تعرض الطبيعة علينا من الغاز وأحاجي ولا تطلب منا بارة قط
وما قولك في أمثال الاواني : (١)

لماذا الجبال في القطر الشامي اكثر منها في المصري ؟
لماذا لا يتحول النيل عن مجراه ؟ ولماذا يفيض في أوان ؟
لماذا تكسو الثلوج قمة صنين ؟
كم عمر النيل ؟ ترعة السويس ؟
لماذا يكون شكل ورقة العنب غير شكل ورقة الموز ؟
لماذا ينام بعض الزهر ليلاً وبعضه نهاراً ؟
لماذا يغلب ان تكون الازهار الضارب ياضها الى الصفرة طيبة
التشركية الرائحة ؟

لماذا تختلف الحيوانات لوناً ؟ فالنمر مقلم والفهد أرقط ، والاسد
اسمر ، والنعجة غبراء والدودة خضراء ، الخ الخ
الوف كهذه الاسئلة تقوم في نفس ذي البصر والبصيرة ، فيجيب
على بعضها والبعض يبقى سؤلاً مجهول الجواب
وكثيرون من الناس يقتنون المدلالات من كلب او هرير بونه
ويعتقون به ، غير انهم لا يدرسونه ... اي لا يلاحظونه ملاحظة

(١) تصرف في تعريب الاسئلة الجغرافية توكياً لفائدة المطالع السوري
والمصري
المعرب

العالم الباحث . والعالم الفرنساوي ديكارت ذهب الى ان العجاوات
آلات تشتغل لذاتها ، وهكسلي لم يظهر الا الشك في الامر . اما انا
فاختباراتي وملاحظاتي أدت بي الى الاعتقاد ان للحيوان مسكة من
الفهم والعقل وكم قيل لي ان الكلاب تدرك وتعقل كبعض الناس
ولكن اذا سألت القائل (هل يعرف الكلب ان ٢ و ٢ = اربعة)
كان جوابه مشكوكاً في صحته . وهل يسر الكلب او الفيل برويا
الجميل والظريف ام لا ؟ الامر مبهم والبحث لازم

واذا عدنا للازهار والنباتات ، فكم من مسألة تطرحها الحقول
علينا ؟ خذ البذور التي تزرع فتبزغ نباتاً وشجراً . ثم خذ الاثمار
التي تزين الغصون . وقابل بين حجم البذرة والبذرة وشكلهما وبين
شكل الزهرة والثمرة ولونهما وجرب ان تعرف لكل اختلاف سببه ،
اذ لا سبب بدون مسبب . وهاك كلمة روسكن في الاوراق :
« غريبة هي اشكال الاوراق التي تنزيا بها الاغصان . فمن ورقة
اشبه بنجمة ، واخرى بقلب ، واخرى بخرقة ، واخرى بسهم ،
واخرى بسيف . ننظر اليها فتعجبنا وتروقنا وتقوم فينا التخيلات
المختلفة . فمن ورق ورد نحسبه رمزاً للمحبة وزنبق نشير به الى الطهارة
والعفاف الى غير ذلك . فهلم الى الطبيعة ندرسها ! »

كل نهر وكل حقل وكل واد وكل تل يلقي علينا مسأله .
فاحر بمقولنا ان تشتغل بحلها وبنفوسنا وقلوبنا ان تبتهج بمعجبة بتلك
المناظر التي تلقيها بل توحىها

وكم من حيوان نفل لا نعرف له شأنًا حتى يقوم كاتب كرسكن
يصفه لنا بمثل ما وصف به السنجاب^(١) — قال : لا اجمل منه منظرًا ،
او اسعد عيشة او اعجب امرًا . غفيف نزيه في امور معيشته وطعامه .
لعوب كالهر الا انه لا يؤذي . خفيف الحركة كالسعدان الا انه
رشيق كالعصفور . وكأنه بعينه السوداء البراقة سهم من سهام الشمس
يخرق الحميلة تنقلا بين افنانها . يقفز ويطفر كيف يشاء واين منه
الايال والظباء . لطيف الملمس جني الجمال يسحرك بحركاته . يسمعك
ويصفي لك ، ثم يختفي ويختبئ عنك ، ويعود يفتش ليجدك .
ويحبك ويحب اولادك حتى كأنما الملاك الرفيق الحارس لأولادك
اهداه اليهم لعبة سماوية »

وهالك وصفه للحية : « ذلك الجدول الفضي الاملس — أفكرت
في جريه وسعيه ؟ الحية لا تمشي بل تسعى وتجري . وكأنها الزورق
في البحر ، الا ان التراب ماؤها وقشرها مجذافها ورأسها دفتها . بل
هي النهر ينساب في السهل انسيابًا . تتوج ولا ربح تتلاعب بامواجها .
تجري ولا شلال يقطع مجراها . كل جسمها يتحرك معًا — الا ان
بعضه ذات اليمين وذات اليسار وقسم منه للامام والآخر الى الوراء
تمر بك ولا تسمعك صوتًا ، وتفوتك وتترك لك أثرًا فخواه :

(ان آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار)

فاجتها بصرخة واذا بالجدول المنساب قد استحال سهماً مسدداً

وموجة السم استقامت ربحاً مقوِّماً يخرق الاعشاب وينفذ منها ولا
طعنة الفارس من صدر العدو . لها رئة ولا تكاد تنشق الهواء او
تنفس الصعداء . سوائها عندها الشمس والظل فهي باردة حارة ، جامدة
الاّ انها تتسلق ولا القرد ، وتسبح ولا السمكة وتثب ولا الغزال ،
وتصارع واين منها ابن حواء وتسحق واين منها النمر . هي قوة شيطانية
مجسمة على الارض . وكما ان العصفور هو قوة الهواء مكسية ريشاً
فكذلك الحية انها قوة التراب لابسة مسوحاً وجلداً . وكما ان العصفور
هو رمز للروح والحياة ، فالحية رمز لقضي الموت على الحياة وقبضته
على الروح »

الطبيعة الالهية للحكيم الصالح . ولكن لا نفهمها الاّ اذا احببناها
واشعرنا انا واياها واحد . وكما يلهم الناس بذكر غير الطبيعي . وعندي
ان الطبيعي حسبنا ، وان أغلب ما يسمونه غير طبيعي ليس الاّ طبيعياً
محضاً او مملاً وجود له . اذ كل موجود جزء من هذه الطبيعة . وهي
غير محدودة ولا تدرك غاياتها . وكل اكتشاف جديد يفتح لنا باباً
للعجب جديداً . ولا نحل مشكلة حتى نعالج أخرى . فالجهر والمقرب
يختمان لنا عوالم لم نكن نعرفها من ذي قبل . وقد توصلنا بواسطة
السبكتروسكوب (محلل الطيف) الى حل مسائل كان يحسبها العالم
كونت فوق مدارك البشر

والعلماء والمكتشفون حتماً يشعرون بالسعادة التامة اللهم ان لم
يكن لهم من احوالهم الشخصية علة للشقاء

ظنَّ القدماء ان أرضنا هي درة الكون الفريدة وحسبوها مركز العالم بأسره . أما نحن فنعلم انها ليست الا سياراً صغيراً يدور حول كوكب صغير هو واحد من ملايين الاجرام السماوية لا اكثر . ولكن مع حقارة شأنها بالنسبة لسواها فكم فيها من اسرار لم نستطلعها ومشاكل لم نحلها . والله الجمال الذي يزينها . وقد يصدق قول روسو « ان للعالم الحقيقي حدوداً ، أما الوهمي الخيالي فلا حدود له » . ولكن حدود الكون — اذا كان ثمت من حدود — بعيدة عنا بعداً يصح منه اعتبارها كغير موجودة . والحق ليست أرضنا وحدها غير محدودة على صغرها ، فحتى اجزاؤها الدقيقة ودقائق تلك الاجزاء وجواهرها لا تعرف حداً ولا نهاية . وعجبية هي حواسنا غير اننا على حدة ابصارنا أشبه بالزحافات العائشة في ظلمات المغائر والكهوف ، لاننا لا نرى جميع ما حولنا من كل عجيب وجميل

ولعلنا نتوهم ان كل انسان يشعر بجمال الجميل اذا رآه ، فما هو الا توهم نود لو كان حقيقة . فما اكثر العمي والصم بين الواقفين في هيكل الطبيعة . وكم من مبكر لا يحفل لشروق الشمس وجمال الشفق ومن عائد الى منزله مساء لا يودع الشمس الغائبة بنظرة اعجاب وحب لجمالها . وكودون سمث أنكر ان الزنبقة في الحقل آتق من لبس الملك سليمان في قصره

عاش احد الكتاب^(١) مئة سنة ونيفاً وعززي تعميره الى الاعتدال

في المعيشة . ومن جملة اقواله : « ان لي حياتين ارضية املكها
وسماوية احلم بها » . ولكنه يعترف لنا قائلاً « لم اعلم حتى شخت
ان دنيانا بالحق جميلة » . وحتى اليونان مع سلامة ذوقهم قلما كانوا
يخفون بجمال « الطبيعة » . على انه اذا استحال على أي منا أن
يتحقق معظم الجمال والعجب في دنيانا، واذا تسنى لفئة قليلة من مجموعنا
ان يشمروا شعوراً خفياً ببعض ذلك . . . فكثيرون منا يرفعون
بصرهم نحو السماء ويسرحونه في صفاء الفضاء ونجومه وكواكبه ،
أو يصوبونه في البحار ويصعدونه في الجبال ، فلا تلبث همومهم ان
تزول زوالاً وتضمحل اضمحلالاً . وحالكة هي الظلمة التي لا تثار ،
وشديد الالم الذي لا يخف حتى في يوم راق جوّه ورق هواؤه !

وعجيب ان يكون لانسان عينان في رأسه ويستسلم لليأس
والتنوط فيخمل ويتبدد

والطبيعة فائقة الجمال حيث تركت شأنها ولم تمسها يد الانسان
بترتيب ولا تخريب . ومن ارق الرسائل التي كتبها صديقي و . ر .
كرك ما جاء بعنوان « جمال الخرابات والبقايا » . وليس المتخرب
المنذر جميلاً في ذاته بل هي الطبيعة ويدها اللطيفة التي تزين وتحلي
حتى المزين الحالي مما صنعت يد الانسان

وجمال الطبيعة لا يفنى ولا يزول . « انزع عن الطبيعة جمالاً واسلبها
آخر واخلع عنها زينة بعد زينة وحلية بعد حلية . . . تظل كأنك
لم تنقصها شيئاً . فقد تجرحها اذا فعلت ذلك وتخدش جسمها لكنه

يظل جميل الكيان ، ولا تلبث الجراح ان تبرا بما تذر عليها روح الجمال
من البلسم الشافي » (١)

وما قولنا في من يملأ يته رسوماً وصوراً من صنع أشهر المصورين
والرسمين الا انه يعيش بينها ولا يرفع بصره اليها ! او في من جمع في
مكتبته اهم الكتب لاعظم المؤلفين ولكنه لا ينعكف على مطالعتها !
وها الطبيعة فاتحة ابوابها ترحب وتوهل بنا بل تدعونا اليها . . وابن
صنعة الانسان من خلقها . فلماذا لا نغيرها حظها من الاهتمام ؟

قال هكسلي : « يمر الأمي بالحقول والهضاب والسهول ومثله
مثل المار في متحف تسعة اعشار صورته وتماثيله مقلوبة لجهة الخاطئ .
واذا علمت ذلك الأمي فكأنك قد جعلت بين يديه برنامجاً يتصفحه
ويقبله مسروراً ملتذاً . ومسرراتنا الشريفة اقل من ان نحقر معها
هذا الامر نبعا للمسرة معينة »

حكي ان ستايسكورس أعدم البصر وحرمة لانه لم يحفل بجمال
الطبيعة . وكثير من الناس لهم عيونهم ولكنهم لا ينتفعون بها . لهم
عيون ولا يبصرون

والعلماء يقدررون درس الطبيعة قدره الحقيقي ويعلمون مقدار ما
زاد ويزيد في سعادة الحياة . وكلنا يحب بلاده ، لانها وطنه ، انما
يجب ان نحبها لمجرد كونها بلاداً . لانها موضوع عقولنا كما هي موضوع
شعائرنا . ومن ابهج اسرار الطبيعة ذلك السر العظيم ، سر الوجود .

والمادة ليست شيئاً بل حركة بالاحرى . « المادة مظهر لا غير » (١)
وكل حجر مسألة بل مسائل وكل زهرة عجب ، وكل حيوان
عجيب ، والانسان مسألة المسائل وعجيبه العجائب . فقليل ما نعرف
عن الجسم ، واقل ما نعلم عن العقل ويا لقلّة ما نعرف عن علاقة
الاثنين وما نحن الا اتحادهما

ودرس الطبيعة مجلبة لسلام القلب الذي تقلقه عواصف الايام
وضيقاتها، وتزعجه حروب القوم وتحزباتهم . وقد ذكر توماس اكبس
انه بحث عن السلام في كل مكان فلم يجده الا في زاوية يختلي بها
وكتّيب يقرأ فيه . ولكنه لم يجرب درس الطبيعة وقراءة اسفارها

قال غوته : « الطبيعة ادخلتني هذه الدنيا ، والطبيعة تخرجني منها .
اني مسلم لها بجميع اموري . ولها علي مطلق التصرف . على انها لا
تبغض صنيعتها . ولم اقل عنها شيئاً . وكل صدق وكل باطل هي
تقوله لنفسها وهي في غنى عني . وكل ذنب ذنبها وكل فضل فضلها »
الكتب والموسيقى والاداب ، شعريها ونثريها ، تسرنا وتلد لنا

ولا سبيل الى انكار ذلك . اما عشاق الطبيعة فهذا لسان حالهم
من الطبيعة اين الناي والعود واين كتب وما في الكتب موجود
ولا ننس ان التعمق في العلم يسلينا الهموم والاحزان ويحول افكارنا
عن المصائب والمزعجات . فمن يتأمل الاجيال والعصور المشار اليها في
علم طبقات الارض، ويحدق في دقائق المراثيات التي يظهرها لنا المجهر،

ويرسل الطرف في الابعاد التي يدنيها المقرب فكأنه يتجرد من
همومه وشواغله ويرى نفسه في دنيا غير دنياه

اننا لا نرى الا القليل ولا نعرف الا الزهيد، فلا يمكننا ان نتصور
العالم تماماً ، ولكن قليل ما نعرف ونرى يقنعنا بان الكون عظيم
عجيب !!!

قال سينكا : « لا يستطيع الانسان ان يرفع بصره نحو السماء
ويشاهد ملايين الانوار المتألقة فيها ويراقب دورانها وتسيارها ، ولا
ياخذ منه العجب والرغبة والوقار كل مأخذ » . ودرس النجوم لا يفيدنا
من حيث الهداية في عرض البحار فقط بل انه يُنير ظلمة تلك الساعات
التي يُبلى بها كل انسان . ودرس الطبيعة لا يفيدنا من وجهة عملية
مادية فقط بل انه يساعدنا على الترفع عن طغيفات الامور وصغائرهما ،
وعلى احتمال عظام المصائب التي تحمل بنا

عالم شغل وحركة وجمال وسرور ولذة ووعود ، هو العالم الذي
نعيش فيه . وهناك في اللانهاية عالم متسع النطاق ، هادي لا نسمع
له حركة ، مملكة خيالية ^(١) مخيفة مملوءة اسراراً ، ولا نعرف لها حدوداً
انما بقدر ما نعمل الفكر ونحرك سواكنه ، ونحرص على تطهارة القلب
ان تُدس ، وعلى سعادة البيت ان تفقد صفتيها اللازمتين وهما الثقة
المتبادلة والمحبة المتبادلة بين افراده - بقدر ذلك نأمن نخوف سرّ
الوجود الهائل ، ونعيش في ظلّ الطمأنينة والسلام

(١) الخيال هنا الظل

الفصل الثالث عشر

الوقت

اهمية الحاضر — المستقبل مجهول — الحياة قصيرة — الجميع سواء باعتبار الوقت — الاقتصاد في الوقت — اقوال : لموسى وداود وبأيكون — حكم قيلت في الوقت وقصر الحياة — الوقت سهل الاضاعة وصعب الوجود — الشباب والمشيبي — ليس لنا الا يومنا — الوقت لا يثن ولا يعاكس

« لا تفتخر بالغد لانك لا تعلم ماذا يلبده يوم » (١)

انما الأيام بحر فوقه مركب الانسان ميناه قصد
ان تسالمة تناوئه غداً وكذلك البحر في جزر ومد
فاذا ما سالمت فاغنم بها فرصة المد التي لما تعد
ولكم من غافل عن امره فاته المد وللقر رك (٢)
ماضيك قد مضى وآتيك قد لا يأتي فما لك الا حاضرك
ولله در توماس اكبس القائل :

اليوم يومك قم	للفعل مد اليدا
اليوم يوم الوغى	فلم تهاب الردى
قم أحسننّ البلا	وارغم انوف العدى
امستعدّ ترى	ام تستعدّ الغدا

(١) امثال سليمان (٢) شاكير

والغد قد لا يأتي وانت حي نرزق فعبثاً تنتظر قدومه
ولا تعيش عيشة المعتقد انه معمر ألفاً من السنين اذ لا اضر من
الاهمال . واعلم ان ما ابتدأته في يومك فقد انجزت نصفه ، وان ما
اجلته لغدك ستزيد صعوبته عن ذي قبل . واذكر :
يا ايها المغتر في عهد الصبا فتظنه عهداً يطول مدى الدهور
احسب حسابك لا تقل اني من ايام عندي ذلك الارث الكبير
واحرص على الساعات واصرفها كما لو كنت ذاك المعدم العاني الفقير
واعرف ليومك قدره او ان تكن للآن تجهله تخبرك القبور
فهي التي في جوفها الشيخ الكبير م وقربه ذاك الفتى الحدث الصغير
وحق ايام متوشاح لم تسلم من الانصرام على طولها
« إن نحن الا ظل و تراب . واتي لك ان تعرف ما اذا كانت
الارباب من عرشها تضيف غدك الى امسك ام لا » (١)
« اغتتم الفرصة اذا سنحت » هذا كان شعار بيتا كس ونصيحته
بل السبب الذي من اجله عد بين حكماء اليونان السبعة
ان الشرارة قد تداس بأخمص في البدء لا تخشى برجل توطأ
لكن اذا تركت تفاقم شرها وأدر عليها النهر ليست تطفأ (٢)
او كمثنا السائر « قطبة واحدة في حينها تغني عن تسع بعد حين »
الاقتصاد في الوقت مهم كالاقتصاد في ذات اليد بل أهم جداً .
والكتاب يحرّض عليه مرة واخرى : « إحصاء ايامنا هكذا علمنا

فنوثنى قلب حكمة . « علمني يا رب نهايتي ومقدار ايامي كم هي
فاعلم كيف أنا زائل »

وكم لنا من الامثال المحرصة على اغتنام الوقت والمحدرة من
التأجيل والاهمال . ومنها

(واضرب حديداً حامياً لا نفع منه ان برّد)

وكم لنا من الحكم القائلة بوجوب تعبئة الوقت اجتهاداً وعملاً
وفعل غاية ما يستطيع في ساعاته ودقائقه . على ان بعضها لا يخلو من
رنة حزن يشق وقعها على النفس كقوله (١)

مثل زاهي الازهار وسط الحقول نجتنيها فلتوي بذبول
هكذا يا فتى اويقات انس ان تأتت تزول عما قليل
او كثلج غشى صحيفة نهر بسناه فصار بعض المسيل
وكقول احدهم (٢)

هل حياتي الا نهاري وليل وكثير الايام عندي قليل
بعض حب وبعض بغض اذا ما جئت هذين « عم صباحاً » أقول
ثم في الليل بعد رؤيا الاماني « عم مساء » في القبر آن الدخول



لا شك ان الحياة قصيرة جداً . وأسفار التوراة اولها « التكوين »
وتاليه « الخروج » . وهل هذا الا سبب وعلة لوجوب قدر الايام
حق قدرها وسلب الاوقات من مخالب الآفات ؟

وحقيقة !

ما ترى يجدي سرور قد مضى او سرور في يد المستقبل
ليس لي هذا ولا ذاك ول كنما الحاضر ملكي وهو لي
ان تكن تعقل فاسهر ساعة انت فيها لا تتم لا تغفل (١)
ورجال الدين من الانكليكان يبالغون في هذه الحقيقة كل
المبالغة . وهاك ما قاله جرمي تايلر : « تنعم ببركات يومك اذا حظيت
بها واحمل همومك بالصبر الجميل . لان نهارك وحده لك ، وغيره
لغيرك . وهل أنت الاميت لامسك وجنين لغدك . فمن يتمتع
بحاضره اللهم ان كان فيه ما يتمتع به فقد نال كل ما يمكن ان يُنال
واذا ابتلي بيوم كثرت همومه واتعابه فان هو الا يوم واحد ينقضي »
وقال الاسقف فولر « ولئن توفي شاب وهو في شرخ الشباب
وريعانه ، فهل كانت الحياة بعدد الايام الطوال ام بحسن الاعمال ؟
ومن صرف حياته في غير ما ينبغي فكانه خسرها وأضاعها .
هذا واذكر انك ان أضعت يوماً فقد لا تجده ثانية . ولكن رغماً
عن تعلق الجميع بالحياة وتشبثهم بها فكم نرى من كسول يختار في
كيف ينفق وقته . ولا تسرع في تقرير ما تعمل . ولكن اذا صممت
النية على عمل فلا تلبث ان تمتد اليه يدك لكيما تنجزه على غير
السرعة والاهمال

هذي الحقيقة فاسمعوا ان تسمعوا هيهات أمسكم يعود فيرجع

ذا اليوم طالعة عليكم شمسها ولعلها لكم غداً لا تطلع
 وهل نعتبر بخبر اركياس (امير ثيبية منذ ٢٤٠٠ سنة) الذي
 تلقى ذات يوم كتاب تهديد وانذار ، فالتقاء في زاوية النسيان والاهمال
 قائلاً « غداً نرى » ورأى — انما موته ؟ وقد روى لورد
 شتر فيلد عن ديوك اوف نيوكستل انه اضاع ساعة من ذات صباح
 فقضى نهاره بطوله وهو يبحث عنها وينشدها . وهو من اللزوم باعظم
 مكان ان ترتب اعمال كل يوم ترتيباً يتسنى لنا معه القيام بكل واجبة
 بخير ما في الامكان . والا ضاع منا قسم كبير من الوقت وشكونا
 شكوى بنيامين كونستانت ، والذنب ذنبنا — « عجباً كم أخسر
 واضيع من الوقت ؟ ما اقل حياتي نظاماً وترتيباً ! » ومن يرتاب في
 هذه الحقيقة وقد أتى بها أعظم الثقات — « هوذا الآن وقت مقبول ،
 هوذا الآن يوم خلاص » ^(١)

ولو كانت الحياة قصيرة فقط لكان الامر ، ولكنها ابداً تحت
 الشك ، فواحدنا لا يعلم أرى بعد أعواماً وأجيالاً ام يبيت ليلته ولا
 يعرف غدها ...

اذا تعددت الواجبات المطلوبة منا ، ربما وقفنا مختارين في ايها
 نقدم وايها نؤجله ونؤخره . والافضل في مثل هذا الموقف ان نختار
 الاصعب ونشرع في اتمامه ، لان ما نخاله مزعجاً ومملأً في البدء ، نبيت
 ننظر اليه بعين الابتهاج والسرور بعد ما أتمجناه . وقد شبهوا الشباب

بطاقة من الزهر ، والمشيبي باكليل من الشوك • ولربما جاءت آيات
شاكسبير التالية تعبيراً عن الشعور العام في كافة الأدميين —

عهد الصبا عهد الصفا ان المشيب ابو الحذر
كأس الشباب اذا صفا فالشيب يوليه الكدر
ياما احيلاه الصبا اما المشيب فما أمر

وربما كان التسرع والوجد والقلق من صفات الفتوة والشباب ،
لان الفتى حديث العهد باختبار العالم ، واذا عدم مرشداً مخلصاً
فقد يهوي ويعثر مراراً في طريق حياته ، او اذا طاش وبطر واغتر
بنفسه فقد يجلب عليها في لحظة من الزمان ما يعيش يتعذب من أجله
السنين الطوال • وبالعكس اذا عقل ورزن في حدائته فانه لا يدرك
الكبر الا محاطاً بالاصدقاء الاوفياء وقد استبنت له الراحة وخلأ جو
الحياة • وربما استمر في شيخوخته على الاهتمام بامور غيره وشؤون
بلاده ووطنه ، الا انه غني عن الاهتمام بذاته بعد ما صرف همه
الشباب الى تحسين احواله الشخصية

ولا أرحم من الزمان بمن يحسن استعمال ايامه • وكما قال جوبرت
« الوقت يُعَدُّ كل شيء ولكن على مهل • فبمروره تتمهد الجبال
سهولاً ، ويزوب الصخر انحلالاً ، وتموت فروع الشجرة واصولها ،
الا انه لا يقناعتها اقتلاعاً • على ان كثيرين يسيئون تنظيم حياتهم
فلا تكون الا كنهار صباحه نقاء وصفاء ، ومساؤه عواصف وزوابع
« مهما وجدت يدك لتفعله فافعله بكل قوتك » ودفعاً لاستغراب

هذه الوصية هاك ما قاله الحكيم في سفر الجامعة « لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت ذاهب إليها . وقد قال كبل « انما » الآن » الوقت والزمن ، اذ من لنا بمحقق قدوم الغد » . زد على ذلك ان ما نفعله نحن اليوم لا يقتصر تأثيره علينا فقط بل يتناول الآخرين في الاجيال المقبلة — وهل هذا الا باعث لنا على الاعتصام بالحكمة والفضيلة . ولا اولى من اغتنام الوقت الذي نكون فيه . وقد قال احدهم : « يومك يأتيك مرة واحدة ، واذا مضى فلن يعود » . والفيلسوف سينكا سبق فقال ايضاً : « الماضي بما نذكره ، والحاضر بما نستعمله ، والمستقبل بما تقدره العناية وبما نستدرك عواقبه بالنظر الى الامام » . والحق يقال ان الصعوبة كل الصعوبة انما هي في التأليف بين العزم (توطيد النية) والتعقل . لاننا كثيراً ما نتسرع في تحقيق الآمال فلا نعلم ان نفشل ونندم . وما هذا شأننا في أمر الزواج فقط ، بل في كثير سواه من امورنا . ومن جهة اخرى ، حسب قول الجامعة « من يرصد الريح لا يزرع . ومن يراقب السحب لا يحصد »

وكاننا مطبوعون على الميل الى تحقير الوقت الذي نعيش فيه ، حتى اذا مرَّ عرفنا له شأنًا وقدرًا

(رب يوم بكيت منه ولما صرت في غيره بكيت عليه)

وروسكن مع انه غير الجحود الناكر الفضل على ذويه ، قال مشيراً الى القرن التاسع عشر قرن التقدم والترقي : « ما أعظم شوقي

الى ذلك اليوم الذي يُخرج فيه هذا القرن آخر انفاسه » ثم يستأنف
قائلاً : قلت « انفاسه » وكان بودي ان أقول « بخاره »

وقد يغلب ان يكون الشعراء أصحاب آلام وعذابات ، فلا
نسمعهم الا متذمرين من حاضرهم باكين على ماضيهم متمنين لو
يعود . وكم من قائل مثل هذا القول

استغفر الله ! حتى الله من قدرا لا يستعيد لنا الماضي اذا عبرا
فلنعبر اذاً ونذكر ان الوقت الثمين اذا جازفنا به جوزينا

بخسرانه

الفصل الرابع عشر

الحكمة

العين فدى لشربة من عين الحكمة — تعريف الحكمة — الصمت والكلام
— التسرع والامة — النوم والحكمة — صعوبة استدراك الفعلة اذا وقعت
— المعرفة — اقوال سليمان في الحكمة — العقل — النعب الفكري —
جهلنا العميم — الدنيا سر عظيم — الواجب — الخطاء — قبح الرذيلة —
حكمة سليمان — سلوكه — صوت الضمير

« فمن اين تأتي الحكمة ؟ واين هو مكان الفهم ؟ هوذا مخافة
الرب هي الحكمة . والحيدان عن الشر هو الفهم » ^(١)

حكي ان « وثنان » سمح للجبار « يميز » بفقه احدى عينيه
لقاء شربة واحدة من نبع الحكمة . أما نحن فلسنا بمضطرين الى مثل
هذه التضحية . ولئن نعذر علينا ان نضارع صولو وسليمان حكمة
واختباراً ، فانه متيسر لنا ان نمرن قوة الادراك وتقويها ، وان
نستفيد من اختبارات الغير ، بان نعتبر بها وتتخذها مشكاة ودليلاً
في سفر الحياة ، وما الحياة الا سفر . وقد قال شيشرون : عرّف
الاقدمون الحكمة بقولهم انها الامام بالبشريات واللاهيات ومعرفة
نظامها . وهو علم من احقره فله أعلم بما عسى ان يكون جديراً لديه
بالاعتبار »

قال پوركاس « الفهم والنطق هما امتيازانا الكبيران على الحيوان »
والحق يقال ان امتيازنا الاكبر انما هو الفهم ، لان النطق قد يخون
الناطق ويعرضه لسقطات وزلات كثيرة . ولما كنت سابقاً اخطب في
قوم ، كنت أشعر ان لهم حق الاطلاع على افكاري ، كما انه لي الحق
وعلي الواجب ان اقف على افكارهم واعرف اسبابها . وزد على ذلك
ان كل انسان يمكنه ان يصغي لخطيب ، اما الخطيب المصقع والسياسي
المحنك فهو ذلك الذي يقرأ افكار سامعيه ويسمعها وهم صامتون »
اظن ان كل واحد منا اتفق له ان لام نفسه من اجل التكلم
اكثر مما تستدعي الحكمة - ولكن من ترى ندم يوماً على إقلاله
من الكلام ؟ وانه ليحسن بكل فرد ان يختم على فمه ويفتح عينيه
وأذنيه لكل ما يرى ويسمع . وكقول المثل « انظر حولك وفوقك
وامامك » . وما أصدق المثل الفرنسي السائر « من اقل من
التفكير اكثر من التقويل » . وكما نطرح امثال هذه الحكم جانباً أو
نضرب بها عرض الحائط ! فصحيح ان الحكيم يتعلم من الجاهل
اكثر مما يتعلم الجاهل من الحكيم

يغلب ان تنذر ونشكو من البطء والتواني في الشؤون الاجتماعية
الخطيرة ، على ان الشر كل الشر في التسرع وعدم التؤدة في سن
الشرائع ووضع الاحكام . والتسرع قلة حكمة لا محالة . فالطبيعة نفسها
مثال الثاني ، فاتها تفعل كل شيء في اوانه ، والا كان غير طبيعي .
وكما قالت مدام دي سثيني : « من قدر ان يصبر قليل الصبر ، كفي

كثير الشقاء . وهذه النصيحة كلها حكمة ، أما الاخذ بها فغير السهل اليسير . « الحزن صعب الاحتمال والشك بطيء الزوال » . (١) وهنالك حالات لا بدّ فيها من اتيان فعل ما ، انما نعرف ما اذا نأثي ، والآ زدننا الحالة سوءا والامر اشكالا . وجبذا لو ان كل مُقدم على فعل من الافعال يقف ويسأل نفسه « الا يمكن التخلي عنه ؟ » وان قسماً كبيراً من منافع التشريع يُعزى الى الغاء شرائع وقوانين سبق سنّها بتسرع وقلة تروى ، فكانت وبالأُميينا على الهيئة الاجتماعية . والساعة ساعة اذا كانت تجاري الوقت لا اذا كانت نسبية

يندر ان يكون التسرع من باب الحكمة . واذا عرض لك امرٌ وكان فيه بعض الاشكال والغموض فأجل الحكم فيه والبت بشأنه الى الغد ، وبت مفكراً متأملاً في دخائله . لانه اذا خيم الظلام وأنغمض الجفن فقد يظل الفكر ساهراً على امرك ولا تصحو الا وقد حلت العقد وانجلى الغوامض . ولأن تنتظر الفكر ريثما صدر قراره الصباحي ، خير لك من ان تقضي الليالي في السهر والأرق والتندم على فعلة الأمس وزلته . « لان الذاكرة لا تخوننا بنسيان ما نود ذكره فقط بل بذكرها ما نود نسيانه » . ولندكر اننا اذا فعلنا شيئاً فقد يستحيل علينا ان نعيده من حيّز الحدوث الى حيّز الفكر

« كل الناس يشكون من ضعف ذاكرتهم ، وليس من يشكو من

ضعف عقله . « على ان المعرفة هي اساس الحكمة » وهي التي ليس
للملوك أن يقتنوها ولو بذلوا اموالهم على وفرتها ولا باوامرهم السنينة على
شدتها . « وغوته يقول : « مَنْ ينصب على درس الشريعة لا يجد
وقتاً لكسرها وتعدّيها » . وبقدر ما نزداد معرفة كذلك نزداد رغبتنا
في الاستزادة منها أيضاً . وقد قرأنا عن بطرس الاكبر انه « عزم
على ان يرى كل ما يرى ، ويسمع كل ما يسمع ، ويعرف كل ما
يعرف ، ويتعلم كل ما يتعلم »

ولا يسعني ان اوافق مارتنو على قوله « لو عرفنا كل شيء لما
اعتبرنا شيئاً » فكأنه قال لا شيء جدير بالاعتبار . وَمَنْ جهل امراً
فرضه فرضاً وخمنه تخميناً : أما طالب الحقيقة فبقدر ما يعرف كذلك
تزيد دهشته ويشد عجبه واعجابه بهذا العالم العظيم العجيب . بل
ان مارتنو نفسه يلوم « مَنْ يفضون ابصارهم عن مملكة نحن عبيدها
ولا ينظرون لسوى هذه العاجلة الفانية التي نحن أسيادها »
وسليمان قرن بين المعرفة والحكمة وجعلهما صنوين لا يفرقان .
وهاك ما يقول :

مخافة الرب رأس الحكمة . اما الجاهلون فيحتقرون الحكمة
والادب »

« لان الرب يعطي حكمة . من فمه المعرفة والفهم »
« الرب بالحكمة أسس الارض . أثبت السموات بالفهم . بعلمه
انشأت اللجج وتقطر السحاب ندى »

فالمعرفة تقدم المواد اللازمة ، التي تبني منها الحكمة ، بل هي
الاساس الراسخ الذي يقوم عليه البناء : « الحكمة هي اُرس . فالتن
الحكمة . وبكل مقتناك اقتن الفهم »

« طوبى للانسان الذي يجد الحكمة ، وللرجل الذي ينال الفهم .
لان تجارتها خير من تجارة الفضة ، وربحها خير من الذهب الخالص .
هي اثن من اللآلىء ، وكل جواهرها لا تساويها . في يمينها طول ايام ،
وفي يسارها الغنى والمجد . طرقها طرق نعم ، وكل مسالكها سلام .
هي شجرة حياة لمسكيها . والتمسك بها مغبوط »

والعاقل الحكيم يستفيد ويتعلم من اختبارات سواه ، أما غير
العاقل والحكيم فمن اختباره فقط . والافضل هو ان يأخذ المرء
بنصيحة سواه ، ولكنه خير لنا ان نتعلم من اختباراتنا من ان لا نتعلم
ابداً . وقد أجاد القائلون ان مدرسة الاختبار مدرسة شاقة المسلك ،
اما الحق والاغبياء فيأبون الا ان يتعلموا فيها ، والاغرب انهم حتى
فيها لا يتعلمون ولا يستفيدون . والاختبار غالباً ما يسوقنا الى ما بعد
الغاية منه على حد قول المثل الفرنسي « المرء المسلوق يحذر الماء
البارد »

كثيراً ما نسمع الناس يتكلمون عن « الذوق السليم » ولكن
يا لقلّة ما تجده فيهم . . . مع ان سلامة الذوق من أعظم المواهب
وأجلّها . . . وكَم منهم من يحسب نفسه جامعاً لشتات حكمة اليونان
وضابطاً لشواردها اذا ما عرّف ، كثايلس ، ان كل الاشياء مركبة

من الماء ، وكهراكليتس ، ان كل الاشياء في حالة تغير وتبدل ، أو
كانكساكوراس ، ان كل الاشياء ضباب وسديم . . . ثم انه
يضيف الى هذه الآراء رأي سليمان الحكيم : « كل شيء باطل » .
فأي فكر سليم يرضى بمثل هذا ؟

فعلی مَ نؤسس اعتقاداتنا ونبني مزاعمنا ؟ نفتخر بكوننا مخلوقات
عاقلة ، ولكن قلما يكون للعقل من دخل في آرائنا . فقد قل ما كس
مؤلر مرة « لو كانت العطلة السنوية الكبرى تطول السنة بكاملها
لكانت جامعة اكسفورد « الفردوس الموجود » ولكنه كان اذ
ذاك ناظراً الى الامر من وجهته الشخصية لا غير . ولا شك ان انخلو
والراحة لازمان للفكر ضروريان ، وكما يعوزان الاستاذ اثناء الفصل
المدرسي ، حينما تتراكم عليه الواجبات فيكاد ينوء بحملها

وشاق هو العمل العقلي لا مشاحة . وما الاعمال اليدوية الا
تسلية ولعبة ولديّة ، بازاء الاعمال الرأسية (الدماغية العقلية) واسترجاع
القوة العضلية ايسر بكثير من استعادة القوة العصبية . زد على ذلك
ان الفكر قد لا يخلو من تأثير على القلب ، وقد يسبب القلق
والاضطراب . ولماذا نرانا في عالم هذه صعوبة فهمه !!

وربما كانت المعرفة المحجبة عنا لا تسفر لنا لكوننا غير مستعدين
لها بعد . فقد نسي فهمها أو استعمالها ، او قد تكون فوق مداركنا
وعقولنا فتحيرنا . وقد أحسن غوته قولاً بهذا المعنى « وفي ما خصّ
المعرفة لقد اتفق لي ما يتفق لمن يسهر الهزيع الاخير ثم ينهض

بأكرأ ، انتظاراً للفجر أن يلوح وللشمس أن تسطع ، فلا تكاد حتى
يُضحى وقد بُهر نظراً وعمي بصراً . وبأسكال يقول « كثير من
الحقائق يدهشنا ويقضي عجبنا » والبومة (طائر ليلي) هي مثال اثينا
الاهة الحكمة ولكنها تبصر ما تُبصر في ضياء القمر الضئيل ، اما نور
الشمس الساطع فيعميها ويخطف بصرها

فقصارى الآمال وغاية الجهد ، والحالة هذه ، أن تتقدم خطوة خطوة
ونزج النقاب عن وجه المعرفة شيئاً فشيئاً . وقد اتينا بعض الشيء من
هذا القليل مدة القرن الماضي ، واين نحن من الكل ، وذلك البعض
ليس بشيء يذكر امامه ؟ فكأن الالهة ساليس يحق لها ان تقول حتى
في يومنا هذا « انا هو الكائن وما كان وما سيكون . لم يُخط حجابي
بشر بعد »

« كأني بالسواد الاعظم من الناس يستصعبون حذر الخطأ
وتوقيه ، فيسلمون قيادهم لسواهم ، وقيمونهم أوصياء على عقولهم ،
ليكفوا نفوسهم مؤونة التبصر والتفكير » . ولا يخفى ما في الاكتفاء
مشقة التفكير والارتباك والارتباب من الراحة اللهم اذا كان الانسان
يكتفي بالانعكاف على واجباته والقيام بها . لانه اذا انقطع عنا نور
العقل وكان الضمير حيا فنوره سني كالشمس في رابعة النهار

قال شيشرون : « كان ديمقراط كفيف البصر لا يميز بين
الابيض والاسود ، ولكنه كان يفرق بين الخير والشر ، والحق

والباطل ، والشريف والدنيء ، والنافع والمضر ، والعظيم والحقير »

ورب سقيم بصر سليم بصيرة

اجل انه كثيراً ما يصعب علينا تحقيق ما اذا كان الامر من الصحة والحكمة بمكان ، ولكنه قلما يتعذر علينا ان نميز ما اذا كان واجباً من الواجبات او حقاً من الحقوق . واذا ذكرنا ذلك فسادتنا في أيدينا . ونادراً ما نشك في كيف يجب اتباع قوله : « كونوا كاملين كما ان اباكم الذي في السموات هو كامل » انما الصعوبة ليست في معرفة ما يجب فعله ، بل في حمل النفس على فعل ما يجب . ولا نتظر ان نفوز بالكمال ، انما لنجاهد في سبيله ، لاننا نفوز بالحسن بقدر ما نسعى في طلب الاحسن . ولا يُنكرن ما في الامر من المشقة فان دونه نكران النفس والتسلط على اهوائها ، ولكن كما قال احدهم « لا يحسن بالمرء ان يفضل حياته على نفسه »

ورب شر ليس الا خيراً بعد حدوده ، ورذيلة هي الفضيلة بعد غايتها . فالزم حد الاعتدال في جميع أمورك . « ان للامور طريقاً ذات حدود معروفة ، والحكمة لا تتعداها » (١)

وهناك أمور ظاهرة او طفيفة في حد ذاتها ، بل نافعة أحياناً . الا انها تتحول الى مساوىء وآثام اذا تجاوزت حدودها . فالكرم قد يصير تبذيراً واسرافاً ، والشجاعة قد تلبس بقلّة المبالاة وعدم الاكتراث . وفي كل حال ، ليس للحاصدين الا ما زرعوا . فالرذيلة

عقابها فيها ، والفضيلة جزاء نفسها . والحقيقة ان العقاب والثواب ليسا
الآ نتائج الافعال وعواقبها الطبيعية . فالسعادة تتبع الصلاح تعقب
الليل للنهار . بل ان الليل لا يخلق النهار ويوجده ، اما الصلاح فالسعادة
موثداه ونتيجته كل حين . والمثل الفرنسي يقول « افعل ما يجب ،
وليصر ما يصر » . ومن عمل الصالحات نحو سواه ، فسواء نابتهم ام
لم تنبهم ، فانه قد أحسن نحو نفسه لا محالة . و « رب ارحم
الطالحين ، فقد رحمت الصالحين بجعلهم كذلك » صلاة عربية
قديمة

قل تنسون :

كل سام تراه عيتك فاعشق والدنيا بالبغض اولى وأخلق
وربما صدق ذلك في أيام الشباب النقية الطاهرة ، ولكن باللاسف
كم يسهل على الانسان أن ينظر الى الدنيا ويتعشقا فيدني نفسه ،
ويجني عليها بحرماتها ذلك الامتياز العظيم ، امتياز حب السامي اي
الشريف من الافعال والغايات . والذي ينفع الشاب الداخل في
معارك الحياة انما هو كره الرذيلة وبغضها ، لا مجرد معرفتها والتميز
بينها وبين الفضيلة

ان الرذيلة لا جمال بوجهها كالوحش ترهبها لأول وهلة
لكن اذا كررت فيه تفرساً أحييت لو منه تفوز بقبلة^(١)

قال شيشرون : « اذا ثبت انه لا سعيد الا الصالح ، وان كل صالح سعيد ، فأي أمر احق باهتمامنا من اتقان الفلسفة (أي العلم) واي شيء ، أسمى ألوهية من الفضيلة ؟ » وقال ليوناردو دي ثينسي : « اذا كنت تحفظ جسمك بحسب مقتضيات الفضيلة ، فلا تظل شهواتك عالمية دنيوية »

ان عدل الارباب امرٌ مؤكدٌ انهم ينصفوننا حين ننكدُ والمعاصي التي نحب ونهوى قدّمنا السوط الذي فيه نجالدُ^(١) ونوح الذي أتيح له ان ينجو من وبال الطوفان ، ذنى نفسه ووضعها ووقع في حبال العريشة التي زرعها ، وكم غرق بنوه من بعده من الخمرة والمشروبات في طوفان بعد طوفان !!

ان المصائب التي يسببها الحلق والغباوة تكاد تضاهي تلك التي تجرّها الآثام والخطايا . والعاطفة الحسنة التي قد تدفعنا الى العمل ينحصر تأثيرها في النفس . أما الفعل الحسن ولو صدر عن حكمة مع محبة ذات ، فقد يمس الآخرين بخير ومنفعة ، ولكنه لا يكون « الا فضيلة الرذيلة » كما يقول جوبرت . وقد اعطينا قوة الاختيار والتميز العظيمة ، ولنا الخيار بين ان نبني « مدينة الصلاح » ونعمرها ، او ان ندمرها ونقيم « معقل الشر والصلاح » على اطلالها . فهذا الامتياز ينطوي على مسؤولية عظيمة كما ترى

والناس اثنان — واحد يُتعب سواه ، وآخر يُتعب نفسه . اما

المتعبون فيشقون ويشقون غيرهم معهم ، وأما المتعبون المحتملون
 الخائفون عن الغير ، فيسعدون ويسعدون سواهم معهم . فحتى الزهيد
 من الحسنات ، والطفيف من المساعدة وقت الضيق ، بل الكلمة
 اللطيفة الحائلة محلها ، قد تأتي بالنتيجة العظيمة على حد قول شا كبير
 أرايت قنديلاً تضاءل نوره والليل فحمي الظلام شديده
 فكذلك في دنيا الشقاء ينيرها فعل الجميل طفيفة وزهيدة
 وعندما مات النبي داود وارتقى سليمان منصة الملك ظهر له الله
 وسأله ما ذا يريد فيوهب له أجاب : فأعطني الآن حكمة ومعرفة .
 فقال الله لسليمان — من اجل ان هذا كان في قلبك ولم تسأل غنى
 ولا اموالاً ولا كرامة ولا أنفك مبغضيك ، ولا سألت اياماً كثيرة بل
 انما سألت لنفسك حكمة ومعرفة تحكم بهما على شعبي الذي ملكتك
 عليه ، قد أعطيتك حكمة ومعرفة وأعطيتك غنى واموالاً وكرامة لم
 يكن مثلها للملوك الذين قبلك ولا يكون مثلها لمن بعدك . ولكن ويلاه
 من ضعف الطبيعة البشرية . عاد حبه للعال والقوة والمجد فحل محل
 حب الحكمة في قلبه ، فبات يعظ ولا يتعظ وينهى ولا ينتهي . بل كم
 سلك سليمان ضد اقواله على خط مستقيم ولقي سوء المنبة ووخيم العاقبة .
 وهل احزن من الحالة التي انتهت اليها امره ، تلك الحالة التي انطقت
 بهذه العبارة : الكل باطل ؟ ولقد كان ملكاً صالحاً وعظيماً ، وقوله
 هذا يشف عن خيبة وتقصير لا عن يأس وقنوط ولئن لم يكن وطيد
 الامل قوي الرجاء ، فانه لم يكن يعذبه ضميره بتوبيخ او تبكيت

وليس الضمير دليلنا الامين فقط ، بل انه شاهدنا العدل الذي
يُمَيِّل ولا يُعزِل . فقد نحكم على اللسان فتربطه او نحل لكته وقد
نغير الملامح ونشكها كما نشاء ، بل قد ندلل الشهوات والاهواء ،
انما يستحيل علينا ان نسكت صوت الضمير الداخلي او نमितه بالكايه

الفصل الخامس عشر

الدين

السلام والرجاء في الدين — الافكار واهميتها — امكانية مقاومة التجارب —
الشرائع الدينية — الحياة من ثلاثة اوجه — تدمرات في غير محلها — الوعود
الالاهية — سبر الدين — الامة والدين — الصلاة

كان لكل من آلهة اليونان ارباؤه واهواؤه ، يحميهم ويرعاهم
بمعايته دون سواهم من عباده . فعولس عاش في نعمة ائبنا الالهة
الحكمة ، وآنياس في ظل الزهرة الالهة الحب والجمال . والعهد القديم
من الكتاب المقدس يسمي الاسرائيليين بشعب الله الخاص . . . اما
فكرة أبوية الخالق وبنوية البشر فمسيحية النشأة . فجميعنا ابناءؤه تعالى ،
ولنا الحق ان نضرع اليه وندعوه أبانا

وكم يحسن بنا ان نقف كل مساء بالنفس نناقشها الحساب
متسائلين : هل عملنا اليوم على حفظ الجسم في صحته ؟ هل ملكنا
زمام اهوائنا وشهواتنا وكبحنا جماحها ؟ هل قاومنا التجارب التي عرضت
لنا وتغلبنا عليها ؟ هل ارتكبنا إثماً ؟ هل أسأنا الى أحد ؟ هل مسسنا
أحدًا بأذى ؟ هل أحسنا الى أحد ؟ هل عشنا على خير ما نستطيع ؟
وسلام الله الذي يفوق كل فهم ، ممنوح لنا ، ولا شك انه من

اعظم البركات التي ننوق الى الحصول عليها — « ما لم تر عين ولم
تسمع أذن ما أعدّه الله للذين يحبونه »

قال جوبرت : « يفرض الدين على المسكين ان يكون حرّاً
وشريفاً وكريماً . والدين هو كل شيء لكل انسان — ادب وعلم
لهذا ، وواجب ومليّة لذلك » . وفي ايام البؤس والاضطراب ، الدين
خير معرّ وانجع دواء للمصاب . والقصد الاول من الدين انما هو
ادخال السماء في قلب الانسان ، وليس ادخل الانسان في باب
السماء . وهذا مستحيل اذا كنا لا نطرد الافكار الشريرة من دائرتي
العقل والنفس . ذلك لان اغلب الخطايا تقترب بالفكر أولاً ثم تبرز
الى حيز الفعل بالتالي . وليس بخاف ان أولئك الذين لا يحولون
افكارهم عن الشر والذيلة أبداً معرضون للوقوع في تبعة اعمال تتبع
تلك الافكار . اما الذين الطهارة والصالح محور افكارهم ، فأقل احتمالاً
ان يأتوا فرياً او يسلكوا الا سويّاً . « كل ما هو حق ، كل ما هو
جليل ، كل ما هو عادل ، كل ما هو طاهر ، كل ما هو مسرّ ، كل ما
صيته حسن ، ان كانت فضيلة وان كان مدح ففي هذه افكروا »

ضميرنا وسعادتنا منوطان بنا . وقد قل سينكا « لا واجب نتمه
ولا يسعدنا . لا تجربة تُبلى بها وليس لعلتها من دواء » . « ولكن الله
امين الذي لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون بل سيجعل مع
التجربة ايضاً المنفذ لتستطيعوا ان تحملوا »

انما أوحى بالاوامر والوصايا لخير الانسان لا غير . « تلكم الشرائع

التي ارادها السرمديّ الأبديّ لم تكتب على حجارة سيناء فقط ، بل على القلب البشريّ ايضاً » (١) . وتلك الشرائع سواء تحققتا مصدرها ام لم تتحققا ، فتوخي السعادة يقتضي اعتبارها والسلوك بموجبها . وجون ستبورت ملّ يقول : « حتى اليوم انه ليتعذّر على غير المؤمنين ان يسنّ نظاماً للفضيلة يجيئ اكثر إحكاماً مما لو جربنا أن نعيش وتصرف بحيث يصادق المسيح على جميع اعمالنا »

والخاطيء اذا تاب فقد يعود فيخطيء ثانية ، ولكنه لا يفقد دينه بالكلية . نعم قد يخطيء كما اخطأ النبيّ داود ، ولكنه لا يهزأ بالدين كقولنير او كجبون وغيرهما من الكتاب المتطرفين في مبادئهم المادّية . اما قولنير وجبون فلم يشكوا من « الدين » ولا وصماه ولا عاباه بشيء ، ولكنهما ضربا على بعض مذاهب وآراء لاهوتية لا اكثر . وهذه حالة كثيرين سواهم من العلماء المتهمين بالكفر والجحود وكم يكثر الناس من الكلام عن المادّية وهم لا يكادون يعرفون عنها شيئاً . وغاية ما نعرف عن المادّة انها قوة ما . وهذه حليفتنا الجديدة القوة الكهربائيّة ، نذكرها كثيراً وهي تخدمنا وتنفعنا كثيراً ولكنها لا تكشف لنا سرّها ، فلا نزال نجعل ماهيتها وحقيقة امرها ينظر الناس الى الحياة من ثلاثة أوجه . فمنهم من يراها كل شيء ، وسواء كان يعتقد بآخرة ام لا ، فهو يتجاهلها بالكلية . ومنهم من يحسب الحياة الثانية (اي الآخرة) كل شيء ويعتبر اولاه كلاً

شيء . والفريقان في خطأ مُبين . ومن حيث الطول والقصر ، لا حرج ان قلنا ان الحياة ليست شيئاً بازاء الابدية . اما المستقبل فترتب على الحاضر في كل حال . ولما كان الامر كذلك فلا بأس من تعليق كبير الاهمية على حاضرنالان مستقبلا متوقف عليه

تأفف من هموم الحياة واحزانها ونأسف ان نفارقها . تتذمر من عذابات الحياة وآلامها ، ولا تنفك تشبث بها . نتشكى من حر الصيف وبرد الشتاء ، ويحزننا ان نترك هذه الدنيا . تتبرم من مشاق الحياة ومهامها ولا نفتأ نجاهد في سبيل السلطة والقوة والمسؤولية . تتضجر ونضيق صدرأ مما يميز الرفيع عن الوضع والغني عن الفقير ، ولكننا نأسف ان نذهب الى حيث لا فرق بين مُوسر ومعسر او بين ملك وصعلوك

قال مركوس أوريليوس : « اذا كان ثمت من آلهة فما أحلى الموت . وما أمر الحياة اذا لم يكن من آلهة قط »

قال غوتة : « ما استمددت عون السماء في ساعة الكرب والضيقة الاً مددت به » . ولكن مع ان الصلاة تعود علينا بالراحة والسلام اذ نحن في قبضة الكرب ، فكذلك ينبغي أن نلجأ اليها وننحن في راحة الفرح أيضاً . « اذكر خالقك في أيام شبابك قبل أن تجيء أيام الشر أو تجيء السنون ، اذ تقول ليس لي فيها سرور » (١)

ولا بد لنا من توقع الحزن والعذاب ولكن اذا احتملناها كما

ينبغي فان « خفة ضيقتنا الوقتية تنشىء لنا اكثر فأكثر ثقل مجد
ابدي . ونحن غير ناظرين الى الاشياء التي ترى بل الى التي لا ترى
لان التي ترى وقتية وأما التي لا ترى فأبدية » « والرب يعطي والرب
يأخذ » اما ما يعطيه فالخير ، وما يأخذه فالشر
°°

لا شك اننا في جهل عميم ، ولكننا لا نعدم معرفة هي الاعظم
والأهم — كيف لا وهي معرفة الواجب . ومن المستحيل اننا لا نتوق
الى الاستزادة من المعرفة . وعليه فمحاولة تأسيس الدين على مبادئ
لاهوتية ليس الا امراً طبيعياً مألوفاً
على ان بعض الاديان كانت ولا تزال مما يستغرب ويستهن
كما قد اظهرت في غير هذا المقام

ودين القوم بحار لمدينتهم في النشوء والارتقاء . فالأوسترياليون
مثلاً يتوهمون وجود كائن شرير أذواء ، وضعيف ، لا خطر منه الا
في الظلام . ومعبود الزنجي اقوى من معبود الأوستريالي الا انه مثله
مُبغضٌ مكروهٌ لدى عبادته — فهو غير منظور ولكنه مائت لا خالد
ويتألم ويتعذب وتحت سلطة الانسان وسحره . ومعبودات سكان
الجزر الجنوبية، مع انها نوعان، آلهة خير وآلهة شر ، ترى خوف القوم
من الثانية أشد من املهم في الأولى . فهم يعتقدون ان آلهتهم هذه
مهتد الاراضي وهيأتها ، لا انها خلقتها وأوجدتها ، وان البحر والبر
وُجدا قبلها لا بعدها . فهي لا تعاقب الطالح ولا تثيب الصالح .

وتراقب أمور الناس وتسهر عليهم ولكنها لا تتأثر من صلواتهم ، اذا سلمت من سطوة سحرهم وعراقهم . زد على ذلك انها تتطلب مقاسمة عبادها مواسمهم ومحصولاتهم .

فيظهر اذاً أن تقدم العلم الحقيقي والتوصل الى الحقائق الراهنة يرفعان الدين ويسموان به في كل حال . وهذا القول يتناول الشعوب المتأخرة والمتقدمة في المدنية جميعاً . فالاعتقاد في السحر والعرافة الذي طال تعلقه حجاباً كثيفاً على عقول أبناء العصور المتوسطة واستمر حتى اواسط القرن التاسع عشر مخيماً على اذهان سكان غربي أوروبا — ذلك الحجاب لم يمزقه الا نور العلم ، فخدم الدين بذلك خدمة جليلة وهاك الفرق بيننا وبين المتوحشين من حيث الدين . نحن ننتع الاهنا بالخير والصلاح ، اما هم فيعتبرون الشر والصلاح من أهم صفاته . نحن نسلم لربنا وثق به ، وهم يحاولون ان يتسلطوا عليه ويستبدوه . نحن نميل الى عزو البركات والخيرات الى ذوات غير ذواتنا ، اما هم فيحسبون البركات والخيرات آتية من تلقاء ذاتها وينسبون المحن واللعنات الى ذوات شريرة يتوهمونها

واذا صرفنا النظر عن لاهوت أهل الكهنوت وتقاسيرهم ، فلا يسعنا الا أن نقر بفضلهم في زيادة حياة الناس راحة وهناء . فانهم بتواضعهم وسعيهم الى خدمة الغير ومشاطرة الناس احزانهم الى غير هذه من المبررات ، يسعون سعياً مشكوراً ، ويأتون أعمالاً محمودة .

والعائلة التقية في مدينة أو قرية ، أشبه بنار العلم يهتدي بها التائه
الهائم في ظلام الجهل والضلالة

وهناك فرق بين « دين الأمة » وشيعها وطوائفها . فالشيعة أو
الطائفة تمثل رأياً أو زعماً أو مذهباً . أما « دين الأمة » فهو الشعور
العام بسرّ الوجود . والاختلاف لا بد منه ولكننا في غنى عن التباعد
والانفصال . والاختلافات الموجودة بين طوائف نفس المذهب
المتعددة اعظم من تلك الموجودة بينه وبين مذهب آخر . فأحرر
بكل وطني ان يكتفي من دين اخيه في الوطنية بأنه مثله شعوراً بسرّ
الوجود ، وبقيمة عطية الحياة المهداة الى كل منهما . وما بالنا ننشق
ونتباعد من اجل فروقات وهمية واختلافات فلسفية ! !

وقد اجاد القائل : « عَلم ابنك الحكمة تعلمه أدب الدنيا . علمه
ما هو حسن وحكيم تعلمه ادب الدنيا والدين »

واني لآمل واعتقد مع روسكن ان الاحسان والتساهل والسلام
تمهد السبيل لقيام كنيسة لا تبني على الجهل فتكون رهن السقوط ، ولا
على الانشقاق فلا تستطيع التقدم ، بل تكون النور والسلام اساسها
وشعارها

قال احدهم « الايمان اتسس الكنيسة ، والرجاء تلافاها من
السقوط . اما المحبة فمنها ينتظر ترميم البناء وتعديله وتحوير الاراء
وتجديد النظمات »

ان اردنا ، عشنا في السماء قسماً من كل نهار

قال فنلون : « يجب ان تعود نفسك على محاولة الاختلاء بالله
قلباً لقلب ، ربع ساعة كل صباح وكل مساء . وما هو ربع الساعة
بالنسبة الى الأبدية ؟ » ولكن بقطع النظر عن الأبدية والآخره ، فان
اتباع هذه العادة يعود علينا بالراحة والتعزية والسلام . انما الفرق
العظيم لا يظهر الا في آخر العمر . « لقن ابنك العلم ، تجعل حياته
مفيدة ، علمه الدين تجعل ميته سعيدة (١)

الفصل السادس عشر

اللاهوت

الدين والضمير — اللاهوت والعقل — سر الكون — جوهر الدين —
جوهر المسيحية — تنسوس والشك — التسامح — حكاية شرقية — اقوال
لموسى وداود وسليمان وميخا — تعاليم العهد الجديد — العقائد معانر في سبيل
الدين — العجائب — الايمان — الاختلافات الدينية — الاضطهاد —
مخاوف التسال — الشك والارتباب — المجادلة عبث — روح الدين —
الشك الجدير بالاعتبار — اقوال كبل وجرمي تايلر — ايمان الفيحيين —
تعاليم المسيح

الدين ليس بالعلم ، بل بالضمير . والدين كدليل السلوك واضح
وضوح النار على العلم . اما اللاهوت كفلسفة الكون فمبني على العقل
والادراك ، ولا نزال نرى الانشقاق والنزاع قائمين على قدم وساق
حتى بين أولئك المكرسين حياتهم وقواهم جميعا للابحاث والعلوم .
وعدد كبير من الناس يقولون مع القائل

(كواثن ايس يدري الكنه منها سوى من أمره كاف ونون)
والعلم لا يبرح يزيد معلوماتنا عن الطبيعة ، على ان اسرارها
تزايد عمقا وخفاء كلما خطونا خطوة وأنطنا حجبا . ولعل اولادنا او
اولاد اولادنا يكونون يوما ما اكثر منا نورا وهداية في سبيل استقصاء

هذه الحقائق واستطلاع تلك الاسرار ، اما نحن فلا يسعنا الا الاعتراف بجهلنا العميم . اننا لانكاد نعرف شيئاً ، حتى ولا انفسنا وقد قال سانت برنارد : « الشك ملح العقيدة »

قال جوبرت : « حب الله ، ولحبك الله ، وحب الناس ، وتحبك الناس هذا هو ادب الدين والدنيا . فالمحبة هي الكل في كليهما . فهي المبدأ والواسطة والغاية »

« انما نحمي الدين ونحفظ حرمة بموتنا لا بقتل الآخرين »^(١)
« اغلب الديانات القديمة قامت بطقوسها ومعابدها ، لاعلى المذاهب والعقائد »^(٢) . والضمير رؤيا الالهية لكل صاحب ضمير . وان الله ليكلما اليوم كما كان يكلم انبياءه واصفياءه في قديم الزمان ، والاولى بنا ان نقول ان الرسل « أوحى اليهم » لا ان « الكتب اوحى بها » . « وليست ميزة المسيحية باختلافها عن الديانات التي تقدمتها ، بل بمجيئها تامة لها وتكميلاً »^(٣) وقد بشرنا جوت ان عصر انتقاد الكتب قريب الانصرام ، وهو يكره التقيد والتقليد وينزع الى الحرية الفكرية نزوعاً شديداً . وهالك قوله ايضاً : « ليست العبرة اليوم بمجرد كلمات المسيح وأقواله ، بل بحالة المسيحية من حيث اقبال الناس عليها وتأثيرها فيهم وتأثيرهم فيها »

واللاهوتيون انفسهم يختارون في سر الوجود . « ان العالم العجيب الذي نوجد فيه ولو الى حين ، سواء اتبع لنا ان ننظر الى عالم الايمان

(١) لاكتنتيوس (٢) روبرتسون سمث (٣) جوت

الاسمى ام لم يُتَح ، انه وحده هيكمل ملوئه الاسرار والعجائب .
فكيفما ذهبت تجد حولك شواهد قوة عجيبة لست لتنظرها او تلمسها
او تحدها او تقيسها او تفهمها ^(١) . « كمال الادراك البشري انما هو
بمعرفة ان هنالك لانهاية من الحقائق التي لا ينتهي اليها ادراك ^(٢) »
والشاعر تنسون يفرق بين الايمان والمعرفة بقوله :

وأنى لنا علم بما ليس يُنظر ونحن على الايمان بالغيب اقدر
كأنى بمن شكوا باخلاص نية يقينهم في الحق اقوى واكثر
وكثيراً ما يختلف وينشق طلاب الحقيقة رأياً ومزماً ، ولكن
تلك الاختلافات والانشقاقات لاتولد عداوة وبغضاً « للعلم » وحذا
لو كانت هذه الحالة في ماخص « اللاهوت » . فان بعض اللاهوتيين
يعتبرون مخالفة رأيهم تعرضاً للدين ، وعدم الحكم فيه ^(٣) حكماً جائراً
عليه ، ويعدون الشك في صحته كفراً وجحوداً . على ان التقي يجب
ان يكون مُحسناً ، وأين التعصب من الاحسان ؟

روى سعدى الشاعر الفارسي ان شيخاً اعرج قدم ذات ليلة
اشتد ظلامها وعصفت عواصفها وطرق باب خيمة ابراهيم مستغيثاً
مستجيبراً ، فخرج اليه هذا وادخله منزله وأحله على الرحب والسعة
وقدم له طعاماً فأكل ، الا انه لم يحمد الله تعالى ولا فاه بصلاة قط .
فلم يتمالك ابراهيم نفسه واستجوبه سائلاً ، وما كاد يسمعه يقول انه
لا يعبد الا النار الاها حتى طرده خارجاً وأرجعه من حيث اتى . انما

(١) كنون لدون (٢) باسكال (٣) أي في رأيهم الشخصي

ما كاد الغريب يُبعد ويتوارى عن عيان ابراهيم حتى ظهر له الله وسأله عن ضيفه ، فأجابه : ربّاه اني طردته من بيتي طرداً حلماً علمت انه ليس من عبادك . فقال له الله : ها قد وسعته ووسعتُ سواه كل هذه السنين بطولها أما انت فقد ضقت به ليلة واحدة فندم ابراهيم على فعلته واستعاد الشيخ وأكرم مشواه وقام نحوه بجميع واجبات القرى الضيافة

وترانا نعيش ، ونستعمل المواد ، وننير بيوتنا ، مع اننا لا ندعي ادراك ماهية الحياة أو المادّة أو النور والكهربائية . وهكذا يظهر لي اننا نتوقع من رجال الدين اكثر مما يحق لنا ، ولعلمهم هم ايضاً ينتظرون منا فوق ما يجوز لهم

واذا تصفحت الكتاب وجدت الطهارة والسلوك محورين تدور حولهما فصوله واسفاره

وهاك بعض الاقوال الكتابية دليلاً على ان طهارة القلب وحسن السلوك هما جوهر الدين ومحور آياته . قال موسى : « ان هذه الوصية التي اوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ولا بعيدة منك . ليست هي في السماء حتى تقول من يصعد لاجلنا الى السماء ويأخذها لنا ويسمعنا اياها لنعمل بها . ولا هي في عبر البحر حتى تقول من يعبر لاجلنا البحر ويأخذها لنا ويسمعنا اياها لنعمل بها . بل الكلمة قريبة منك جداً ، في فمك وفي قلبك لنعمل بها » ^(١) وقال داود : « ذبائح

الله هي روح منكسرة . القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره ^(١) »
 وقال سليمان : « فلنسمع ختام الامر كله . اتق الله واحفظ وصاياه لان
 هذا هو الانسان كله . » ^(٢) فالآن يا اسرائيل ماذا يطلب منك
 الرب الالهك الا أن تتقي الرب الالهك لتسلك في كل طريقه وتحميه
 وتعبد الرب الالهك من كل قلبك ومن كل نفسك . » ^(٣) والعهد
 الجديد ايضاً يسهب في شرح هذه المثالة ويزيدها وضوحاً « الديانة
 الطاهرة النقية عند الله الآب هي هذه : افتقاد اليتامى والارامل في
 ضيقهم وحفظ الانسان نفسه بلا دنس من العالم . » ^(٤) « لذلك
 انت بلا عذر ايها الانسان كل من يدين . لانك في ما تدين غيرك
 تحكم على نفسك . لانك انت الذي تدين تفعل تلك الامور بعينها »
 الذي ^(٥) سيجازي كل واحد حسب اعماله . اما الذين بصبر في
 العمل الصالح يطلبون المجد والكرامة والبقاء ، فبالحيوة الابدية ، واما الذين
 هم من اهل التحزب ولا يطاوعون للحق بل للآثم فسخط وغضب ^(٦) »
 ولناخذ اخيراً قول المسيح نفسه : « تحب الرب الالهك من كل
 قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك . هذه هي الوصية الاولى
 والعظمى . والثانية مثلها ، تحب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين
 يتعلق الناموس كله والانبياء . » وهو القائل : « فكل ما تريدون

(١) المزمور ٥١ — ١٧ (٢) الجامعة ١٢ — ١٣ (٣) تثنية ١٠

— ١٢ (٤) يعقوب ١ — ٢٧ (٥) اي الله عز وجل (٦) رسالة بولس الى

الرومانيين ٢ — ١ — ٦ — ٧ — ٨

ان يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم ايضاً بهم ، لان هذا هو الناموس
والانبياء » (١)

و بعض الناس يحسبون الدين بالمذاهب والعقائد وانها هي ركنه
وقوامه ، بينما البعض الآخر لا يعد هذه الامور الامصاعب ومعاثر في
سبيل الدين . وهكذا يصبح الأنام فريقين منشقين بل متضادين
متعادين

وهناك أولئك الذين لا يدخلون المعبد مطلقاً ، وأولئك الذين
يدخلونه انما مختارين متألمين مما يترتب عليهم من التسليم بعقائد
ومذاهب فلسفية أو غير فلسفية ، ومن جرآء تلك النوعت والصفات
التي تنسب الى الناسوت الالاهي . ولست لا ذكر رأيي الشخصي في
الامر ، في هذا المقام ، بل حسبى الفات النظر الى قسم من المصاعب
التي يصادفها الكثيرون في سبيل الديانة

واهل تلك الايام الخالية ما كانوا يشكوا في امر العجائب أو
يرتابوا بشيء مطلقاً . بل العجائب التي أتى بها موسى الكليم امام
الملك فرعون ، جاء السحرة والعرافون وأتوه بمثلها . فاعتبار العجيبة
دليلاً على القدرة والسلطان انما هو قريب العهد حديثه

وليس بخاف ان كل اكتشاف علمي جديد يستدعي فتوضع
له مفردات وعبارات جديدة يعرف بها . ولا إخال الانكليزية ولا

(١) متى ٧ — ١٢ احترزوا من الانبياء الكذبة الذين يأتيونكم بثياب
الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة : متى ٧ - ١٥ - (العرب)

اية لغة سواها محتوية على الكلمات الكافية للتعبير عن حقائق الكون
واسراره العظيمة بأسرها . فحسبنا اذاً ، في كثير من المسائل التي تشغل
عقولنا ونفوسنا ، ان نُرجى الحكم في شأنها ونؤجله ريثما زادت دائرة
علمنا ومعرفتنا سعة وشمولاً . ولكن اذا كنا في ريب مما نفكر فيه
ونقرره من العقليات ، فقلما يخالجنا شك او ريب في ما يوحى اليها
الضمير من الحقوق والواجبات

وكأني باللاهوتيين يتجاهلون صعوبة ما لا يفهم ، ويظنون ان
التصديق والايمان من الامور الارادية الاختيارية . او كأنهم يحسبون
التصديق بدون دليل او برهان محمّدة من المحامد او فضيلة من
الفضائل . فتراهم ينتظرون منك ان تصدّق كل ما يُعرض عليك أو
تنكره . . . مع ان عدم التصديق شيء ، والنفي والانكار آخر . ولا
شك انه لا يليق بنا ان تقبل ونسلم بما لا يُقام عليه برهان ، ولا يثبت
دليل ، أما متى صدق الدليل ، ودمغت الحجة فلا يسعنا الا القبول
والتسليم . ولكن لا ينبغي ان هنالك مواقف لا محل فيها لانكار
الامر ولا للاعتراف به ، وما تلك الا مواقف الاحجام عن القطع
وتأجيل الحكم . زد على ذلك ان كثرة الاختلافات المذهبية لا يمكن
معها تنظيم طقوس عبادية يُجمع عليها الجميع ولو نظرياً فقط . وحذا
لو كانت الحالة غير ما نرى ! اما والحالة هذه ، فلا حول ولا . . .
ومما يجدر بالملاحظة والاعتبار ان الكتاب بعديهِ القديم والجديد

لا يظهر الدين كمذهب او كعقيدة ، بل ان جل محتوياته شرائع ونواميس ووصايا واضحة كل الوضوح . فالدين فيه عبارة عن عواطف ، وشعائر ومبادئ سلوك لا اكثر . انما هي التفسير المتباينة التي عبثت باياته ، والشروح والتعليقات التي أبعدت الناس وأضلتهم عن مبادئه وغاياته . فكأنني باللاهوت يقتل الدين بكثرة ما يفصله ويشرحه

فالوصايا العشر مبادئ سلوك محضة واذا قيل ان اليهود كانوا دون الغاية المطلوبة قبل المسيح ، فان الآيات الكتابية التي دونت بعده ، هي غاية في الوضوح والحكمة

والصلاة الربانية التي يضرع بها المسيحيون ، تشتمل على جميع الحاجيات والضرورات الحقيقية . الا انها خالية من كل تنويه بمذهب ، او تنديد برأي لاهوتي ، ولا إلماع فيها الى شيء ما من هذا القبيل

فضلاً عن ذلك ، لو ذكر القوم ان الخطأ ليس خطيئة ، وان امر الدين لامر جلال ولكنه لا يخلو من اسرار لا يستطلع طلعيها ، ولا تعرف دخيلة امرها ، وأن الشك والريب لا بد منهما في بعض المواقف قلت لو ذكر القوم ما ذكرنا لأمكنهم ان يتفقوا على تفرقهم مذاهب ، ويجتمعوا على تباعدهم عقائد . وما احوج بلادنا الى الى مثل هذين الاتفاق والاجتماع . ومن جهة اخرى ، ترى ان ديانات العالم الكثيرة قد تختلف اختلافات جوهرية ، من حيث المبدأ والتصور المبنية عليهما . « فالوثنيون ألهاوا الحياة ، اما المسيحيون فقد

آلهوا الموت — هذا هو الفرق بين الفريقين «^(١). فترى ان غايات الوجود لهؤلاء هي غيرها لأولئك ، فالمسيحيون يتطلعون الى حياة ابدية والبوذيتون يأملون التمازج مع « الروح العامة » بعد الموت . بل وحتى عند المسيحيين ترى عنوان الفضيلة في عصر من العصور غيره في آخر . فالقديس أونوفريوس اعتزل الناس واستأنس بوحشة الفقار وقضى ستين عاماً لا يرى أحداً ولا يجيء عملاً . والقديسة اتردا ما كانت تغتسل قط الا استعداداً لعيد كنائسي — وكلاهما استحقا الحرمان في نظر الكنيسة

وقريب بنا عهد زعم بعض المتدينين انه يجوز إحراق مخالفينهم واهلاكهم . . . فكأنهم أرادوا ان يتوصلوا الى السماء بجعلهم الارض جحيماً وجهنماً . . . ويا له من سلوك هو ضد تعاليم مسيحهم على خط مستقيم !

ويظهر لي ان توماس اكبس يشدد النكير على المتعمقين في دروس الدين ، فهو يحذر المتعمق بقوله :

إقنع من السر سر الدين بالوشل فهو العميق ولا يصفو لمنهل
ومن تعمق بات الشك يغمره فهو الغريق ولا يخشى من البلل
الله يعمل ما الانسان يجهله والمرء يجهل ما الله من عمل
وهذا مما لا ريب في صحته . الا انه بالنظر الى الآراء اللاهوتية المتناقضة المنتشرة بين ظهرانينا ، يصبح قول شاعرنا نصيحة البائس

غير الآمل ان تحمل تلك المشاكل والمسائل
قل فلنلون : « فكر قليلاً وصل كثيراً » . « ولا أحسن بك من
حمل ابتك على البساطة والسذاجة في ما خص الدين ، اذ حسبها ان
تعرف منه ما يمكنها من الايمان فيه والسلوك بموجبه . وانيك ان تسمح
لها بالتوغل في الابحاث الدينية » . وجوبرت ايضاً يعد التحقيق في
الامور الدينية فضولاً مضرّاً لا اكثر ، فانه يقول « كم من تقي
اوجده قولنا « خف الله » ، وكم من كافر جاحد اوجدته « البراهين
على وجود الله » . وهو نفسه القائل عن الدين : « تحدث فيه ولا
تحام عنه » ، ولا تقم حوله سوراً ، تر الناس اقل استعداداً لمهاجمته
ومحاربته »

وانه ليستحيل على الاولاد ان يكونوا لاهوتيين وفلاسفة دين ،
انما قد قيل « لمثل هرثلاء ملكوت السموات » . ولا شك ان الكبار
مطالبون باكثر مما يُطلب من الصغار . ولكن اذا حسبنا هذه الدنيا
مركزاً وقتياً للتجربة ، فلا بدع ان كانت محلاً للرّيب والشكوك
ومن يستطيع القول بان عقولنا ولغاتنا قادرة على احتواء اسرار
الوجود بأسرها ؟ الا ان رفض هذا القول رفضاً باتاً لا جذر بنا من
المصادقة عليه . فان العلم طالما عمل على تعظيم قدر تلك الاسرار في
نفوسنا ، وكأنه بذلك يشرف الشك ويقدره ويصيره واجباً عظيماً
احياناً ، كما انه خطأ مبين أخرى . فالشك لا يُبنى على احتقار الحقيقة
بل على اعتبارها وقدرها حق قدرها

قيل ، العقل اشبه بالمشكاة في ظلام السجن . وكم نفتخر بكوننا
نعقل ونعلل ونتفهم اسباب الامور ، ولكن ما اقل المسائل التي نحلها
بالمناضلة والمجادلة ! ! وقد يكون من تأثير الجدل انه يحمل السامعين
على الاعتقاد بان المتناظرين كلاهما في خطأ مبين ، ولكنه قلما ينتهي
بتغيير اعتقاد واحد منهما . ونصف الانشقاقات النصرانية نتجت انما
عن محاولة الاتحاد عن سبيل المجادلة والمحاورة

وفي الامور العالمية ، الصدق هو عنوان الكمال ولا اشرف منه
ولا اقدس . أما في الامور الدينية فالروح والشعور مقدم على الصدق
والحقيقة . ولا مرأ ان كل علم يجب ان يواصل بشعور حي وروح
طاهرة ، ولا سيما اذا كان ديني المبحث

كل الديانات ، فيها كثير النفع او قليله ، وليس من دين فاسد
بالكلية . وقد صدق ما كس موثر بقوله ان من يعرف ديناً واحداً
فقط فليس بعارف ديناً . ويمكننا ان نضيف الى هذا القول ، ان من
لا يفهم ويعتبر الا ديناً واحداً فقط فليس يمكنه ان يعتبر ديناً قط .
وصحيح غالباً هو قول سرولتر سكوت

ويا ليت لم يُولد على الارض قارى

يشك بما يقرأ وبالحق يهزأ

وما الدين ديناً الا بقدر ما يرتفع بافكارنا من على الارض الى
السماء ، ومن المادّي الى الروحي النفسي

والدين انما هو حب الله الرحيم ، وليس خوف الشيطان الرجيم

واذا كنا نصنع الخير ونأتي الصالح خوفاً من الجحيم أو أملًا بالنعيم، فهل كان ذلك إلا حباً ذاتياً وحساباً تجارياً؟ . ولأن نأتي المبررة طمعاً بثواب أو خوفاً من عقاب، خيرٌ من اتيان الشر لا مشاحة، ولا سيما بالنظر الى موضوع الصنعة، ولكن هذا لا ينفي كون الباعث المحرك مذموماً غير محمود. فالكافر المذكور في قصيدة سر ليل يُحسب اشرف مبدءاً ومقصداً، فانه قدم ذاته ضحية على مذبح الحق، لا المارب الشخصية

قال جرمي تايلر « ان الامور المذهبية لا تكون جزءاً من عبادة الخالق الا بقدر ما تبعث على حفظ وصاياه وتحمل على اتيان الاعمال الحميدة، بقدر ذلك فقط تعتبر المذاهب اجزاءاً حية من جسم الدين. » والايمان لا يخرج عن دائرة الحكمة طالما يمكن للمؤمن ان يقيم عليه ويحفظه من كل ريب وشائبة. الا أنه من الخطأ الفاحش ان نزعّم كما يزعم بعض اللاهوتيون... (انظر صفحة ٢٠٢) وكلنا يعلم انه مع ان الحقائق العلمية الراهنة راسخة رسوخ البناء الشاهق، فالمسائل والمشاكل الاصلية الاساسية لا تزال اعمق مما تطول يد البحث، ولا بد لنا في امرها من تأجيل الحكم وارجائه ريثما استطالت تلك اليد شيئاً فشيئاً. ولكن خطة الصبر والتأجيل هذه معدولة عنها متنبكة في ما خصّ الاحكام واللاهوت. وحبذا لو اتبعت في كليهما. والكفر الحقيقي انما هو كفر أولئك الذين مهما كانت ادعائهم واقوالهم فانهم يفعلون ويتصرفون كأنما لا حياة ابدية ترجى بعد الموت، وكأن هذه الدنيا

هي الاولى والآخرة ، أو كأنهم يدعون الاعتقاد بوجود سماء ونعيم ، ويتصرفون على اعتقاد ان تلك السماء ليست الا مكاناً أخف احتمالاً من نيران الجحيم ، لا على اعتقاد ان النعيم اجدر بالنوق والشوق من هذه الدنيا وزخارفها

والايمان بحسب فحوى الكتاب ، انما هو بالاعمال لا بالقول ، كما قال الرسول بولس في رسالته الى العبرانيين . واذا كنت لا تسلك بحسب ما تعتقد وتؤمن ، فما أنت بصادق في ايمانك واعتقادك . ولنضرب لذلك مثلاً . ان النيجيين كانوا بالحقيقة مؤمنين بالحياة الثانية . وفي اعتقادهم ان المرء يبعث في العالم الثاني في الحالة التي مات فيها ، فصغيراً اذا توفي صغيراً ، وشيخاً لو مات شيخاً ، وقوياً اذا كان قضي قوياً ، واصم اذا اخترم اصم وهلم جرا . ولذلك لقد كان يهمهم جداً ان يموت واحدهم مالكا لجميع قواه وحواسه ، اي قبلما تفقد العضلات شدتها ، والعين حدة بصرها ، والاذن قوة سمعها . هذا كان ايمانهم وعليه عاشوا وماتوا . فواحدهم كان يعمل على قتل نفسه في زهرة العمر وربع الحياة . وقد ذكر القائد ولكن انه لم يجد في ذات مدينة كبيرة فرداً واحداً تجاوز الاربعين سنة

هذا ما اعدده ايماناً هذا ايمان صادق بحياة بعد الموت ولكن اذا لم يكن اللاهوت وحيّاً ، فانه بالاقول أمل ورغية . وقد اجاد پاسكال بقوله ان للقلب عللاً ومعلولات وأسباباً ومعتولات لا علم بها للعقل . على انه من الاخرى والاولى ان نكل العقل وحده

بآرائنا واحكامنا ، لانه على نقصه اقدر دليل على هدايتنا . ولنذكر ان هاته الاسرار العميقة الهائلة التي نخطط فيها خبط عشواء تظل جدبرة بالاعتبار والوقار ولو عجزنا عن سبر اغوارها واجتلاء انوارها . ولأن يكون موقفنا فوق العقل خير من ان يكون ضده . فقد نخطئ ونغلط مراراً ، اما كل ما هو ضد العقل فهو خطأ خارج عن دائرة الصواب لا يُتاح له دخول فيها . والاولى ان نعتبر اعتقاداتنا وقتية احتياطية ، في كل حال . وما تصديق السر المجهول واعتقاده الا قول فاسد متناقض الدلالة والمضمون

وخطاب المسيح المعروف بمظة الجبل خطاب لا نستطيع ان نمسه بتحسين او تكميل ، واذا حاولنا ان نضيف عليه شيئاً فبكل الاعتناء ينبغي ان تقدم على ذلك

قال 'جوت' : « ان في اللاهوت » كلمات « غير محدودة الدلالة وهي التي اشغلت عقول البشر لعصور بعد عصور — كلمات تلقى وتقبل على عواهنها — يبرهن بها الناس ويعلمون اقوالهم بدون أن يعلموها ويبرهنوها^(١) » وكم من التحزبات الدينية ما قام على كلمات مبهمّة المراد لا قبل للمتحرّزين بتفسيرها »

وقال رنان « الديانات عبث كالفلسفات ، ولكن عبث الدين ليس باكثر من عبث الفلسفة »

ومحاولة الاضافة على تعاليم المسيح والتحسين فيها ، تلوح كمحاولة

(١) اي تلك « الكلمات »

العبث ، بل انها جارحة مؤلمة في ذاتها . ولا شك ، لاذة هي الابحاث
اللاهوتية ، ولكنها ليست روح الدين وجوهره ، بل درسه وعلمه .
وليس اللاهوت ديناً . واللاهوت رياضة يمارسها العقل . اما الدين فعاطفة
يحيا بها القلب . واخلط بين الاثنين خطأ عظيم طالما أدى الى نتائج
وخيمة . وكم سببت الانشقاقات اللاهوتية من حروب طاحنة ، ومذابح
جرت فيها الدماء انهاراً ، وكم من ألوف أذيقوا حتوفهم ، وصرمت
آجالهم ، وعذبوا ولوّعوا ونكل بهم تنكيلاً — كل ذلك في سبيل
اللاهوت والعقائد . ومن سقطوا وافترسوا غنائم باردة في تلك الحروب
ربما كانوا مسيحيين أو لم يكونوا . ولكن من ثاروا الافكار وهاجوها
باسم الحقائق اللاهوتية ، أولئك لا شك انهم لم يكونوا من المسيحية
الحقة على شيء . اذ من يستطيع ان يتصور ان عيسى كان ليوافق على
تلك الافعال النظيمة ويحللها — تلك الافعال التي لا تزيد الا فظاعة
بانتسابها الى الدين وتظللها بلوائه

وتلك الحروب — التي تسمى دينية ، انما كذباً وزوراً — مهما
عظم اعتبارنا للعواطف والبواعث التي أورت اوراها وأضرمت نارها ،
اجل ، انها اني عداد الحروب الوحشية البربرية التي تأنفها النفس
وتأبأها . والحروب الصليبية ، كثيراً ما نعدّها من باب تكريس النفس
والتضحية بها ، ونحسبها شريفة من اجل ذلك . والحق يقال انها
لكذلك من احد وجوها . فكثير من تلك الجنود ، وبعض من
اولئك القواد كانوا مدفوعين مندفعين بعواطف ومحركات طاهرة

وسامية ونبيلة . ولكن ما كان اجمل واخلاً واشر ، أولئك الذين كانوا هم المسيبين البادئين لتلك المشاغبات الرائعة التي تحولت الى هذه المعارك الهائلة !!! « انظروا انظروا الى التعصبات ، الى الاضطهادات ، الى الحروب الدينية ، الى الجنون الدموي الذي لم يحسبه الاقدمون جنوناً . واذكروا الحروب الصليبية ، تلك المذابح والمجازر التي أجرت الدماء غدراناً وأنهاراً ، مدة مائتين من السنين الطوال ، واذكروا تلك العبارة التي كانوا ينشدونها ويترنمون بها — هكذا يريد الله — ثم انظروا الى الغاية التي كانوا يتسابقون اليها — امتلاك قبر من علم الناس الحب والتسامح . واذكروا فظائع طرد اليهود والمورة من اسبانيا ، وقرض تلك الاقوام عن بكرة ايها . وانظروا الى برك الدم وخلقجانه ، الى تلك المحاكم (المرتقية) . . . الى فتوحات المحمدين في ثلاث من قارات الارض ، او فتوحات المسيحيين في قارة اميركا ، تلك الفتوحات التي أفنت اهالي كوبا عن آخرهم ، وكادت تفني القسم الاعظم من سائر السكان . والمتسمون مسيحيين ، في نحو ٤٠ من السنين قتلوا ١٢٦٠٠٠٠٠٠٠ من النفوس — كل ذلك في سبيل انتشار انجيل المسيح ، ولان القوم حسبوا كل ما خرج عن المسيحية خارجاً عن الانسانية ايضاً . . . » (١)

وحتى في بلادنا ، نحن الانكليز ، ترى اللاهوت مقسماً الدين وابناءه الى شيع واحزاب متضادة متعادية . (٢)

(١) Schopenhauer (٢) اخي الشرقي! كيف انت والتعصب الديني ياترى؟ -المعرب

وكم يلذ لنا ان نعرف عن كيان الكون اكثر مما نعرف ! انما لتقنع
بما عندنا ولتتجمل صابرين . واني لاشعر مع القديس أوغسطينوس
القائل : « ليتناضل الناس فيما بينهم ، اما انا فاتأمل واتعجب »
اما الرغبة في الابحاث اللاهوتية من حيث اعتبارها اساساً للدين ،
فليس يُنكر وجودها ولا بد لنا من تعرفها والاعتراف بها . وبين جميع
الكنائس ، لا كنيسة تظهر لي اوسع نطاقاً ، واكثر تساهلاً وتسامحاً
أو أميل الى التقدم ، او أكثر حرية وشمولاً ، من كنيسة الامة ^(١) .
قال هكسلي : « لا يشق على ان اتصور قيام « كنيسة » ^(٢)
تكون بركة شاملة لا بناؤها ، كنيسة تقام فيها العبادات اسبوعاً فاسبوعاً ،
انما لا لاجل تكرار تلك الطقوس اللاهوتية الرمزية ، بل لاجل نصب
مثال ازاء عيون العابدين ، مثال المعيشة الصادقة الطاهرة ، كنيسة
يدخلها المتعبون من احوال الحياة اليومية فيشعرون براحة زمنية بتأمل
تلك الحياة العليا التي لا يعرفها الا القلائل المعدودون ، كنيسة يدرك
فيها رجل الجد والمجاهدة ، رجل المال والاعمال ، حقارة الجزاء
والمكافأة التي ينالها لقاء كده ونصبه ، اذ يقابل بينهما وبين « السلام »
« والاحسان » . ولأؤخذ بقولي « لئن قامت كنيسة على هذه الدعائم
فلا يقوم لها ناقض ولا هادم »

(١) المذهب الانكليكاني مذهب الحكومة الانكليزية (٢) قد تستعمل
الكنيسة بمعنى المذهب

الفصل السابع عشر

السلام العقلي

سلام المرء العقلي منوط به — الاضطراب الذي في غير محله — النوم والهموم — الهجس بالمصائب — مثل شرقي — قول جنس في الاهانة — الفضول — المصاعب — القلق والاعمال — مكتبة مستر غلادستون — عمل المرء لذاته وعمله لغيره — العالم — الوصايا — الحياة الصالحة — الريب — الديانات — المضادة — الوعود الكتائية — السلام

كثيراً ما يُشبه السلام الدولي بالسلام الافرادي ، وهو تشبيه قريب من جملة وجوه . فهو صحيح ان حفظ السلام افضل من ربح معركة ، ولكن هنالك فرقاً مهماً . فالامة مهما كانت رزينة وعادلة ، لا تروم افتراء ولا اعتداء ، فقد يتعذر عليها ان تحمي علم السلم من التنكيس ، ذلك لانها قد تُبلى بأمة مجاورة متاخمة لها ، تكون ثائرة ، ذات مطامع ، عديمة الرزانة ، لا ترعى للجوار حقاً ولا تحفظ ذماماً ، فتناصبها العداء وتشهر عليها الحرب عواناً

اما السلام العقلي فلا أحد يستطيع ان يُعكّر صفاءه وينكس لواءه ، الا صاحبه نفسه . ولا شك انه قد يصعب احياناً ان نسوي بين الامور تمام التسوية : « لقمة يابسة ومعها سلامة خير من بيت ملآن ذبائح مع خصام . حفنة راحة خير من حفنتي تعب وقبض الربح .

القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع هم ١٠ كلمة من القول
حيث تكون المحبة خير من ثور معلوف ومعه بغضة » (١)
وكثيراً ما يُتَعَسُّ الناس النفس و يُشَقُّونَهَا بتعليقهم كبير الاهمية
على الطفيف غير ذي البال من الامور . وكم يتفق انه ، بينا ينابيع
السعادة الرئيسية مترققة في مجاريها — اي اذ الجسم بصحته ، والاهل
والخلان على غاية ما يرام ، والدخل فائض عن الخرج ، ولا داعي
حقيقياً للقلق والاضطراب — قلت ، بينا هذه هي احوال المرء ، فقد
تبدوله طفيفة حال ، او يزل زلّة صغيرة ، او قد يغلب في لعبة في
بيته ، او يسبقه القطار من المحطة او يُوجّه اليه « ملاحظة » تنكيتية او
انتقادية . . فتسندل غيمة كثيفة فوق شمس حياته وتظلم الدنيا في
عينيه — بل قد يخيم فوقه مثل تلك الغيمة بدون اقل سبب من مثل
هذه الاسباب الظاهرية الوهمية . فالعقل عرضة للمرض كالجسم وكم
يضعف ويمرض . اما شفاؤه فضروري كشفاء الجسم ولكنه اصعب
منه معالجة ومراساً

ومهما كثرت المصائب وتعددت فانها قد تظل اقل من ان تسبب
لنا حزنًا واحداً عظيماً ، اذا كنا نأبى ان نجعلها بعضاً الى بعض .
فالمصائب يجب أن تحتفظ كل على حدة ، وتعالج كل لذاتها . لان
مصائب الحياة اشبه بالعصي المذكورة في « حكاية الشيخ واولاده »
تلك العصي التي اذا فرقها كسرتها واحدة واحدة ، واذا جمعتها

وضمتها معاً ضقت بها ذرعاً وعجزت عن كسرها
وكل يستطيع ان يسعد فرداً - هو ذاته - اذا عرف من اين
يأتيه . وليحرص كل انسان ان يدع فكره في سلام وطمأنينة خالياً
من الهواجس والمطامع . والمرء وحده يستطيع ان يفعل هذا بنفسه
وليس لسواه ان يساعده بشيء في مثل هذا من امره . « من لا يجد
الراحة في داخله ، فعبثاً يبحث عنها خارجاً »

هذا فقير انما احلامه ذهبية فهو القنوع وذوالغنى
ذا كم غنيّ انما افكاره تولىه اتعاباً وتولىه عنا
والليل يكبر اشباح المصائب ويزيدها طولاً وعرضاً . فكم مرة
ينجم الظلام ، ويسود السكون ، واذا بالخيالة ملأى من الافكار
المتراوحة ، والدماغ التعب رغماً عن تعب يشغل ضد ارادتنا ويدعو
المصاعب الوهمية ، ويحاول حل مشاكل لا حل لها ، ويستحضر
الارواح والاشباح ، او لعله يقتصر على تعداد وتكرار ما لا نهاية من
تكراره وتعداده - فتمنى اذ ذاك لو نستطيع غرقاً في بحر السبات او
نيت ولسان حالنا قول الملك هنري (انظر صفحة ٣٦)

اننا لنعذب انفسنا اكثر مما يستطيع الغير ان يعذبونا . وانكى
المصائب تلك التي لا تقع ولا تحمل بنا مطلقاً . ولندكر اننا بقدر ما
ننسى انفسنا ونهتم بالآخرين كذلك تزيد سعادتنا ويتوفر هناؤنا .
وقد قيل « لا يرتاح المرء الا بنسيانه نفسه » . فضلاً عن ذلك اننا
كثيراً ما نعذب النفس باطلاً وعبثاً . قال شيشرون : « من الجهالة

ان تقرّ فكرك على بلية ربما تأتي ، او على بلية قد لا تأتي ابداً . فكل بلية اذا نزلت بالمرء أثقلتُهُ هماً وحرّنا واما من لا يفتأ يعتقد ان البلايا ستدّهمه فما هو الا محمل نفسه من البلايا ما ينوء به ويرزح تحته . وبلاياه قد لا تقر به بأذى ولكنه من جرّاء توقّعه لها وحسابه لحلولها يفقد هناءه وراحة باله ، حتى كأنها أثقلت منكبيه وهدت عاتقه . والمصائب التي تلمّ وتنزل ، قد لا تزيد خطبها الا جساماً بصرف جملة قوانا الفكرية اليها وزيادة التحديق فيها . « والموت اذا كنا لا نفكر فيه اسهل من الخوف حيث لا خطر يتهدد »

يقول المثل الشرقي « من يدخل بيت السعد من باب المسرة ، يخرج منه من باب الارتباك والحيرة » « والخطيئة ، هي شرّ استعباد في العالم . فانها تذلل نفس المرء وتحطها الى الخضيض ، بل تتركه دينئاً ووضيعاً لدرجة ان يُعَدَم شجاعة ينهض بها وينجو من سقطته » ومهم هو رأي الآخرين فينا ، اما رأينا في نفسنا فاكبر أهمية ولماذا تُرانا نسلط الغير علينا ؟ او لماذا نسلم قيادنا لشهواتنا واهوائنا ونبيت عبيداً لها واسرى ؟ والمثل الشرقي يقول « الخجل عقيب الجمل ، والندم عقيب الغضب » . وهالك نصيحة الدكتور جنسن : « غض الطرف عن الالهانة واطو عليها كشحاً . فبهات للحماقة ان تستحق حقداً . وافضل عقاب على الشر ، اهماله واغفاله » . واذا كنا نبدي اجتراحنا واتقايضا فلا نكون الا مظهرين نفس ما يتمنى العدو وكأننا

بذلك نكسبه نصراً وفخراً . وبالعكس اذا قابلنا هجومه بابتسامة ، ولو
تكلفاً وسخرية فانه يشعر اذ ذاك انه هو المغلوب المدحور

وقد قال توماس اكبس :

اذا انت خلّيت الأنام وشأنهم تراهم قد خلّوك انت وشأنكا
وهو القاتل :

اذا المرء لم يحمل من الناس اقوالاً وهذراً وأعمالاً وشأناً وافعالاً
غداً مستريحاً ذا سلام مكمل وعاش سعيداً ليس يشغل بالاً
وأني لذيتك الفضولي راحة ! كأني به ساع يروم محالاً
وكأني بالذين ينعكفون على أمورهم وينصبون عليها انصباباً ،
يكرسون تلك الامور ويكرسون ذواتهم بتكريسها ^(١) . وليست
العبرة الاولى بنوع العمل ، بل بالطريقة التي يتم عليها . ولما سئل ثرزر
عن سرّ نجاحه في دنياه ، قال « انما السرّ — الكد والجد » . واذا
كان المرء يرغب في سعادة الناس ، ولا يمر عليه يوم لا يأتي فيه شيئاً
من الخير ، فكيف لا يكون سعيداً

لا افراح بدون اتراح ، في هذه الدنيا . وما كانت الحياة الا
الالتملّ لو لا ما فيها من الصعوبات التي تتحرك لتجاوزها . والالعب
لا لذة فيها الا ما يشعر به كلا الرابح والخاسر اذ هما يتنازعان جعلتها
ويتباريان اليها . والنصر لا يُعد نصراً الا اذا كان الخضم من اهل
الضراب والطعان وابن المضمار والميدان

(١) كلمة المؤلف هنا قد تتضمن معنى التقديس ايضاً

وسواء رضينا أم لم نرض ، ما الحياة الا امتحان ، يكرم فيه المرء ويُهَان . وليس من عذاب نقاسيه ولا نستفيد مما فيه . وقليلة هي اللعنات التي اذا تدبرناها لانجدها بركات في غير زيتها . والغلطة اذا كانت غلطة شريفة (اي آتية عفواً) فقد لا تنتج سوءاً ، بل ربما أتت كمثالة مفيدة ، وانقلب شرها خيراً

ومن كان غنياً وكان شديد القلق على امواله ، فما ذلك لانه ربهها ومالكها ، بل لانه عبدها ومملوكها . ومن الجهل ان يتعاطى المرء عملاً لا بد معنه من القلق والاضطراب ، بل ان ذلك العمل لا يكون تجارياً حقيقياً بل محض « مضاربة » ، ونسبته الى التجارة كنسبة التنجيم الى علم الفلك . . ولا يخفى ان العمل الذي يظهر سليم العاقبة في اول الامر قد يكون وخيمها في آخره . ولست لاقول ان التاجر يمكنه ان يسلم من القلق والاضطراب : فالحسائر وحتى الخراب الكلي قد تدهم حتى الحازم البصير — انما هذه طوارئ ، حدثان ، وليست من الملحقات اللازمة لضروب التجارة . فالفلاحون مثلاً ليسوا « بمضاربين » ولا يعهدون عرضة للهواجس والاهتمامات ، ولكنها تنتابهم في اوقات القحط وأوقات الطوفان ، وحينما تهبط الاسعار أو تمحل الغلال

ورغمًا عن ذلك فانه ممكن — ولست لاقول « سهل » — اجل ممكن للمرء ان يعيش بخلو البال وسلام النفس ، حتى في وسط كثرت حركته وعلت ضوضاؤه . ومن وجد الامر مستحيلاً فخير

له ان يعتزل الاعمال ^(١) والحركة ويلزم سكون بيته ، اذ ما ذا يجديه
ان يُهلك « نفسه » فدَى للاصفر الرّمان

بعض الناس يجدون راحتهم في الحركة ، وبعضهم يكونون على
اشد ما يكون من الحركة اذ هم في حالة الراحة والسكون

وليس يتسنى للمرء ان يضمن لنفسه السلام وراحة الفكر ، بمجرد
اعتزاله عالم الحركة واختلاله في كوخ في البرية . فربما كانت صفار
الامور مسببة للقلق والاضطراب كالأعمال التجارية والشؤون السياسية .
واذا خلا الفكر امتلاً الضمير . والسلام انما هو سلام الفكر . واذا كان
العقل في ارتباك وهيجان فلا سلام ولا أمان . وغلادستون ذلك الرجل
العظيم الذي لم يتفق لرجل آخر ان يوجد في محيط اشد وضواً من
المحيط الذي عاش فيه ، كان اذا خرج من مجلس النواب أودع ضمن
جدرانهِ كل مشكل وكل مُهمة ، واتى منزله خلوّاً من كل هم ، وكان
يطلق على مكتبته اسم « هيكل السلام » . فاذا كان وزير انكلترا
الاكبر ، على عظم المسؤولية التي كانت ملقاة على عاتقه ، قدر ان
يجعل بيته هيكل سلام ، فبالاحرى ان يقدر كل انسان سواه ان
يجعل عقله معبداً للسلام مقدساً

والسلام البيتي مترتب على اهله وسكانه ، وسلام كل فرد منوط
به لا غير . قال هاينر « جرت العادة في رومية ان العروسين يحضران
أول قداس في حياتهما الجديدة في « كنيسة السلام — كنيسة

(١) يريد المؤلف بالاعمال « التجارية » منها

القديسة مريم « ويضرعان اليها ان تشر لواء السلام فوق حياتهما الزوجية »

وربما كان العاشون في القرى والحقول اقوى من سكان المدن على احتمال المزعجات البيتية العائلية . اما التجار واصحاب المعامل الذي يقضون النهار بطوله بين الدفاتر والمناضد فمن الضروري لهم ان يخصصوا قسماً من وقتهم لاجل الخلو والراحة ، بعد ذلك الانهماك والتعب . فانهم يستمرون مع توالي الساعات وفكرهم في الريالات والجنيهاً بل وفي البارات والمليمات الى غير هذه من المتعلقات والملحقات . ولندكر ان سر النجاح انما هو في التأني والسكينة ، وتبعاً للمثل الصيني « الصبر والمثابرة يصيران ورق التوت حريراً يلبس » وهناك ثلاثة أشياء لا تشتري ولا تباع : الصحة - السعادة - السلام . ولكن مع ان هذه الثلاثة اثنان من ان تثن وتشتري ، فانها قرية المنال من كل انسان يريد ان يقتنيها لنفسه ، وما عليه الا ان يريد ويختار

يزعم البعض ان لا سلام في الحياة . وهو زعم بعيد عن محجة الصواب . فقد قال ماركوس اوريليوس « عيش مع الالهة ! وكل امرء يعيش معهم ، اذا كان يظهر لهم ان نفسه مرتاحة الى الفروض المعينة له ، وانها لا تحيد عما يريد » الملاك الحارس . وهذا الملاك الحارس انما هو فهم المرء وعقله لا غير »

وكلنا يعلم كم يسهل على المرء ان يشقى نفسه بنفسه . اكثر من

الاكل والشرب ، وقلل من الرياضة وانتشاق الهواء النقي ، تسبب
لنفسك علة سوء الهضم وتبيت عالة على عائلتك . او اصرف اكثر
مما تدخل - او بت حسوداً ، وسوء الظن ، او محباً للذات ، او
عديم الشرف والمبدأ . . . اجل لا اسهل من ذلك . ولكنه ليس
بالسهل ان يسعد المرء نفسه ويصبح بركة شاملة لكل من حوله -
على ان ذلك من الممكنات

واذا كنت تشغل لاجل نفسك فقط فلا تسلم من الشعور
بأنحطاط قواك وخوار عزيمتك بحيث تقول مع سليمان : لذلك كرهت
الحياة ، لان العمل الذي يعمل تحت الشمس يحزنني . لان الكل
باطل وقبض الريح . ولو ان سليمان صرف همه الى اسعاد شعبه
وعمل على ازالة ظلماتهم لكان عاش سعيداً وكفي مؤونة الندم
على اتعابه

وقد صدق ستيقسن بقوله ألا احد يكون عديم النفع ظالماله
صديق . ولكن لماذا يكون المرء عديم النفع على حين المحتاجون الى
المساعدة كثيرون ؟ والمرء قد يكون حقيراً وضعيفاً ، ولكن ذلك لا
يمنع من اتيانه نفعا يذكرك : فالفأرة على ضعفها خلصت الاسد مرة من
جبال الموت

انا عايشون في عالم جميل جداً ، ولكن قليلة هي الصالحات التي
تنال عن غير سبيل الاجتهاد . فانه ليس بعالم يُفلح فيه خوار العزم
وسريع الفشل . الثبات والكد والجد - هذه هي الطريق الى النجاح .

ولا بأس من ذلك ، فان الشغل ضروري من اجل السلام العقلي ومن
اجل الصحة ايضاً

والوصايا العشر ، هي قواعد ذهبية يجدر بنا ان نسلك بموجبها في
جميع تصرفاتنا الافرادية والاهلية ، بل انها أوامر يجب ان نصنع
بها سواء اثابتنا السماء او عاقبتنا جهنم ، لان اتباعها يؤول الى خيرنا
في كل حال

والآتاع التي نمنى بها ليست في طبيعة الامور التي تتعاطاها ، ولا
هي تأتينا من الخارج ، بل انها منا وفينا . واذا هبت عواصف العالم ،
فلا غيرنا من يثيرها ، ومن ثمَّ وجب علينا نحن ان نتقيها ونحتفظ منها
صابرين . فالمصائب لا بدَّ لنا منها ، انما ينبغي لنا ان نقابلها بما عندنا
من البركات مما يوازئها ويرجح عليها . وكل ما هو مطلوب منا عائدٌ
علينا بالنفع لا محالة ، وكل مُنكرٍ منهىٌ عنه لا حكمة في فعله ولا صلاح .
فدو الحدة والفرق يشقي نفسه بنفسه — والبخيل العائش بالتقتير لا
يذوق لمنفعة ماله طعاماً . والنهم والسكر يتركنا ملذّة الاكل والشرب
الطبيعية سبباً للشقاء والانحطاط — ومن يشتغل سبعة ايام كل اسبوع
تنحط قواه ويقصر عن شأوه — والجاهل والكسول لا يعرفان شيئاً
عن عالمنا الجميل ، فنفتوهم ما لذات الفنون والآداب والعلوم — وعديم
الحنان ومحب الذات لا يشعران بنعمة ثقة الاصدقاء والاقرباء ولا ببركة
الحبة المتبادلة . والرجل الطالح يستمر على انحطاطه وسقوطه من يوم
الى يوم ، فلا يعتم ان يرى نفسه ألعوبة بين ايادي الشقاء والاعداء ،

بعد ما يكون قد اتلف عقله وجسمه جميعاً فينتبه اذ ذاك لامره ويُلَفِت نحو المستقبل فلا يزيد شقاؤه الا شدةً واهوالاً . وبعبكه الصالح فانه على توالي سنينه يرى الحياة اكثر سهولة وأوفر سعادة ، يعيش وضميره على سلام ، وافكاره وتذكراته سعيدة وجميلة ، ويرى نفسه مُحاطاً بالاصدقاء الالوفياء ، عائشاً في بيت تحفق فوقه أعلام السلام والسعادة

دع ندى اللطف يُرطب لك طريق الحياة ، فلا تعود عينك تقذى بغبارها . وكن شديد الحكم على نفسك ، وكثير التساهل مع الآخرين . « واذا دعا داعي الموت فعندئذ لا نندم على الحلم بل على الشدة والظلم » . واللطف في المعاملة أفعل من العنف . وجرب دائماً ان تحسن الظن في الناس واعتبرهم موضعاً للثقة ، فقد تحملهم بصنيعك هذا على الأمانة وصدق النية وسلامة الطوية

وربما استحال علينا ان نعرف من اين اتينا والى اين المصير ، ولكن قلوبنا لا تشك في اي هو الواجب واي هو الحق . فلنصخ الى صوت الضمير ونعتبر كلا امره ونهيه

قيل ان قروياً سمع مرةً عظةً جدليةً قصد فيها الواعظ ان يبرهن وجود الله ، وبعد ان استوعبها جميعاً قال انها حافلة بالافكار العلمية ولكنها لم تحدث به تغييراً ، فانه ما برح يعتقد وجود الله كما كان من ذي قبل . وكما اشك أن الابحاث اللاهوتية تعمل على تثبيت الدين وتقوية عوامله . وقد قال احد القديسين : « أتجذبني

الى ذاتك يا الاهي ؟ ولست لاجبك اكثر مما احبك طمعاً بالسما ،
ولا لاخافك اكثر مما اخافك خوفاً من الجحيم »

قالت مدام دي ستال « اذا اردنا تسكين نأثر النفس ، فلنقدم
لها ما يميل بها عن مزعجاتها ويبعدها عنها ، عوضاً عن مقاومة مسببها
ومحاربتها - هذه هي الطريقة المثلى »

لو اننا ربنا نلقي عليك عنا به ننوء اذاً ما كان اسعدنا
كنا نعيش وترعانا بحكمتها عين الذي اوجد الدنيا واوجدنا^(١)
واذكروا وعوده تعالى : « لا تخشى من خوف الليل ولا من
سهم يطير في النهار ، ولا من وباء يسلك في الدجى ولا من هلاك يفسد
في الظهيرة »^(٢) « ما لم تره عين ولم تسمع به اذن ولا خطر يبال
انسان ما أعدّه الله للذين يحبونه »

وقد قال المسيح : « تعالوا الي يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال
وانا اريحكم » . ولكن لا سلام للاشرار يقول الرب . فاضطربهم
عاقبة خطاياهم

كالراحة للجسد ، كذلك السلام للعقل . والسلام انواع : فسلام
داخلي ، وسلام خارجي ، وسلام ابدى ، وسلام مع الناس ، وسلام
مع الله ، وسلام المرء مع نفسه . قال فنلون : « اطلب الله في داخلك
تجده لا محالة ، وتجد الفرح والسلام معه . وان كلمة من المسيح سكنت

ثأثر البحر وهائجه ، ولنظرة واحدة منه تفعل بنا مثل ذلك » . واذا
كنا لا نفلت من قبضة القلق والاضطراب ، فما ذلك الا لاننا لم
نسلم على مواطن السلام ولا تعرفناها
ولكن بينما نحن نصلي قائلين « لتكن مشيئتك » نعيش ولا نفعل
الا مشيئتنا

والرسول بولس يأمرنا قائلًا : افرحوا في الرب كل حين واقول
ايضًا افرحوا . ليكن حلمكم معروفًا لدى جميع الناس . الرب قريب .
لا تهتموا بشيء بل في كل شيء بالصلاة والدعاء مع الشكر تعلم طلباتكم
لدى الله »

الفصل الثامن عشر

السلام الدولي

حالة اوروبا الحاضرة — مصاريف التسليح والتجنيد الفاحشة — التحكيم —
 نخبنا — احوال الحروب — بطلانها — مصالح الامم المشتركة — مقابلة بين
 البحريات — مقارنة بين اوروبا والولايات المتحدة — سياسة اوروبا — الحواجز
 الدولية — تأخير التجارة — الاتحاد الاوربي — لورد سالسبوري —
 مستقبل اوروبا

سلامة البلاد ليست بسلامة ولا بثروتها بل باصدقائها — سلمت

ان حالة اوروبا الحاضرة لخطر وعار علينا جميعا . واتقد تعذر القبائل
 البربرية أن تحل مشاكلها بحمد السيف ولسنان الرمح ، اما تعويل
 الامم المتقدمة على الحروب فمغاير لأدب النفس ومخالف لسلامة الطبع .
 فحتى معدّات السلم اليوم تشتمل على ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ قفس ، اما
 معدّات الحرب فتزيد عن ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ واذا تمت المشروعات
 المعروضة بلغ عدد النفوس ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ونيفاً . اما المصاريف
 المقررة فتبلغ ٢٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيفاً واكثر . فضلاً عن ذلك لو
 شغلنا اولئك الـ ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من الرجال وحسبنا معدل نتيجة الواحد
 منهم ٥٠ جنيفاً ، لاضفنا على الـ ٢٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ المذكورة
 ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ أخرى من الجنيفات ، فكان مصروف اوروبا
 الحربي ٤٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيفاً سنوياً

والمقارنة بين قوات الدول ومصاريفها صعبة جداً ولكنها غير مستحيلة
واليك جدولاً احصائياً للبريات والبحريّات في اوربا وفي اميركا

المصاروف السنوي	تحت السلاح	المملكة
جنيه ٦٥ ٠٠٠ ٠٠٠	٤٢٠ ٠٠٠	انكلترا
» ٤٦ ٥٠٠ ٠٠٠	١ ١٥٠ ٠٠٠	روسيا
» ٤٣ ٨٠٠ ٠٠٠	٦٦١ ٠٠٠	المانيا
» ٤١ ٠٠٠ ٠٠٠	٦٢٠ ٠٠٠	فرنسا
» ١٩ ٤٠٠ ٠٠٠	٣٨٤ ٠٠٠	النمسا
» ١٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠٥ ٩٠٠	ايطاليا
» ٦٧٠٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠	اسبانيا
» ٥٥٠٠ ٠٠٠	٧٣ ٠٠٠	اسوج ونروج
» ٤٨٠٠ ٠٠٠	٣٧٠ ٠٠٠	تركيا
» ٣٦٥٠ ٠٠٠	٣٥ ٠٠٠	هولاندا
» ٢٥٠٠ ٠٠٠	٥٠ ٠٠٠	بلجيكا
» ٢٦٠٠ ٠٠٠	٣٤ ٠٠٠	البورتلغال
» ١٣٠٠ ٠٠٠	١٤٨ ٠٠٠	السويسرا
» ١٢٠٠ ٠٠٠	٢٣ ٠٠٠	اليونان
» ١٢٠٠ ٠٠٠	١٤ ٠٠٠	الدانيمارك
» ١٠٠٠ ٠٠٠	٤٣ ٠٠٠	بلغاريا
» ٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠٧ ٠٠٠	الولايات المتحدة

وهذه الخسائر الجسيمة من نفوس وقوى بشرية ، ليست لتسد
فم المطامع المغفور ، بل اتنا لا نزال نبني السفن الحربية ونجند الشبان .
ولا يخفى ان هنالك اعتبارات أخرى هي اهم واسمى من امر المال في
هذا الشأن ، ولكن المال نفسه عبارة عن عرق الجبين ودم الشرايين ،
الذين يراقان بتحصيله . ولا ندحة لمن يتأمل معدات هذا العصر
الحربية ، البرية والبحرية منها ، عن الشعور المحزن بسوء المصير . وهب
انها ان تستعمل في حرب ، افلا يكفي انها قد تؤول الى عجز الامة ،
وخرابها المالى ؟ فديون الدول الاوربية المشهورة تتزايد وتعاظم سنة
فأخرى . فائناء الثلاثين سنة الاخيرة كانت :

جنيه	جنيه
ديون ايطاليا	٤٨٣ ٠٠٠ ٠٠٠
» النمسا	٣٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠
» روسيا	٣٤٠ ٠٠٠ ٠٠٠
» فرنسا	٥٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠
» بلجيكا	١٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠

واذا جمعت ديون حكومات العالم جميعاً لسنة ١٨٧٠ بلغت
٤ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيناً — ويا له من حمل تميد به الجبال ثقلاً !!
ولكن انظر ما اجسمه اليوم ، بعد ما بلغ ٦ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيناً ،
ولا تنس انه ابدأ متزايد متعاظم

قال سياسي ياباني : لما كان ابنا وطني لا يصدرون الا الاشغال

اليدوية الجميلة ، كانت اوربا تنظر اليهم نظرها الى الشعوب البربرية ،
اما اليوم وقد قتلنا عدة آلاف من الروس ، فانها تعترف باننا حقيقة
أمة متمدنة

يقال ان كل أمة تغار على مصالحها ويجب عليها ان تحميها —
ولكن اعظم مصلحة للأمة انما هي « السلام » . واذا ذكرنا الحرب
فغالبا ما نتصور أبتها ومظهرها ، من الحان موسيقية وملابس رسمية ،
اما الحراب التي تقطر دماً فتلقا نخطر ببالنا . ومخيف وهائل هو تأمل
مشاهد الحرب والقتال . ومن يقرأ وصف الحرب الروسية — اليابانية
ولا يشعر بهزة الرحمة وورشة الرعب ؟

فضلاً عن ذلك ، ان الحروب لا تنتهي بنجاح او ارباح طالما
المسئلة هي اي المتحاربين اجسم خسارة من الآخر . وكما قال الديوك
اوف ولنكتون « لا شيء الا معركة خسرت ، يوازي نصف الأسف
لمعركة تربع . ولا شيء أتلّف للبلاد من حرب تنجح فيها ، الا
حرب لا تنجح فيها »

« حيثما نحلّ الجيوش ، هنالك ينبت القتاد والشوك . وفي الطريق
التي يمر فيها الجيش الكرار ، ستمر وتكرّ سنو الخراب والدمار » .
فكتور كوزان^(١) ، في مقدمته لتاريخ الفلسفة ، يذكر الحرب ويقول
انها آلة التمدن ، ولكنها آفته ايضاً . ويقول ايضاً ان الحرب مؤسسة
على صخرين هما — ساحة القتال ، وخلق المجلس^(٢) . واذا رمت

(١) Victor Cousin (٢) يريد المكان الذي يجتمع فيها ارباب السياسة

الحقيقة عن الحروب ، فقل ان اهوالها لا تبرح محل محل بركات
الفكر والسلام . وما النصر الا الغلبة تحت مظهر آخر . وملتون يقول
« من يغلب خصمه بالقوة ، فما هي الا نصف غلبة » . واذا رمت
قولاً المانياً في هذا الصدد ، فاليك عبارة شلي : « العدو المغلوب قد
يشدد وينازل ثانية » ، اما المصالح فهو المغلوب غلبة حققة . وجوبرت
الكاتب الفرنسي يقول « ما أخذ بالحرب ، بالحرب يؤخذ ، وكل
سلبية تسترد يوماً ، وكل غنيمة تنتثر هباءً ، وكل الغالبين يغلبون ،
وكل مدينة مملوءة غنائم تؤخذ وتقتسم في دورها » . والتاريخ مؤيد لهذا
القول تأييداً صادقاً ، فكم من دول اشتهرت بغلباتها وغزواتها ، ثم
دالت واتقرضت وصارت خيراً يتداول

وهلاً نستقل مصائب الحياة واطارها وبلاياها حتى نعمل على
ايجاد سواها ؟ وهل تعوز الطين بلة ، والطنبور نعمة ؟ فيها الفقر مضر وبه
اطناب ومرفوعة قبابه — والقمل والمحل مما يجب علينا ان ننظر
وتتوقع — وتقلبات المناخ ، وعجز المناجم ، والاكتشافات الجديدة
وتراوح التجارة بين زيادة وتقصان وزد تغيرات العوائد والازياء —
كل هذه قد تجر خسائر جسيمة وبلاياً شديدة . اما اشد الرزايا التي
قد تقجع بها الامم فهي تلك التي تجلبها بعض على بعض « وكأنما
الشعوب تحب المخاطر والاهوال ، حتى اذا اعوزتها أوجدتها لذاتها »
ولقد قام ، لحسن الحظ ، في السنين المتأخرة ، شعور شريف في هذه

الجزيرة وفي القارة (١) ايضاً ، هو الشعور بوجوب تحسين العلاقات بين الدول الاوربية جميعاً — ولكن المسئلة ليست مسئلة مجرد شعور ، بل انها ضرورة اولية ، وحاجة ماسة يجب الاسراع الى سدها . وتقول « البلاد الاجنبية » وفي الواقع ليس من بلاد اجنبية بعد . ان مصالح الأمم مشتبكة متداخلة بعض في بعض ، بحيث كل ما ينال الواحدة يؤثر على الاخرى ان خيراً وان شراً

ان اموال اوربا مفرقة موزعة في جميع اطراف الارض ، والتجار الاوربيون لا يخلو منهم قطر او مصر ، وقد مددنا الخطوط الحديدية وبنينا المعامل في كل بلاد تقريباً

ولا يسعنا الا ان نتحسر وتأسف لو جئنا نحسب الخسائر التي جرت بها الحرب الروسية على روسيا وسائر البلاد الاوربية . فاموالنا المشغلة في ارجنتين وحدها تبلغ ١٥٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيتها ، حتى قد يصح القول انها مستعمرة انكليزية . وحريقة سان فرانسكو وحدها كلفت شركات ضمانه الحريق الانكليزية فوق ١٤.٠٠٠.٠٠٠ جنيتها

ولا اخالنا ندرك مقدار ما يهمننا ويوافق مصلحتنا ان تكون البلاد الاجنبية مفلحة وفائضة خيرات . فانها تعاملنا ، ونحن نعاملها ، وهو معلوم انه اذا « صحت الغلال » في الخارج ، هبطت اسعار ضروريات الحياة عندنا وارتفعت اجور العمال

(١) الجزيرة يكتنى بها عن انكثرا والقارة عن اوربوا عامة

ولنذكر الخسائر التي لحقت بنا وبالأحرى بشركات الضمان
من الحريق الانكليزية ، من جرّاء نار اسطولنا في حرب القرم ،
وعلى اثر غزوات الألبانيا . فالأخيرة وحدها كلفتنا ٣٠٠٠٠٠٠
جنيهاً تعويضاً للحكومة الاميريكية

قال لورد دربي مرة ان السلام هو اكبر المصالح الانكليزية .
وهو كذلك ، ولكنه لا يكفي ان نكون نحن فقط على سلام ، بل
يجب ان تكون الممالك الأخرى مثلنا ايضاً . فالسلام ليس مصلحتنا
الخاصة فقط ، بل انه مصلحة كل مملكة

واذا كانت الدول الأوروبية لتبقى تلقي العثرات بعض في سبيل
بعض ، كما قال مرة سفيرنا في باريس ، فلا ندحة عن مؤدّى الحال .
ولكن تحسين الحال ، ليس من المحال . فخذ فرنسا وانكلترا مثلاً :
فحتى الآونة الأخيرة ، ظل نفور الشعبين المتبادل شديداً لا يكاد
يُطاق والشر كل الشر من الصحافة التي كانت تبث تلك الروح
الخبيثة باقويلها وتمويهاتها . اما اليوم فقد أزيل سوء التفاهم ، وصارت
الحالة احسن منها سابقاً ، بحيث اذا عرض لنا مشكل واقبلنا عليه من
طريقة ودية ، فلا اشك في اننا نتوفق الى حله على وجه مرض

ومن عهد اقرب ايضاً ، مثل هذا الشعور كان على وشك القيام
بين انكلترا والمانيا . والامل انه زائل او واجب الزوال . فالاشارة
الودية التي أبديناها ، قوبلنا بمثلها من الالمان . ففي برلين ، وكولون ،
وفرانكفورت ، وهمبرج ، ومينخ وغيرها من المدن الألمانية التجارية ،

عقدت الاجتماعات ، واصدرت القرارات ، وعزم القوم على ان يحافظوا
ليس على السلام فقط بل على الوداد مع هذه البلاد . والامان
والانكليز جميعاً يعلمون جيداً انه اذا شبت الحرب بين القومين ،
فسواء انتصر الاولون ام الآخرون ، وكائناً السبب ما يكون ، فالعاقبة
وخيمة على الفريقين ، وقد تتقهقر بسببها جيلاً الى الوراء ، ونجلب
على الامتين شديد الوبال وضروب الشقاء

والحالة الحاضرة تلوح كفرصة مناسبة لوضع حد للاستعدادات
الحربية . اعتبر ذلك بحالة بحريتنا . وهالك المقارنة التي عملها لورد
اثرسلي في مقالة نشرها ، عن البحريات الاوربية

المحمول بالطن

انكليزية	فرنساوية	المانية
٧٦٩ ٩٠٠	٢٤٩ ٥٠٠	٢٣٠ ٠٠٠
٢٨٠ ٦٠٠	١٤٨ ١٠٠	٥٥ ٧٠٠
١ ٠٥٠ ٥٠٠	٣٩٧ ٦٠٠	٢٨٥ ٧٠٠

هذا والسفن الحربية القديمة وما اشبه غير داخله في الاحصاء ، وعلى
فرض انها دخلت ، فالنسبة لا تتغير تغيراً يذكر

وبحث صاحب الاحصاء المسمى اليه ، في لوائح بحريات هذه
الممالك الثلاث ، ووجد ان النسبة بعد تنفيذها تكون كما يأتي :

المحمول بالطن

انكليزية	فرنساوية	المانية
١ ١١٩ ٠٠٠	٣٨٤ ٠٠٠	٥٢٣ ٠٠٠
٨٠٩ ٠٠٠	٣٩٥ ٠٠٠	٢٢١ ٠٠٠
١ ٩٢٨ ٠٠٠	٧٧٩ ٠٠٠	٧٤٤ ٠٠٠

فترى اذاً انه اذا نُفذت هذه اللوائح ، تحملت الدول الثلاث
اثقالاً عظيمة من المصاريف وظلت النسبة بينها كما هي تقريباً . واللورد
اقرسلي يتساءل في مقالته المشار اليها « الا يمكن احداث ترتيب دولي
يضع حداً للاستعدادات الحربية عند هذه الدول الثلاث ؟ » وانا
اقول جبذا لو نحدث ترتيباً معقولاً نستغني به عن كل ذلك مرة
واحدة (١)

وغني عن البيان اننا لا نرضى ان نهمل مصالحنا ونهضم حقوقنا
ولا ننتظر من الآخرين ان يرضوا بمثل هذا لانفسهم . وجل ما نروم
ان تقبل على المشاكل الدولية بروح ودادية ، ونحلها على طريقة
حبية ، واذا عجزنا عن التسوية فيما بيننا وتعذر علينا الاتفاق وحسم
الخلاف ، عمدنا الى دولة صديقة للطرفين واقناها حكماً نرضى بحكمه

(١) وحكومتنا احدثت شيئاً من هذا القبيل منذ ظهرت هذه المقالة
(١٩٠٦) ولا شك ان القوم يودون ان يحدثوا اكثر فاكتر — هذا اذا
وافقت الممالك الاخرى واقتدت بهم

وفصل خطابه. اجل اننا نريد ان دول أوروبا المختلفة تتعامل وتتصرف بعضها مع بعض معاملة الصديق للصديق وتتصرف الجار مع الجار ، وكالكرام لا كلصوص البر ، وكابناء دين لا كقرصان البحر

يقال « خير مانع للحرب ، هو الاستعداد للحرب » . ولا شك ان هذا القول من الصحة يمكن بالنظر الى مملكة معينة من الممالك ، ولكن اذا نظرنا الى أوروبا كافة فليست هذه الاستعدادات الا خطراً يتهدد السلم العام

فضلاً عن ذلك ان المقارنة بين أوروبا واميركا تلمع الى اعتبارات مهمة وخطيرة . فلتنافسات التجارية تشمل العالم كله . وأوروبا حتى في وقت السلم لا تخلو من ٤٠٠٠٠٠٠٠ نفس تحت السلاح ، ومصاريفها لاجل البرية والبحرية تفوق ٢٥٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيهاً سنوياً . وبحرية الولايات المتحدة وبريتها مؤلفتان من ١٠٧٠٠٠٠ جندياً ونفقتهما لا تقل عن ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيهاً اما سكان الولايات المتحدة فيبلغون ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ وسكان أوروبا كلها نحو ٣٥٠٠٠٠٠٠٠٠ نفس . فترى اذاً ان سكان أوروبا اربعة اضعاف سكان الولايات المتحدة ، اما جنودها فاكثر من جنود الولايات باربعين مرة . فعلى شاطئ الاتلانتيك الواحد ، ولايات اميركا المتحدة ، وعلى الشاطئ الآخر حكومات أوروبا غير المتحدة ، بل المتفرقة ، بل المتمزقة المتميزة تحاسداً وتضاغناً — حكومات شاكية السلاح ، مثقلة نفسها بالمعدات وحملها ، فتمشي غير آمنة عثاراً . فالوطنية — حب المرء لدولته —

سجية من السجايا المحموده ، ولكن هنالك عاطنة ان لم تكن اشرف ،
فبالاقل أعم واكرم ، وامس لزوماً وضرورة باعتبار حلة العالم
الحاضرة ، ولكنها لسوء الحظ اكثر ندوراً واقل وجوداً — الا وهي
الاخلاص الدولي المتبادل

والاقتصادي الاميركي المرحوم مستر ا . اتكنسون يقول :
« اذا اعتبرنا الضرائب والمكوس التي تضرب في أوربا ، والمنافسات
الحرية بين دولها ، وقابلنا بينها وبين الولايات المتحدة من وجهة
اقتصادية وجدنا ان هذه المملكة تربح ٥ في المئة سنوياً قبلما تتمكن
القوات المتنافسة من دفع ضرائبها وتسديد نفقاتها الحرية . هذه هي
العقبة التي يجب على اوربا تجاوزها ، وهذا هو الحل الذي يلزمها ان
تنجو من ثقله ، قبلما تصح المباراة بين صناعاتها وتجارتها ، والصناعة
والتجارة الاميركيتين » . ناهيك عن ان المصاريف الحرية في اوربا قد
زادت اضافاً منذ كتب الكاتب حتى اليوم ، وامل الفرق بات يبلغ
١٠ في المائة في هذه الايام . ولا يفهم من قولي هذا ان الولايات
المتحدة مصيبة في امرها كل الاصابة وانها تستخدم وقتها ورجلها في
الطريقة المثلى . فان الخطة الجارية عليها من صرف الهمم والقوى
باسرها الى المصانع والمعامل ، وتحويلها عن ملايين الفدادين من
الارض الصالحة للزراعة ، تلك الخطة مبعدة للشعب عن عيشة القرى
والمزارع الصحية الطبيعية ، بحيث لا يرون بداً من الاحتشاد والازدحام
في المدن الكبرى . وهذا الخطأ وان كان يعيق التقدم ويؤخره

بعض الشيء فانه لا يمنعنا . وقد كان يمكن للولايات المتحدة ان تعول علينا في اشتراء قسم من المصنوعات ، لتصرف قسماً من اعتنائها الى اراضيها الواسعة وزراعتها

ولكن ما هو مصير اعمالنا نحن الاوربيين يا ترى ؟ لا شك اننا متمتعون بعدة امتيازات ومنافع . ولكن ينبغي لنا ان ننظر الى مستقبل امرنا . قليل من اراضيها ما لم نمسه باستعمال واستثمار . وصحيح ان مناجم الفحمية لم تنفذ مادتها بعد ، ولكننا منذ اليوم مضطرون الى التعميق وخرق طبقات الارض لاستخراجها ، ولا يخفى ما في الامر من زيادة الكلفة . اما مناجم التنك والنحاس والحديد فالاولى قرينة النفاد ، والثانية غير بعيدة والثالثة غير مستحيلته . ولما كان الامر كذلك فلا بد لنا من اعداد العدة لمستقبل الايام

ولكن ما أبعد اوربا والحالة هذه عن تحقيق هذه الامنية ، فاتها اشبه بمعسكر ومحلة قتال . فاين السلم واين السلام ؟ حرب دائمة ، تستنزف من اجلها الاموال وتبتز دراهم العمال ، ولكن لادم يراق او يهرق والحمد لله . اما النتيجة فهي اننا عوضاً عن توفير رأسمال نتركه لاولادنا ، ها نحن نثقل عواتقنا بديون نورثهم اياها

فقد تبين ان اصحاب المعامل الاربية ، مظلومون من هذا القبيل ظلاماً لا قبل لهم معه بمباراة المعامل الامريكية ، واذا لم تتلاف الامر زادت الحال اشكالا . فضلاً عن ذلك ان انتشار الاشتراكية ، وقيام الفوضى في اوربا انذار دائم بالخطر المحدق بحكوماتها وحكامها ، اذ قد اصبحت

حالة العمال اشد ضنكاً مما يحتمل ويطاق ، وبحيث اصبح اكتفاء مؤونة الثورات موقوفا على العمل على زيادة الاجرة ، وتقليل ساعات العمل ، وتنزيل اسعار الحاجيات والضروريات

وخير الوسائط الى هذه الغايات ، انما هي تخفيف مصاريف البحریات والبریات . ومن الواجب على اوربا ان تنظر الى نتائج التسليح والتجنيد ، البادية والخافية منها جميعاً . فان الخوف من الحرب والاهتمام لا لقاء شرها مما يشغل الافكار عن اتقان الصناعات وتحسينها بل مما يغفل الايدي عن العمل

ومصاريف الولايات المتحدة ومصاريف مستعمراتنا على بحرياتها وبرياتها ليست بشيء يذكر بجانب ما تصرفه دولتنا وسائر الدول الاوربية في هذا السبيل ، بحيث لا تزيد المباراة الصناعية والتجارية الا صعوبة فوق صعوبة . ذلك لان الصناعات تتحول بحكم الضرورة الى البلدان الأخف ضرائب ومكوساً ، نحولاً تدريجياً يظهر فرقه مع الايام . وذلك مما يزيد الطين بلة والامر إشكالاً ، بحيث اذا كانت اوربا لا تعدل عن منهجها هذا وتنهج نهجاً جديداً ، حق لها ان تتوقع سوء المصير وتخشاها . وبالحقيقة نظل كأنا على فوه البراكين ، ما دمنا هذا دأبنا في الاستعدادات الحربية

ولنذكر ان ضنك حال العمال والمشقات التي يكابدونها ، لا تقتأ تمهد السبل لانتشار الاشتراكية ، وانه لا يرجى اصلاح لحوالهم المعاشية ، مع الاستمرار على تحمل هذه المصاريف الحربية . واني

اخشى ان الاشتراكية ستزيد الأمر خطراً وإشكالاً، ولكن ما الحيلة
وهي النتيجة الطبيعية لتدمير الشعب من قِسمهم واقدارهم . واذا لم
يتدارك الحال باصلاح ، زادت حالة الفقير في أوربا شراً وسوءاً .
ولماذا التجاهل ؟ وحتى مَ التعامي ؟ فالثورة ان لم تقدح شرارها عما
قليل ، فانها كامنة كمون النار في العود ، ولا بد من انفجار بركاتها
انفجاراً لم يسبق له مثيل . فاذا كانت ملوك اوربا لتريد البقاء على
عروشها ، واذا كنا لنود استتباب السلام ، فليشرع الساسة الاوربيون
في تحسين العواطف وليعملوا ما يؤول الى تخفيف الاثقال التي ينوء
بها الصناع والعمال ، والتي تزيد مصائب الحياة ومصاعبها زيادة هائلة
وكثيراً من الممالك تحاول ان تحارب سواها بكثرة ماتقيم من
الحواجز والتضيقات والتحديدات التجارية . اعتبر ذلك بالتحاسد ،
ومبادلة سوء الظن وزيادة الرسوم على الواردات وما اشبه

فلا يخفى ان اغلب البلدان الاوربية تزيد الرسوم وتعمل بغير
مبدأ حرية التجارة . على ان هذا القول لا يصدق علينا وعلى القليل من
الممالك المتنوّرة كهولاندا وسويسرا . والولايات المتحدة نفسها عاملة
بسياسة حماية التجارة ، سياسة الحصر والتضييق التي تعيق التقدم
وتؤخره ، مع ان تجارتها الداخلية من كندا شمالاً الى مكسيك جنوباً
حرة مطلقة بين ولاياتها . فلتأمل ! لماذا يا ترى يجوز ان تكون التجارة
حرة بين ولاية مستشورنس وولاية كاليفورنيا ، وبين ولايتي ماين
وتكساس ، فقط ، ثم يوضع الحد الفاصل ؟ واذا كان وضع الرسوم

على واردات كندا « وبريطانيا العظمى » يعود على نيويورك بالنفع والفائدة، فلماذا لا يتقاضى مثلها على واردات كاليفورنيا؟ ولماذا تجري حرية التجارة بين مرسيليا وكالاي، وفي عموم الامبراطورية الالمانية، ولا تتناول لندرا ايضاً؟

ان وضع الرسوم على البضائع الاجنبية لا يعول عليه زيادة للمدخل. لان ثروة البلاد وتوفير مدخولها لا يأتیان عن سبيل تقاضي الرسوم، كما يمكن ان يأتيا عن طريق حرية التجارة. اعتبر ذلك بحالة داخلية البلاد الاميركية والالمانية، فان حرية التجارة فيها لتأتي بالتأثير الحسن. والولايات المتحدة من هذا القبيل اصبحت اوسع ميدان لحرية التجارة في العالم بأسره. بينما الولايات (اي الحكومات) الاوربية تنصب حائل الرسوم بعضها لبعض، وتقيم الحواجز المنيعة في وجه الصناعة والتجارة وتضر بعضها بعضاً

واليك فقرة من خطاب فاه به مركز اوف سالسبورى (١٨٩٧) مصيباً من الحقيقة كبدها: « والاتحاد الاوربي هو الوسيلة الوحيدة لاتقاء شر الحرب. لا ينحناكم ان آلات الفتك الذرية ومعدات القتال تزايد عدداً وتحسناً في كل قطر من الاقطار، وكل سنة لنا اختراع جديد، وطريقة جديدة، لفتك الانسان باخيه الانسان. وكل امة عاملة على حفظ كيانها، ومنخرطة في سلك المتنافسين المتبارين في هذا المضمار، مضمار الخراب والدمار. فاذا كنا نأمل ان نوقف هذا التيار عند حد محدود، ونخلص المدنية من ضربة الحرب

القاضية ، فما املنا الا بتحقيق امنية تقارب الدول بعض الى بعض ،
 وإحكام عرى المودة والاخاء بين هذه وتلك ، بحيث تصير تحسم
 الخلاف على طرائق حبية ، حتى اذا تم وثامها ووافقها اصبحت اخيراً
 كياناً دولياً واحداً ، واظهرت للعالم بأسره ، عجائب لم يحلم بها من
 نتائج حرية التجارة والسلام العام ذلك بفضل قوتها المتحدة اذ ذلك .
 وهاك ما صرح به المرحوم سر هنري كبل بنرمان في خطاب ألقاه
 عام ١٩٠٥ ، « وفي ما خص المانيا ، اني لا ارى داعياً ولا سبباً لتعطيل مصالح
 الامتين المتبادلة ، ونحن أبداً نرحب ونسر بالمظاهرات الودية ولو
 غير الرسمية التي يتبادلها القومان . واني لوائق من ان زيادة الاهتمام
 بالتسليح والتجنيد ، خطر عظيم على السلام العام . فان سياسة زيادة
 المعدات ، تؤول الى تثبيت الاعتقاد بان القوة هي الطريقة الفضلى ان
 لم تكن الوحيدة لحسم الاختلافات وحل المشاكل الدولية . ولعمري
 الحق انها لسياسة تؤول الى ايجاد حزازات جديدة ونك ، جراح قديمة .
 واني لقائل لكم انه لا يتمكن مبدأ السلم والتحكيم من النفوس مع
 توالي الايام ، حتى تنصرف همم الساسة والوطنيين الى كيفية تغيير
 جميع هذه المعدات الحربية بحيث تصير موافقة لحالة السعادة والسلام .
 واي دور اشرف تمثيلاً لبلادي على مسرح العالم ، من دور قيادتها
 ورأسها لمخالفة سلمية تدأب وتسعى الى هذه الغاية النبيلة ؟ »
 وها قد بحثنا الآن في المسئلة من وجهتيها المادية والاقتصادية ،
 انما لا يحسن بنا ان ننسى اننا امة مسيحية . ولو كانت الامم المسيحية

امماً من المسيحيين ، العاملين بمبادئ رأس دينهم ، لما كان هنالك
حرب ولا قتال . وحالة أوروبا الحاضرة عار وشعار على الاوربيين كيران
شديدان ، وما ذلك لان القتال مما يمجج الطبع السليم فقط ، بل لان
الحرب ومبادئنا الدينية على طرفي تقيض . وحتى اليوم لسوء الحظ لا
يخلو الصحافة ولا البرلمانات من رجال لا دأب لهم ولا شأن الا في زرع
بذور سوء الظن وتكبير اسباب الخلاف وتعظيمها ، وإيغار صدور
الشعوب ضغائن واحقاداً ، والنتيجة ما ترى من تلوخ صفحات تاريخ
الانسانية بدماء بني الانسان مراقبة بيد اخوانه في البشرية . على ان
مصلحتنا اهم من خلافاتنا . وكأني بالدول لا تدرك شدة ارتباط مصالحها
بعض ببعض ، وان الامم على اختلافها اعضاء جسم سياسي واحد ،
تتقدم الواحدة او تتأخر فتؤثر حالتها على حالة اخواتها بدرجات متفاوتة
في قديم الازمان ، كان كل فرد يثار لنفسه ، ويحصل حقه بيده .
اما اليوم فقد اصبح ذلك محظوراً ، بل جرماً يعاقب فاعله . فعلى
الفرد اليوم ان يلتجئ الى شرائع بلاده ويستعين بها على تحصيل
حقوقه المهضومة . افلم يأت بعد الوقت الذي تصير فيه الدول في حكم
الافراد ، اي محظوراً عليها ان تثار لنفسها ومنتظراً منها ان تتقاضى
بعضها الى بعض ؟

فالامة كاملة ليست افضل من الفرد كفرد من حيث الحكم في الاحوال
الشخصية ولا يليق بالامم الراقية ان تهب الى السلاح ، كما يفعل
البرابرة عند ادنى خلاف . وأخلق بكل قوم يدخلون بلاد قوم

رأساً بالسيوف والمدافع ، وقبل عرض امرهم على مجلس تحكيم ، ان يُعدّوا مخلصين بالنظام ومكذّرين لصفاء السلام العام

والامر مهم من كل الوجوه وفي جميع الاحوال — بل انه واجب وضربة لازب . اجل انه لمن الضرورة باعظم مكان ان نبذل المستطاع لتجنب سوء التفاهم الدولي ، ولتمكين عرى المودّة والإخاء بين امم الارض جميعاً . والتوقف عن مواصلة التجهيزات والاحتياطات الحربية يكون بركة عظيمة للعالم عموماً ولأوروبا خصوصاً — بل انه قد ينجيها من تيار الثورات وينتشلها من بين براثن الشقاء . لانه اذا تمّ خفّت اذ ذاك اثقال المكوس والضرائب ، وخفّت مشقات ساعات العمل ، وارتفعت اجور العمال وهبطت اسعار الضروريات والحاجيات ، فتمت بذلك سعادة الشعب واتفق شقاؤه . واني لامل اذاً اننا سننتهز الفرص للشروع في تحقيق هذه الامنية . ولا بأس ان كنا نشرع ونحبط سعياً ، فما علينا الا ان نفرغ ما في الوسع ، وحسبنا الشعور باننا بذلنا الجهد والطاقة . على انني لا أعزّز هذا الخوف من الخيبة والفشل ، لاني واثق من حسن طوية اوروبا وسلامة طبعها . واذا تكلمت اعمالنا بالنجاح ، وقامت هذه السياسة مقام سياسة التحاسد واساءة الظن ، فقل هي نصرة سلمية ، لا حرية ، وبركة عظيمة لأوروبا وللعالم اجمع . عندئذ ، وعندئذ فقط ، يحق لنا ان نرجو لأوروبا مستقبلاً باهراً وعظيماً . ولأسمى مطمح يمكن لامة ان تطمح اليه ، انما هو السبق في مضمار تأييد « السلام على الارض وحسن الطوية بين الناس »

كلمة

في تقریظ هذا الكتاب ^(١)

عنيت منذ اشهر الصيف الماضي بمطالعة هذا السفر الجليل الموسوم بالسلام والسعادة لمؤلفه العظيم اللورد اثبري باللغة الفرنسية فاعجبني ما حوى من درر الحكم الغوالي و بدائع الكلم الثمان بين منشور ومنظوم حتى رأيتني مسوقاً بدافع الاعجاب بالمؤلف والمؤلف الى طلب الاذن من جناب اللورد بنقل كتابه هذا الى اللغة العربية خدمة لابناء وطني الاعزاء . وقد نشرت بالفعل منه قطعة بالمؤيد الاغر بعددين من اعداد شهر ديسمبر سنة ١٩١٠ وما كنت احسب ان حضرة الشاب الاديب وديع افندي البستاني يفرغه في هذا القالب الذي عني بافراغه فيه . ولكن حضرته لما اطلع على ما عربت واطلعتني

(١) بعد ما اوعز اليّ حضرة اللورد بترجمة كتابه هذا وبعد ما عزمت على ذلك اتفق ان حضرة الكاتب الفاضل والوطني الفيور صالح بك حمدي حماد اطلع على ترجمته الافرنية فاستأذن المؤلف بنقله الى العربية هو ايضاً ظناً منه اني مترجمه باختصار فاجابه بالايجاب . ولكن لما اطلع حضرته على فصول الكتاب وهو على وشك الصدور تكرّم بكتابة هذه الكلمة فلم يسعني الا نشرها مقدماً لحضرته خالص الشكر لاجل حسن ظنه بي ومردداً بعض ما قلته في حضرته بعد ما تشرفت بمقابلته

فصالحٌ صالحٌ للمدح امدحه والمدح للذات لا الاصل والنسب
اني خبرت سجاياء وشيئته فان حمدت فحمدني غاية الارب

على هذه النسخة من ترجمته سررت منها ورأيت لم يعد عما قصده المؤلف وان ترجمته قد جاءت وافية بالمرام لا سيما وأنه لشاعريته قد ترجم الشعر شعراً . فلهذا لا يسعني سوى اطراء هذا الشاب الاديب والثناء على همته ونشاطه وحسن اختياره في خدمة الشبيبتين المصرية والسورية واتحافهما بامثال هذا الكتاب الثمين بل هذه الدرة اليتيمة . ولا غرو فحضرة وديع افندي فرع تلك الدوحة البستانية التي جلت خدماتها للغة العربية الشريفة وعظمت آثارها في النهضة الحديثة السورية والمصرية :

وزندك من زناد واريات اذا لم يحمد الزند الصلود

صالح صمري صمد

القاهرة في ٨ ديسمبر ١٩١٠

كلمة اخرى

وحضرة الصديق نقولا افندي الحداد كان يطلع على الترجمة
والاصل والكتاب تحت الطبع وكنت اشكر له اهتمامه بالموضوع كما
اشكر له كتابه التالي :

حضرة الكاتب الشاعر وديع افندي البستاني

جاء كتابك في « السعادة والسلام » وهما يكادان ينقضيان من
المجتمع البشري . فعسى ان يكون الكتاب رسولاً يبشر الملاّ بهما او
رذاذاً يروي غرسهما

اما السعادة فهي شعور في النفس يوثر لذة في الجسد . فاذا رقينا
النفس الى ما شاءت لها المطامع والاميال وتركنا الجسد مغلولاً باغلال
المجتمع البشري بحيث يعجز عن نيل تلك الاميال وينوء تحت الهموم .
فلعمرك اين السعادة ! انا بترقية نفسه وعقله نزيد وايم الحق شقاءه
اما السلام فهو تفاهم بين الافراد ينشئ وثاماً في المجتمع . فاذا
رقينا تفاهمهم الى ما شاءت لهم المصالح العامة والمنافع المشتركة وتركنا
القوانين والشرائع تطلق العنان للتنازع والتحاسد بين الافراد وبين
الامم بحيث يبقى الاحتكاك شديداً فأني سلام نرجوه بين البشر
اشكر الله ان كتابك قد يشفي العلتين ويروي الغلتين ؟

ايها الاديب — ما دمنا نرى ربع القوى الاجتماعية — العضلية
والمالية — موقوفة للتسليح استعداداً لرد الغارات والتكافؤ في الحروب
فهل نعتقد ان بين الامم تفاهماً؟ واذا لم يكن ثمت تفاهم فاين السلام؟
وما دمنا نرى المحاكم غاصة بالمتقاضين والسجون مملوءة من
المجرمين وسواد الناس يكابدون شديد العناء لحفظ الرمح ويرون
ان الارض على رحبها ضيقة بهم ولولا ان الحياة عزيزة لتهافتوا الى
الاتحار — ما دمنا نرى ذلك فهل نجد السعادة اذا نشدناها
بين الانام؟

متى تحولت السيوف والبنادق والمدافع الى محاريث وآلات
صناعية والمدركات والرعادات والغواصات والمدمرات الى سفن تجارية
والجنود وضباطهم الى عمال والحصون والمعقل الى مرافئ ومعامل
واموال الحروب والتجنيد الى الملاحي — قلنا حينئذ ان بين
الامم سلاماً

ومتى تحولت المحاكم الى أندية ومجالس والسجون الى مكاتب
ومدارس والمشروعات الكبرى الى يد الامة بحيث ينال العامل
اجره لقاء عمله — قلنا حينذاك ان الانام في سعادة

قد تقول اني أبتغي هذه السعادة من حلم والحقيقة من وهم لان
التنازع سنة فوق كل سنة والمطامع شريعة فوق كل شريعة ، فأقول
لماذا نفش اذاً انفسنا باننا عالم متفاهم ومجتمع متوائم ونحن بالحقيقة
جمع متخاصم في نزاع دائم . وما فضل القوانين الدولية اذا لم ترم

السلح وتكسر السيوف والرماح وتصرف الجنود وتمزق البنود .
وما شأن القوانين المدنية اذا لم تساو بين اهل السعي وتحمي الضعيف
من القوي وتنصف العامل من صاحب العمل ؟

ولماذا نرى مثل ركفلر يجمع في حياته ثروة مليون من البشر
وهو لو أعطي أجره بالحق جزاء حذقه وجهاده لما نال اكثر مما ينال
رئيس جمهوريته في حين ان الوفا من الناس يتوسلون الى جزاء
تعبهم فلا ينالونه ؟

ولماذا نرى مئات لاهم لهم الا ان يتفتنوا في قصصهم ولهوهم
ويتنافسوا في بذخهم وترفعهم والوفا يتمنون الردى هرباً من شقايمهم
فلا يجدونه ؟

ولماذا نرى الذين يساومون على الاعراض ويتاجرون بالفساد
— يبيعون الخمر سماً للعقول والاجساد ويدعون الى القمار لتخريب
الديار — لماذا نرى هؤلاء يجمعون الثروات وينعمون في الملذات
والذين يتمسكون بالفضيلة ويجاهدون في سبيل الاستقامة يتسولون
عملاً من الهيئة الاجتماعية فتبخل عليهم به ؟

وما هو فضل الشرائع الادبية ونحن نرى النفوس تتماهى في
اغوائها وتتطوح في شهواتها وتقسو في مطامعها ؟

لعمرك ما تلك القوانين الدولية والمدنية والادبية الا قيود
واغلال في أرجل وأيدي الافاضل لكي يستحكم من مص دمايمهم
الاراذل

وما تلك القوانين الا خيالات وأشباح بلا نفوس ولا أرواح
فلا قوة لها ولا حول

لا ترجع الانفس عن غيها ان لم يكن منها لها زاجر
فترقية الافراد والمجتمع تقوم بتقويم النفوس وتدهيث الطباع
لا بسن القوانين والشرائع . فيجب ان يُطرد الرجيم قبل ان
يستفتى الحكيم

وكتابك أعزك الله قد عبرته بسرور فرأيته قد تسدد الى هذا
الغرض . فاذا أصاب من الناشئة العريضة رحابة علمت منه فضل
أدبك وفائدة درسك والافلك من ضميرك ثناء على قيامك بالواجب
عليك وأنت عامل من جملة عوامل الاصلاح التي أتجهها المجتمع
وبستاني في عداد البستانيين الذين ما فتؤوا يشتغلون في حديقة
العلوم والآداب التي غرس غراسها كبيرهم الخالد الآثار
فاقبل ايها الصديق ثناء من يتمنى ان يكون عاملاً اهلاً بين
عوامل المجتمع الصالحة

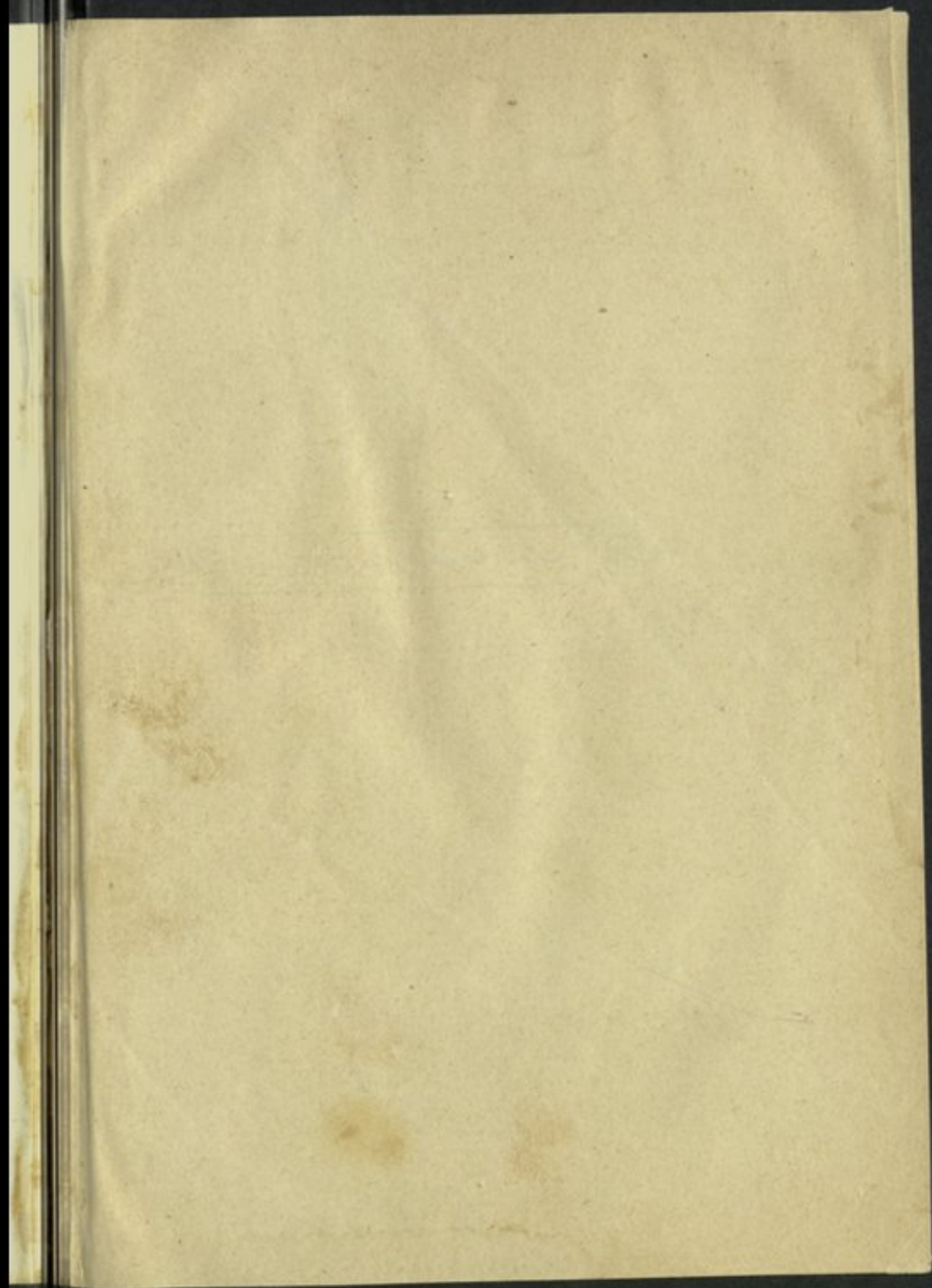
نقولا الحارث

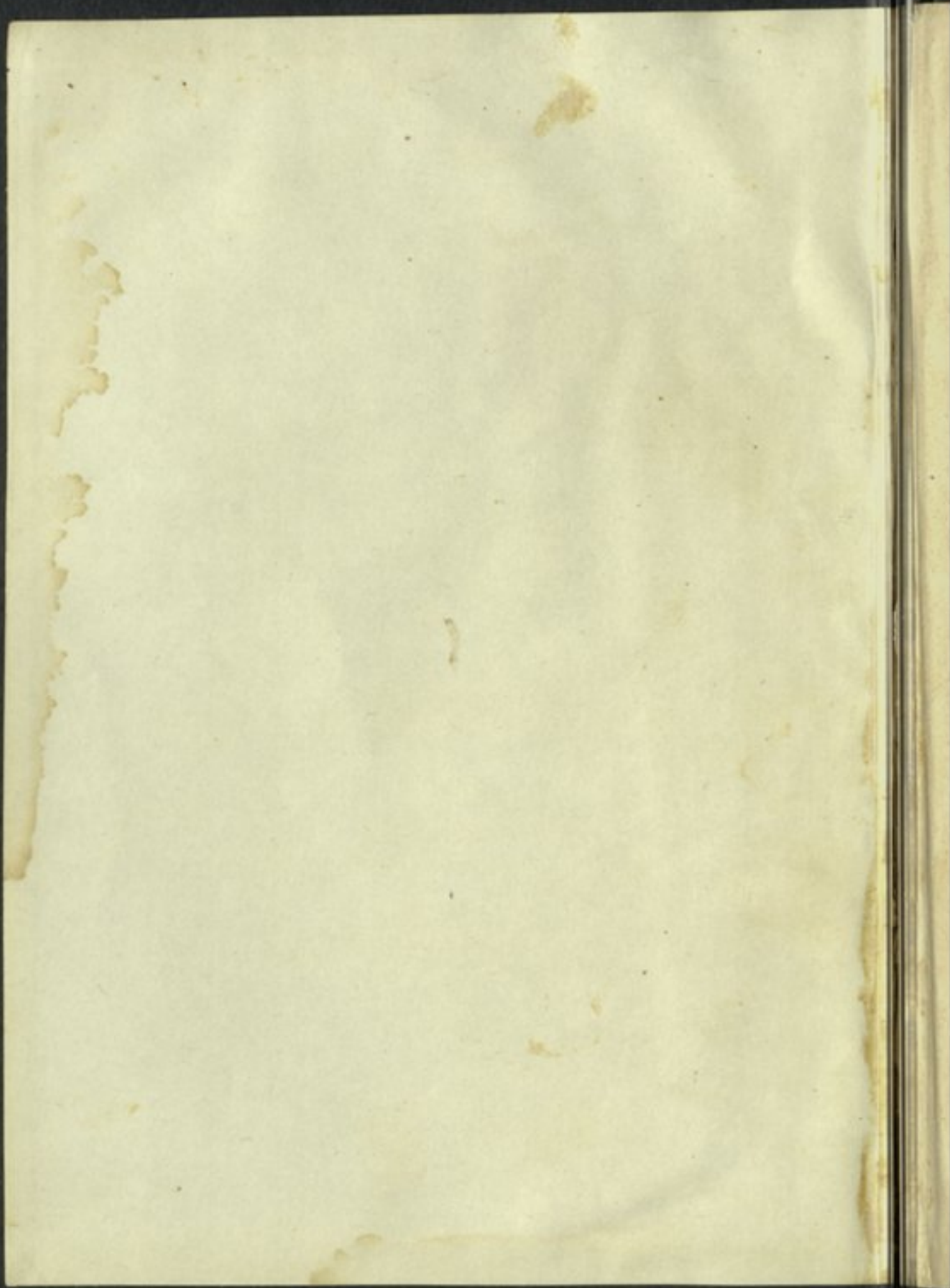
مصر ١٠ ديسمبر سنة ١٩١٠

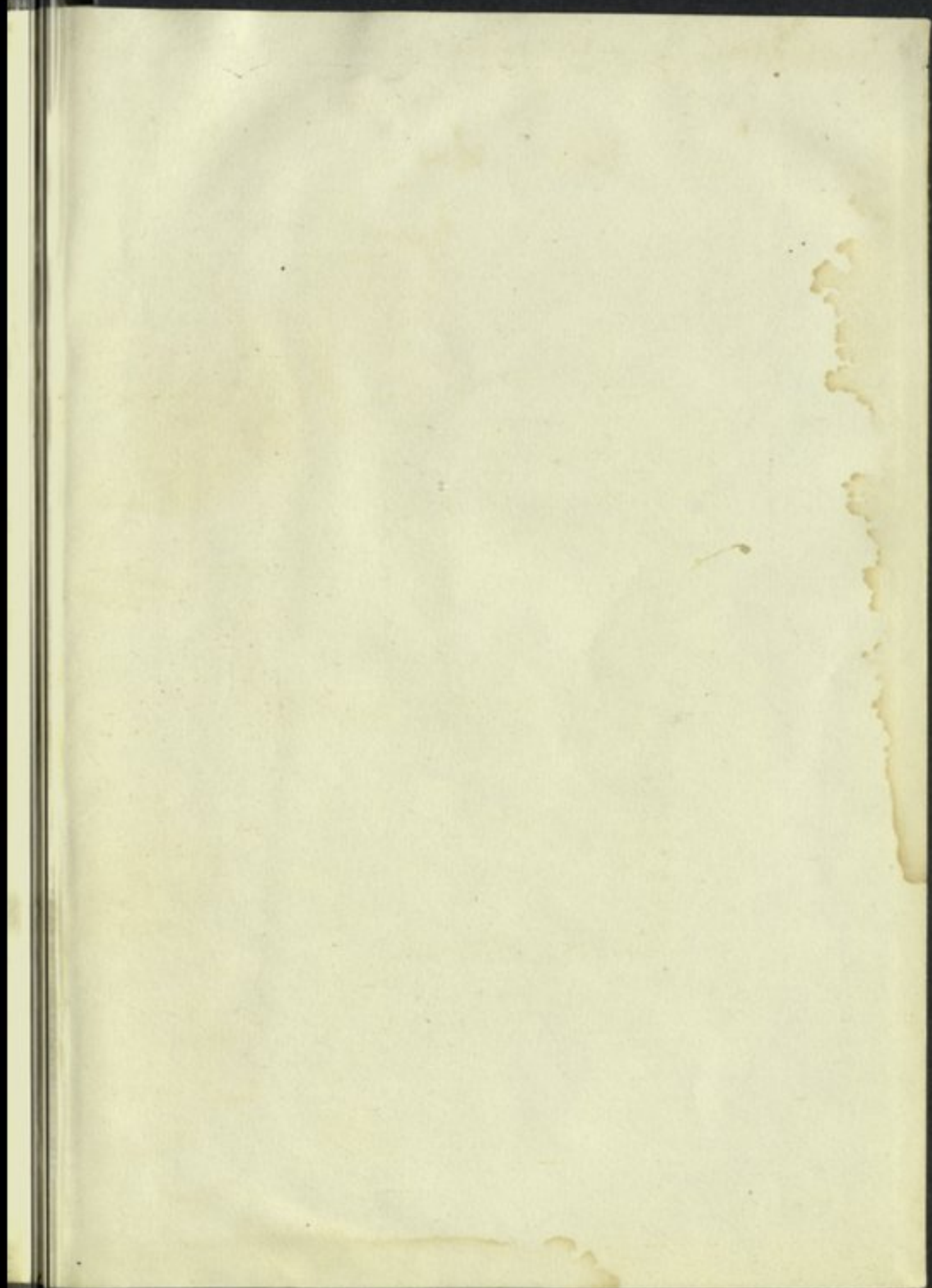
فهرست

الموضوع	صفحة	الفصل
في السعادة	١	١
الجسم	٢٢	٢
العقل	٣٩	٣
الأمل	٥٢	٤
القناعة	٦٦	٥
الدهر	٨١	٦
المعروف	٩٢	٧
التهديب	١٠٦	٨
الاصدقاء والاعداء	١١٧	٩
المال	١٣٣	١٠
الخوف من الطبيعة	١٤٢	١١
حب الطبيعة	١٥٠	١٢
الوقت	١٦٨	١٣
الحكمة	١٧٦	١٤
الدين	١٨٨	١٥
اللاهوت	١٩٦	١٦
السلام العقلي	٢١٣	١٧
السلام الدولي	٢٢٦	١٨

حقوق اعادة طبعه محفوظة للمعرب









AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

i71.4
A940A
C.1